المقتطف

الجزء الثالث من المجلد الثالث والتسعين

١ ايلول سنة ١٩٣٨ — ٥ جمادى الثانية سنة ١٣٥٧

الكون وحجمه (١)

لوح تاريخية

يقال ان تاريخ الجنس انما هو تاريخ الفرد مكتوباً بحروف عريضة . وهذا القول ينطبق انطباقاً خاصاً على مسألة الكون وحجمه . فالطفل الوليد يعجز عن تصوُّر حجم الكون لان مهدَه ومرباهُ وحدة مقياسه . وكذلك كان الجنس البشري في مهده . فقد سلَّم ان الارض — وهي مقرُّهُ ودنياهُ — هي اهم جزء في الكون بل ومركزهُ وانها في حجمها هي الكون

ولكننا عندما نتغلغل في منابع العلم الاولى نرى دلائل لهذا الرأي دوبداً . ففي القرن السادس قبل المسيح قال فيثاغورس ان الارض كروية . وفي القرن الرابع ق م ذهب ايراتوثانيس القيرواني الى ان ما يبدو من دوران السماوات ناشئ عن دوران الارض الكروية . وكان من شأن هذه الاقوال ان حملت الناس على تنقيح آرائهم في حجم الارض ومقامها بالنسبة الى اجزاء الكون . ثم قام ارسترخس الساموسي في القرن الثالث ق م . وحاول ان يقيس حجم الكون بطريقة القياس العلمي الدقيق . فقد لاحظ انهُ عندما يكون القمر نصفاً يكون الخط الوهمي الواصل بين القمر والشمس عمودياً على الخط الواصل بين القمر والارض . وان الزاوية التي توامهُ الخطوط الواصلة بين الشمس والارض والقمر تحتوي على زاوية قائمة عند القمر وثمانية

(١) بحث مبني على محاضرة عديدة للسر جيمز جينز وكتابه « الكون الذي حولنا » وكتاب لاسبه السر

التي عند الارض يمكن قياسها بالرصد . والثالثة تعرف بالاستنتاج الهندسي . وبهذه الطريقة حاول ارسترخس ان يعرف النسبة بين الاضلاع الثلاث في هذه الزاوية اي النسبة بين ابعاد هذه الاجرام الثلاثة ، احدها عن الآخر . وقد كانت نظريتهُ سليمة ولكن ارصادهُ كانت خاطئة . والواقع ان الزاوية عند الارض تختلف عن الزاوية القائمة بمقدار تسع دقائق من القوس . ولكن ارسترخس حسب الفرق ثلاث درجات . وكذلك استنتج ان الشمس تبعد عن الارض عشرين ضعفاً يُعدّ القمر عنها حالة ان الشمس تبعد عن الارض ٤٠٠ ضعف يُعد القمر عنها

ولم يكتفِ ارسترخس بتقدير الابعاد النسبية ، بل سعى كذلك الى تقدير الابعاد الحقيقية . فبفضل انكساغوراس فهمت طبيعة الخسوف . فكان معروفاً حينئذٍ ان الظل الذي ينتشر على وجه القمر وقت الخسوف هو ظل الارض . ولما كان ارسترخس يعلم ان الشمس أبعد كثيراً من القمر عن الارض ، فانهُ ذهب الى ان مساحة الظل قريبة من حجم الارض اي ان الظلّ الواقع على القمر دائرة من حجم الارض تقريباً ، كما ترى على بُعدٍ هو بعد القمر عن الارض . ولما كان يعرف حجم الارض فقد كان من السهل عليهِ ان يحسب بُعد القمر عنها

وفي هذه الناحية ايضاً كانت طريقة ارسترخس سليمة وأرصاده خاطئة . فقد قدّر ان ظل الارض يفوق قطر القمر ضعفين . والواقع انهُ يفوقهُ ثلاثة أضعاف . وحسب ان القمر يشغل في الفضاء قطعة من القوس قدرها درجتان والحقيقة ان قدرها نصف درجة . فكانت النتيجة انهُ أخطأ في حساب بُعد القمر وحجمه . والواقع ان القياس الفلكي الدقيق لم يكن من مزاياه ، ولكنهُ كان أول باحث وجه النظر الى عظم الابعاد الفلكية

ثم ان ارسترخس أضاف الى ناحية الابعاد العظيمة في علم الفلك رأياً قد يفوق آراءهُ السابقة شأناً اذ أثبت بتدليل يذكرنا بتدليل كوبرنيكوس في القرن السادس عشر ب . م . ان الارض تدور في فلك دائري حول الشمس . ثم بنى على ذلك قولهُ بأنهُ ما زالت النجوم تبدو ثابتة في مكانها على الرغم من دوران الارض فيجب ان تكون بعيدة جدًّا عن الارض . ومن أقوالهِ ان النسبة بين ابعاد هذه النجوم الى فلك الارض كالنسبة بين نصف محيط كرة ومركزها . اي ان النظام الشمسي لم يكن الاَّ بمنزلة نقطة في الفضاء

وغني عن البيان ان بطليوس الاسكندري تحدّى هذه الآراء في القرن الثاني ب . م . وغلّب آراءه عليها . فقال انهُ لو كانت الارض تدور لتأثرت في الفضاء الاجسام التي في منطقتها الاستوائية . وخلص من ذلك الى انهُ لو صحّ رأي ارسترخس في دوران الارض لتبدّدت مادة الارض هباء في الفضاء ، وهذا في رأيهِ من المضحكات . ومن أقوالهِ في هذا الصدد انهُ لو صحّ ان الارض تدور وألقيتَ بحجر من علٍ لما وصل الى هدفهِ لان الارض بحركتها تبعد الهدف

في أثناء السقوط . وظلّت آراء بطليوس سائدة حتى منتصف القرن السادس عشر عندما ردّها كوبرنيكوس بالحجة البيّنة . وليس هذا مجال للتبسط في هذه المعركة الحاسمة في تاريخ العلم

وقد كان مصير آراء كوبرنيكوس خيراً من مصير آراء ابرخس . ذلك لان الطباعة والمرقب كانا قد استنبطا . فما انقضى ثلثا قرن على نشر كتاب كوبرنيكوس حتى أثبت غاليليو بالمرقب اي بالمشاهدة صحة اقوال هذا الفلسفي البولندي العالم . وقبل ان ينظر غاليليو من خلال مرقبه الى الفضاء بعشر سنوات ، كان جوردانو برونو يقول بأن النجوم أجسام تشبه الارض والقمر والسيارات ، وهو قول فيثاغوراس قبل الفي سنة . وما انقضت عشر سنوات على مشاهدات غاليليو الاولى بمرقبه ، حتى كان كبلر قد أذاع رأيهُ بأن النجوم تشبه الشمس . وهذا القول كان أول باعث حمل الناس على ادراك سعة الكون العظيمة . لانهُ اذا كان اشراق النجوم شبيهاً باشراق الشمس فيجب ان تكون على أبعاد عظيمة عنا لكي تبدو صغيرة كما تبدو . فنحن نتلقى ضوءاً من الشمس يفوق مائة الف مليون ضعف ما نتلقاهُ من نجم من القدر الاول كالنسر الطائر أو يد الجوزاء او الدبران . فاذا كانت هذه النجوم من مرتبة الشمس اشراقاً فيجب ان يفوق بُعدها عنا ٣٢٠ الف ضعف بُعد الشمس عنا . فاذا حولنا هذا القول الى أسلوب الكلام العلمي الحديث ، قلنا ان نجوم القدر الاول يجب ان تبعد عنا على هذا القياس خمس سنوات ضوئية

ونحن نعلم الآن ان هذا الاسلوب من البحث لا يفضي الى نتائج دقيقة لان القول بان النجوم تماثل الشمس اشراقاً بعيد عن الحقيقة اذ منها ما يفوق الشمس عشرة آلاف ضعف ومنها مالا يبلغ اشراقهُ جزءاً من الف جزء من اشراقها . ولكن الاسلوب نفسهُ سليم اذا اتقن وقد أتقن في العصر الحديث وأضيفت اليهِ اضافات متعددة فغدا قياس ابعاد النجوم من أمتع ما يتناوله الفلكي في بحثهِ

أبعاد النجوم وقياسها

من الواضح ان في الامكان تقسيم النجوم طوائف . فهي تختلف اشراقاً اختلافاً عظيماً ، ولكن النجوم التابعة لطائفة معينة تتشابه اشراقاً ، ولذلك يستطيع الباحث الفلكي ان يفند الى بُعد النجم برصد اشراقهِ الظاهري بالقياس الى اشراق الطائفة التي يُنسب اليها . وتقسيم طوائف النجوم يبنى عادة على دراسة طيوفها

خذ مثلاً على ذلك نجم الشعرى اليمانية . الذي يبدو لنا أبهر النجوم ضوءاً في الفضاء . هذا النجم ، من النجوم القريبة الى الارض ويمكن تعيين بعده بطريقة اختلاف الزاوية ، وهي الطريقة التي يستعملها المهندس عند مسح الارض لتعيين بعد جبل وذلك برصده من مكانين مختلفين بينهما ميل مثلاً او نصف ميل او ميلان ثم يرسم مثلثاً يستخرج منهُ بطريقة علم المثلثات بُعد

الجبل . والشعرى بهذا القياس تبعد عنا ٥١ مليون مليون ميل أي ٨٫٦٥ سنة ضوئية . ثم يتخذ بعد الشعرى مقياساً لبعد النجوم التي من طائفتها . فنجم من طائفتها يقل اشراقهُ البادي عنها ١٠٠ ضعف أبعد منها عنا عشرة اضعاف ، لان قوة الضوء تقل كمربع المسافة

ثم هناك النجوم المعروفة بالمتغيرات القيفاوية والاعتماد عليها في معرفة ابعاد النجوم أدق وهذا الاسلوب من اهم المكتشفات الفلكية الحديثة . والى القارىء وصفهُ موجزاً (١)

من انواع النجوم التي ترصّع القبة الفلكية نوع يعرف باسم « المتغيرات القيفاوية » وقد دعيت هذه النجوم كذلك نسبة الى نجم « ذلتا قيفاوس » . هذه النجوم يتغير اشراقها تغيراً دورياً فاذ تكون خافية الضياء تراها وقد اخذت تزداد اشراقاً ثم تأخذ بعد ذلك بالخمود حتى ترجع الى حالها الاولى . وقد شبهها جينز بنار الموقد الخامدة وقد القي فيها قدر من الفحم فما لبثت حتى اشتدَّ سعيرها . وقد وصفناها في مقتطف دسمبر ١٩٣٥ فقلنا « هذه النجوم قد تكون حمراً او مياضّة او صُفراً ، ولكنها على اختلاف ألوانها تنبض نبضاً منتظماً كأن كلاً منها قلب كبير ينقبض وينبسط او كأنها شعلة من الغاز تمدها حنفية تفتح وتقفل في فترات منتظمة فاذا فتحت كبرت الشعلة واذا أقفلت ضؤلت الشعلة حتى تكاد تنطفىء » . اما فترة التغير هذه فتختلف باختلاف النجوم من بضعة أيام الى شهر او اكثر

والفضل في كشف هذه الطريقة الجديدة لقياس ابعاد النجوم يرجع الى اميركية تدعى الس لڤيت Leavitt . كانت هذه السيدة تشتغل في مرصد جامعة هارفرد سنة ١٩١٢ . وكان قد مضى عليها سنوات وهي تدرس الالواح المصورة لنواح مختلفة من السموات بغية ان تكشف ما تنطوي عليه هذه الالواح من حقائق جديدة عن النجوم مفردة ومجتمعة . واذ كانت مكبَّة على صورة لاحد القنوان النجمية التي على حدود المجرَّة ، تبيَّنت فيها شيئاً جديداً . ذلك ان طائفة من المتغيرات القيفاوية كانت قد ظهرت في تلك المجموعة النجمية . فلاح لها من دراسة الصورة ان المتغيرات القيفاوية الكبيرة المشرقة كانت أبطأ تغيُّراً من المتغيرات القيفاوية الصغيرة الخافية . فالفترة التي تنقضي بين خفاء القيفاويات الكبيرة وبلوغها ذروة اشراقها ثم رجوعها الى ما كانت عليه كانت اطول من فترة التغيُّر في القيفاويات الصغيرة . فأمرَّت ذلك الخاطر وعمدت الى ما تجمع من الصور الضوئية للنجوم الاخرى التي صورت منذ استعمل تلك الطريقة الفلكيُّ درايبر في سنة ١٨٨٠ وخرجت من بحثها الدقيق المستفيض بأن طول فترة التغيُّر متصلة صلة وثيقة بقوة الاشراق . فأعلنت هذه القاعدة الجديدة في علم الفلك

(١) راجع مقتطف ابريل ١٩٣٨ مقال « المجرات » صفحة ٣٥٥ ومقتطف دسمبر ١٩٣٥ مقال « ذرع الفضاء » صفحة ٤٢٥

ولكن الاشراق البادي لنجم من النجوم يختلف عن اشراقه الحقيقي . لان ما يبدو من اشراق أحد النجوم يتوقف على بعده . فقد يكون نجمٌ عظيم الاشراق ولكنهُ عظيم البعد في الوقت نفسه فيبدو للراصد الارضي نجماً غاراً . فاذا كان هناك نجمان قيفاويان على بعد واحد من الارض وكانت فترة التغير في احدهما اقصر من فترة التغير في الثاني . فالاول أقل اشراقاً من صاحبه . فما وضعت هذه القاعدة هذا الوضع ظهرت فائدتها في قياس ابعاد النجوم . ولنفرض ان أمامنا نجمين قيفاويين فترة تغيرهما واحدة . ثم لنفرض ان اشراق أحدهما البادي يفوق اشراق الآخر مائة ضعف . فالنتيجة الحتمية التي نخرج منها — اذا صحت قاعدة المس لثيت — ان أقلهما اشراقاً يجب ان يكون أبعد من الآخر عشرة اضعاف لان الضياء الصادر من جسم مضيء يقل كمربع المسافة . ثم لنفرض ان أحد هذين القيفاويين واقع في مجموعة من النجوم عرف بُعدها عن الارض . ففي هذه الحالة يمكن استخراج بعد الآخر استخراجاً دقيقاً

وكذلك تمَّ للعلماء أسلوب جديد بارع لذرع الفضاء.

ثم عني شابلي وهبل بتطبيق قاعدة المس لثيت على السُدُم . فاهمَّ شابلي اولاً بالبحث عن المتغيِّرات القيفاوية في القبوان الكروية ، ليتمكن من قياس بعد هذه القبوان بقياس بعد المتغيرات القيفاوية التي فيها . وبعد بحث رياضي دقيق استخرج طريقة سهلة تمكن الباحث من معرفة ابعاد هذه النجوم الحقيقية بدلاً من معرفة ابعادها النسبية واعتمد على هذه الطريقة في قياس بعد قبو هرقل فوجده ٣٦ الف سنة ضوئية . ثم اعتمد عليها في قياس ابعاد مائة من هذه القبوان فوجد ان بعدها وهو الموسوم NGC 7006 يبعد ٢٢٠ الف سنة ضوئية من الارض

اما هبل فصرف عنايتهُ الى قياس السدم بهذه الطريقة فوجَّه نظره اولاً الى السديم المرقوم Messier 31 وهو سديم حلزوني في صورة المرأة المسلسلة ثم الى السديم Messier 33 في صورة المثلث فوجد ان في الاول متغيرات قيفاوية تبلغ العشرة او أكثر قليلاً وان فترة التغير في اشراقها تتراوح بين فترة التغير في بعض القيفاويات التي في المجرَّة . فاستند الى قاعدة المس لثيت كما افرغها شابلي فتبيَّن ان هذا السديم يبعد عنا ٩٠٠ الف سنة ضوئية . واذن فهو خارج المجرَّة حتماً . ثم التفت الى الثاني وبطريقة قسمها أثبت انهُ يبعد عنا مليون سنة ضوئية

وقد ظهر من بحوث هبل واعوانه ان اخفق السدم التي تبينها عين المرقب وتسجلها لوحة التصوير الضوئي الحساسة يبعد ٢٤٠ مليون سنة ضوئية

فلنحاول الآن ان نرسم صورة للكون المنظور كما يرى لو كنا مشرفين عليه من بعيد . ولنجعل هذه الصورة كرة قطرها عشرون قدماً ، وكل بوصة فيها تمثل المسافة التي يجتازها الضوء في مليوني سنة ضوئية . واذن فمجرَّتنا (قطرها نحو ١٠٠ الف سنة ضوئية) تمثل داخل

هذه الكرة برأس دبوس قطره عُشر بوصة . اما النجوم التي ترى بالعين المجرَّدة فتشغل داخل هذا الرأس كرة نصف قطرها $\frac{1}{10}$ بوصة . اما شمسنا فلا تزيد على حجم كهيرب — على هذا القياس — واما الارض فلا تزيد على جزء من مليون جزء من الكهيرب . وليس ثمة ما يحملنا على الظن بان كرة نصف قطرها ٢٤٠ مليون سنة ضوئية تشتمل على الكون كله . وانما هي ذلك الجزء من الكون الذي نستطيع ان نراه مباشرة او بالواسطة . ولا ريب في ان المرقب الكبير المنتظر البالغ قطر مرآته ٢٠٠ بوصة سيكشف لنا آفاقاً كونية جديدة وراء هذه الآفاق القصية

واذن فلا نستطيع ان نعتمد على الرصد وحده في تقدير حجم الكون، بل يجب الاستناد الى أساليب أخرى . وهذه الاساليب قائمة على قاعدة من النظرية الفيزية . ولكن الارصاد الفلكية ليست بكافية لبناء حكم صحيح عليها ، ولذلك يقول السر جيمز جينز ان كل ما نستطيع ان نقوله ونحن واثقون بما نقول ان أبعاد الكون أعظم جدًّا من مسافة ٢٤٠ مليون سنة ضوئية وهو بعد أبعد السدم التي تنبَّأنا بأجهزة الرصد الحديث . أما مدى هذه الابعاد وهل هي ألفا مليون سنة ضوئية كما يقول بعضهم او عشرة آلاف سنة ضوئية كما يقول البعض الآخر او أكثر او أقل فلا يملك علماء العصر سنداً علميًّا كافياً للحكم فيه

عمر النجوم

تلفت الآن الى موضوع عمر الكون ، وهو موضوع يختلف في أركانه عن موضوع حجمه وسعته . وهناك طرائق مختلفة لتقدير هذا العمر ولكن ليس بينها طريقة يصح الاعتماد عليها كل الاعتماد . وهي تفضي الى نتائج متضاربة . والمسألة تدور في أبسط اشكالها على قدرتنا على ان نتفذ بأساليبنا العلمية الى ما كان عليه الكون في الماضي السحيق . وليس بالعجيب ان تفل دقتنا كلما تغلغلنا في الماضي

ان مرقب مرصد جبل ولسن الكبير يمكننا من تبين سدم تبعد عنا ٢٤٠ مليون سنة ضوئية. فعندما يوجَّه المرقب الى هذه الاجرام الكونية ، نشاهد إما مباشرة وإما بالواسطة ، ما كانت عليه قبل ٢٤٠ مليون سنة لان هذا الضوء الذي نراها به غادرها عندئذٍ مجتازاً رحاب الفضاء . واذن فهذه الاجرام كانت موجودة قبل ٢٤٠ مليون سنة ولذلك يصحُّ لنا ان نقول ان عمر الكون يزيد على ٢٤٠ مليون سنة . ثم ان هذه الاجرام القصية لا تختلف في أركانها وأوصافها الاساسية عن أجزاء أخرى من الكون أقرب الينا منها . واذن يصح ان نستنتج من هذا ان الكون لم يصبهُ تغير عظيم في أثناء ٢٤٠ مليون سنة . اي ان هذه المدة ليست الا فترة قصيرة في حياة الكون ونشوئه . واذن فعمر الكون يجب ان يكون أضعاف ٢٤٠ مليون سنة

ودراسة الارض من ناحية عمرها تؤيد هذا الرأي . ففي وسع العلماء ان يسترشدوا بقواعد

علم الجولوجيا ليتصوروا ما كانت عليه الارض من ٢٤٠ مليون سنة، فيجدوا انها لم تكن تختلف كثيراً عمّا هي عليه اليوم . وهذا لا يبين فقط ان عمر الارض يزيد على ٢٤٠ مليون سنة بل يبين كذلك ان الشمس لم تتغير كثيراً خلال تلك المدة . ولذلك لا بدّ ان يكون عمر الشمس وكذلك عمر الكون الذي هي احد ثمسوسه ، اضعاف ٢٤٠ مليون سنة . وإذا حللت الصخور المحتوية على مواد مشعة عرف العلماء المدة التي انقضت منذ تجمدت تلك الصخور . وقد تبينوا بهذه الطريقة ان أقدم الصخور التي درست على هذه الطريقة يرتدّ تاريخ تجمدها الى ١٧٥٠ مليون سنة . ولذلك يصحّ ان نقول ان عمر الكون على الاقل ١٧٥٠ مليون سنة

وهناك وسيلة أخرى نستطيع ان نتوسل بها لتقدير عمر الكون . وهي القائمة على فكرة تمدُّد الكون . فالسدم التي خارج المجرّة تبدو — اذا أخذنا بجيود الخط الاحمر — وكأنها تتفرق متعدة عنا وبعضها عن بعض . وقد قاس هيوماسون وهبل سرعة تفرقها وابتعادها فاذا أسرع ما قيس منها سائر بسرعة ٤٢ الف كيلو متر في الثانية . وهي سبع سرعة الضوء . والقاعدة المسلَّم بها بوجهٍ عام الآن ان أبعد السدم أسرعها . وان السرعة تختلف باختلاف البعد ، فاذا صحّ ان الكون — اي الفضاء — آخذ في التمدُّد وان السدم وهي أجزاء منهُ لا بدّ ان تبتعد بعضها عن بعض ، فالابعاد الكونية المعلومة لدينا الآن ، تتضاعف بعد اثني مليون سنة اذا استمرّت الاجرام مضية في سيرها بالسرعة التي تسد اليها الآن

الا ان نظرية النسبية تذهب الى ان الكون لا يمكن ان يمضي في تمدده بمعدل واحد من السرعة ، بل في الوسع القول بناء على بعض قواعد النسبية ، ان السرعة تزداد بنسبة هندسية ولذلك يقال ان ابعاد الكون تتضاعف بعد ١٤٠٠ مليون سنة على هذا الاساس . وهذا يعني ان ابعاد الكون كانت من ١٤٠٠ مليون سنة نصف ما هي عليه الآن وانها كانت قبل ٢٨٠٠ مليون سنة ربع ما هي عليه الآن . الا انهُ لا نستطيع ان نرتدّ في الزمن على هذا المنوال الى ما لا نهاية له حتى يصبح الكون نقطة مستقرة قبل ان بدأت تتمدد . ويقول جينز ان عمليات رياضية معقدة تحمله على الاعتقاد بأن التمدد الكوني لم يبدأ قبل ١٠٠ الف مليون سنة على الغالب . ولكن الرقم المذكور ليس الا رقماً تقريبياً ولا يعتمد عليه . وليس فيه دليل حاسم على عمر الكون . وذلك لان عمليات رياضية اخرى تشير الى انهُ من المحتمل ان تكون فترة من التقلص الكوني قد سبقت فترة التمدد التي نشهدها الآن

ثم هناك فكرة جديدة قد يكون لها من الاثر في دراسة عمر الكون كأثر « التغيرات التقهقرية » في دراسة ابعاده . وهذه الفكرة تقوم على مبدإ « توزع الطاقة المتعادل » بين الذرات في الغاز او بين النجوم في السماء . وهذا موضوع في حاجة الى مقال قائم بنفسه ليبسطه.

ولكن لابدَّ من اجتيازه هنا . فالاتجاهُ في ذرات غاز ما الى ان تخسر الذرات التي فيها طاقة تفرق طاقة غيرها وان تكسب هذا ما فقدته تلك حتى يصل الغاز الى حالة من توزع الطاقة المتعادل فيصبح من هذه الناحية في حالة استقرار . والغالب ان يتم هذا التوزع عن طريق الاصطدام بين الذرات

ولكن المسافات الشاسعة بين كواكب السماء تحول دون حدوث اصطدامات كافية لتحقيق هذا التوزع ولذلك فهو يستند الى التفاعل التجاذبي بين النجوم . والمشاهد من رصد النجوم انها على اختلاف كتلها وسرعتها ، تكاد تكون بلغت حالة من التكافؤ في توزّع الطاقة بينها ، واذن فحساب عمر النجوم قائم على طول المدَّة التي لابدَّ منها لقوى التفاعل التجاذبي ، لكي تحوِّل النجوم من تباين عظيم بينها في مقادير طاقتها الى حالة قريبة من التوزع المتكافئ او المتعادل . والنتيجة التي يخرج بها العلماء من هذا البحث أن عمر الكون من رتبة خمسة ملايين مليون الى عشرة ملايين مليون سنة

فما كانت حالة الكون من خمسة ملايين مليون سنة ؟ ان المشاهدة والرصد في عهدنا يدلان على ان الشمس تشع من الطاقة ما متوسطه ٢٥٠ مليون طن في الدقيقة . فقد كانت تزن الشمس في الساعة السابعة صباحاً — وهي ساعة كتابة هذه السطور — ٣٦٠ الف مليون طن أكثر مما تزن الآن . فمن مليون مليون سنة كان وزنها يفوق وزنها الآن كثيراً ومعرفة الفرق ممكنة بالحساب وهو يدل على ان ما فقدته من وزنها خلال ذلك ليس الا ٦ في المائة من كتلتها . ولذلك كانت أعظم اشراقاً مما هي الآن وكانت تشع كل دقيقة ٣٠٠ مليون طن في الدقيقة بدلاً من ٢٥٠ مليوناً . فبعد تصحيح الحساب تبين ان الشمس حينئذٍ كانت تفوق ما هي عليه الآن كتلةً واشراقاً . وقد كان من المتعذّر من هنوات ان نصدّق ان الشمس تستطيع ان تولد طاقتها بملاشاة مادتها . ولكن علماء الطبيعة كشفوا خلال هذه السنوات الكهوف المذهبة (البوزيترون) في المعمل . وهذا حمل الباحثين على الاعتقاد بان تحوُّل المادة الى اشعاع عمل قائم في لفافة الارضية علاوة على تحوُّل طاقة الاشعاع الى مادة . وما زلنا قد توصلنا الى معرفة مصدر للطاقة كهذا المصدر فليس ثمة اعتراض على عدّ عمر النجوم بملايين الملايين من السنين

لم يكن تصور رحابة الكون وسعته العظيمة بالامر السهل . واشقُّ من ذلك على العقل تصور سعة الزمن الفلكي وامتداده العظيم . فالكتاب اذا احتوى على مائتي الف كلمة مثلاً كان كتاباً متوسط الحجم . ولنقل أنَّ كل كلمة متوسطها خمسة احرف . ثم لنأخذ هذا الكتاب وسيلة لتمثيل عمر الارض . ان الحضارة البشرية تمثل فيه بكلمتيه الاخيرتين . والعهد المسيحي بحرفيه الاخيرين . اقل قليلاً . وحياة المتوسط من الناس تمثلها النقطة الاخيرة . هذا هو عمر الارض بالنسبة الى عمرها . وعمر الكون اذا مثل بالتمثيل نفسهُ اقتضى مجلدات متعددة . واذا صحَّ الرأي الاخير في عمر الكون وجب ان تملأ هذه المجلدات رفوف مكتبة تتسع لالوف منها

العشاق الثلاثة

لعلي محمود طه

« الى ادعياء الحكمة والمعرفة
« الى المتطلعين للسماء في انتظار المعجزة
« الى القابضين على الريح

سرى القمرُ الوضّاح بين الكواكب ... يُفكّرُ فيما تحته من غياهب
فناداهُ من وادي الخليّينَ هاتفٌ ... بصوت محبٍّ في الحياة مقارب
يقول له : يا روعة الحسن والصّبا ... وأجملَ أحلام الليالي الكواعب
أنا العاشقُ الواقي إذا جنّني الدُّجَى ... وراعيكَ بين النيّرات الثواقب
ألا ليتني حُرٌّ كضوئك أرتقي ... عوالمكَ الملأى بشتّى العجائب
ويا ليتَ لي كنزَ ابتساماتكَ التي ... تُبعثرها في الكون من غير حاسب !

***

فأصغى إليه الضوء في صفو جذلانَ ... وأضفى على الوادي شعاعَ حنان
وجاسَ خلال السُّحْب والماء والثرى ... فلم يرَ في أعطافها وجهَ إنسان
فنادى به : يا صاحبي ضلَّ ناظري ... فأين تُرى ألقاكَ أم كيف تلقاني
فأوما له إني هنا تحت شرفتي ... وراءَ زجاجيها أخذتُ مكاني
أبى البردُ أنْ استقبلَ الليلَ قائماً ... وأن أنزلَ الوادي بحيث تراني
وحسبُ الهوى من عاشقٍ لك وامقٍ ... تَزوّدُ عيني من سنا ضوئك الحاني !

***

فألقى عليه الضوء نظرةَ حائر ... وأعرضَ عنه بابتسامةِ ساخر

وقال له : يا صاحبي قد جلتني ... ويا ربّ شعرٍ ساقهُ غيرُ شاعر
انا الموثقُ المكدود طالت طريقه ... طسريقُ اسيرٍ في رعاية آسر
تجاذبني طاحونةُ الشمس كلما ... وقفتُ . وتمضي بي سياطُ المقادر
وما بستي إلاّ دموعٌ من الظبى ... فدالتمعتْ في وجهِ سهمانَ ساهر
فدعْ عنك يا أعجوبة الحبِّ عالمي ... فقلبيَ لم يَدرِ الاعاجيبَ غيري !

***

وأمعنَ في تفكيرهِ القمرُ الزاهي ... فمرّ بأرضٍ ذات عشبٍ ومأواه
بناجيه منها عاشقٌ ذو ضراعةٍ ... مناجاةَ صوفيٍّ لعبقريٍّ إلهه
يقول له : يا مُشهدي كلَّ ليلةٍ ... جمالَ محيًّا رائعِ الحسنِ تيّاهِ
شبيهٌ بهذا الضوء نورُ جبينهِ ... على أنّهُ في الناس من غير أشباهِ
وترسمُ لي الاشباحُ طيفَ خياله ... فأدنو لضمٍّ او لثمِ شفاهِ
تمنّيتُ لو وسّدتُ خدّكَ راحتي ... وصدرُكَ خفّاقٌ وجفنُكَ ساهي

***

فرفّ على الوادي الشعاعُ طروبا ... وناداهُ من بين الظلالِ مُجيبا
أزِحْ هذه الاغصانَ عنك لعلني ... أصافحُ وجهاً من هواكَ حبيبا
فجاوبه : يا قُرّةَ العين إنني ... قد اخترتُ من شطِّ الغديرِ كثيبا
اذا أنعتْ عيني السماء تطلّعاً ... وخلتُ لحظاً للنجوم سُريبا
فني صفحاتِ الماء نهزةُ عاشقٍ ... براكَ على بُعْدِ المزار قريبا
خلوتُ بدرٍ أرعاك أوفى قسامةً ... وأوفرَ من سحرِ الجمالِ نصيبا !

***

فغاض ابتسامُ الضوء من فرط حيرةٍ ... وصاح نجيّي أنت حقّرتَ سيرتي

هو الكونُ مرآتي ومجلى مفاتني ... وما لغديرٍ ان يمثّلَ صورتي
وما نَظرَ العشّاقُ إلاّ بأعينٍ ... تُعَظّمُ في المعشوق كلَّ صغيرة
أعيذُ الذي شبّهتني بجماله ... أديمَ مُحيّا مثلَ صمّاء صخرتي
أنا الفحمةُ البيضاء ان جنّني الدُّجى ... انا الحسّنةُ السوداء رأد الظهيرة
فَدَعْ عالمَ الافلاك واقنع بلجّةٍ ... وغازلْ من الاسماك كلَّ غريرة!

***

وبينا يهيمُ الضوء في سبحاته ... وقد غطّ هذا الكونُ في سخرياته
رأى شبحاً في قرب نارٍ كأنّما ... يودّع طيفاً غابَ عن نظراته
عدتْ ذراعيه ، ويُرسلُ صوته ... بلوعةِ قلبٍ ذابَ في فيراته
الى القمر الساري مُحيّاه شاخصٌ ... كصاحبِ نُسْكٍ غارق في صلاته
فقام عليه الضوء واستهلَ الخُطى ... وأجرى صناه الطلْقَ في قسماته
وصاح به : يا شيخُ ما أنت قائلٌ ... تكلّمْ : فانّ الليل في أخرياته

***

فقال له : يا باعث الحبِّ والمنى ... سلمتَ وحيّتك العوالمُ والدُّنى
شفيتَ جوى شيخٍ أحبك يلفماً ... وعاش بهذا الحبِّ جذلان مؤمنا
وأفنيتُ عمري أرتقي عاليَ الذرى ... إلى انْ بلغتُ اليوم مثواي ههنا
وأوقدتُ ناري كي تَراني وأنثني ... لأطلق ألحاني وأدعوك موهنا
وقيلَ ضنينٌ لا يجودُ بوصله ... فهأنذا ألقاك يا ضوء محسنا
تساوتْ كلابٌ تنبح البدرَ سارياً ... ونوّامُ ليلٍ أنكروا آية السنا!

***

فحدَّقَ فيه الشوء وارتدَّ مغضبا
وقال له أفنيتَ في سخطك الصبا
ولمَّ تُرحْ جثماً من السهد متعبا
وسخريةٌ بالنار أن تتقربا
كأنَّ شعاعي في جفونك قد خبا
ومن عبث مثواك في هذه الرُّبى
على حين لم تبلغْ من النور مرقبا
وما كنتَ إلاَّ الوامق المسترقبا
وقالَ عشاقٍ بهم ضقتُ مذهبا
وكانوا لأمثال الخليِّين مضربا
فوآسفا، ما كنتُ في الدهر مذنبا
فأجزى بنجوى من تعشَّق أو صبا
وساقَ على حي الدليل المكذَّبا
سَلِ الحاصيَ الهاوي من نظلد هل نبا
به الليلُ لمَّا آثر الأرضَ واجتبى ؟
أبصر قبلي في الدجنَّة كوكبا
أضاء له الدّربَ السحيق المشعَّبا
وهل في سنا غيري تملَّى وشبَّبا
بحمراء واهتاج اليراعَ لمثقبا
حويتهما روحاً طريداً معذَّبا
فذابَ حياتي منهما وتصبَّبا

وأورثني هـذا الشحوبَ وأعقبا
رأيت فما يبدو ووجهاً تخضبا
وجسمين ذابا شهوةً وتلهبا
وصدراً خفوقاً فوق صدرٍ توثبا
غرائزُ فيها الغيُّ والنقصُ رُكِّبا
تَلمَّسُ في ضوئي الأنامَ المُحبِبا
فيا شيخ دَعْ هذا الوشاحَ المذهّبا
تراكمَ المتونَ في الكأس ذُوّبا
طفا الراح فيه والتراب ترسّبا
وإنّ كلابَ الأرض أشرف مأربا
يُثيرُ لها ضوئي الظلامَ لتجنبا
خُطى اللصّ يستار الطريقَ المحجّبا
فإن نحت ضوئي تسمّتُ معجبا
بأرخم لحنٍ رنّ في الليل مطربا
تحيّةَ مُثنٍ بي أهلٌ مرحّبا
بني آدم إن لم يكن آدم الأبا
رجعتُ لكم من عالم الرجس مهربا
وآثرتكم بالكلبِ جَدًّا مهذّبا
وأجملَ بالانسان ان يتكلبا

***

ومالَ عن الارضِ الشعاعُ وغرّبا ووسوسَ في صدرِ الدُّجى فتأبا

الكلف

والاشعة الكونية

الكلف التي تبدو على وجه الشمس والاشعة الكونية والعواصف المغنطيسية ظاهرات طبيعية متباينة ، ولكنها تتباين كأن بينها اتفاقاً على الاتساق في تباينها . وقد كانت هذه الحقيقة لغزاً يحير العقل حتى عهد قريب الا ان العلماء شرعوا ينفذون الى حقيقته

ففي ٢٥ يناير سنة ١٩٣٨ حدثت اعظم العواصف المغنطيسية التي رصدها العلماء في السنين الاخيرة فتأثر بها الراديو حتى كأن قوة خفية جمَّدت امواجهُ في الفضاء ، واضطربت بوصلات السفن ، وعجزت اسلاك البرق عن نقل رسائلهِ لتولد تيارات متأثرة قوية فيها ، واشتد ظهور الانوار القطبية . وفي الوقت نفسهِ اذاعت المراصد وجود كلفة على وجه الشمس تفوق في حجمها الكلف المألوفة . وكانت هذه الكلفة — بحسب الرأي الحديث — إعصاراً من الغاز المتوهج يتسع لعشر كرات كلٍّ منها بحجم الارض . اما الاشعة الكونية التي قلَّما يبدو تغيُّر ما في قوتها ، فبدا للباحثين انها اضعف في تلك الفترة من مثيلها هذه السنة مما هي عادة . وكان الباحثون قد أثبتوا ان لاصلة بين الشمس وهذه الاشعة فاذا حدث حتى اثر فيها الاضطراب المجتاح قرص الشمس ؟

ان الكلف الشمسية في رأي الفلكيين اعاصير تنتاب سطح الشمس ، ويكون اتجاه المادة فيها الى الخارج . والغازات المتجهة من قلب الشمس الى خارجها تتمدد فتبرد . وقد يكون الغاز في هذه الفوهة المفتوحة في الشمس أبرد من الغازات التي تحيط بها نحو الف درجة . ولكن ذلك لا يمنع ان يكون غاز الكلفة شديد الحرارة وان تكون حرارتهُ كافية لفصل بروتونات الذرَّات عن كهيرباتها فتنطلق البروتونات والكهيربات في الفضاء بقوة عظيمة

وقد يعلو كلف الشمس ألسنة تندلع من سطحها الى الفضاء المحيط بها ، ويبلغ اقصى ارتفاعها عن سطح الشمس ٢٩٠ الف ميل اي مقدار بعد القمر عن الارض تقريباً . وهذه الالسنة الغازية المندلعة من الشمس تلطف مادتها رويداً رويداً كلما بعدت عن مصدرها حتى تصبح هباء خفيفاً لا يرى . الا ان الذرات واجزاء الذرات المنطلقة من اعاصير الشمس تبقى سائرة في الفضاء بين النجوم

وقد تبقى الكلفة ثلاثة اسابيع او أربعة بغير ان تندلع منها هذه الالسنة النارية وقد تندلع الالسنة ولكنها لا تكون متجهة صوب الارض اذ لا يخفى ان الارض لا تزيد على نقطة صغيرة

في الفضاء اذا رصدت من الشمس . وعلى الرغم من صغر الارض بالقياس الى الشمس وبعدها عنها ، يصيبها أحياناً رذاذ من هذه التيارات المنطلقة في الفضاء

ان الدقائق المشحونة في هذه التيارات — وهي كهيربات على الغالب — تخضع لنواميس الكهربائية والمغنطيسية من حيث الجذب والدفع . ولذلك تراها تتجمع متجهة الى قطبي الارض المغنطيسيين عند اقترابها من الارض. وقد أثبت ملكن من عهد قريب ان تأثير الارض المغنطيسي — او حقل الارض المغنطيسي كما يقال باللغة الانكليزية — يمتد الى ما وراء غلافها الغازي اي جوّها ، وعلى بعد ألوف من الاميال عن سطح الارض يؤثر هذا الحقل المغنطيسي في الكهربات المنطلقة في الفضاء صوب الارض ، فيحرفها الى القطبين المغنطيسيين ، ولا يمنع الانحراف الا عن الاشعة الشديدة النفوذ ، ولكن معظم الاشعة الكونية ينحرف كذلك

وعند ما تصح تيارات الكهربائية المنطلقة من الشمس على بضع مئات من الاميال من سطح الارض تبدأ تصطدم في سيرها بدقائق الهواء فينتقل الى هذه الدقائق جانب من طاقة الكهربات فتصح هذه الدقائق في حالة « تهيج » فتتحول طاقة الاصطدام فيها الى « تألق » . وهذا التألق حين ما يطلق عليه اسم الشفق القطبي او الانوار القطبية . وفي الوسع الرجوع بشكل هذه الاضواء ولونها الى الكهربات الواصلة الى جوّ الارض من الفضاء وتباين طاقاتها

وقد تمكن العالم النرويجي ستورمر من تصوير ألوف من هذه الاضواء ثم بيّن كيف يرجع كل شكل من أشكالها الى طائفة من دقائق ذات طاقة معينة منحرفة في حقل الارض المغنطيسي

ولا يخفى ان من القواعد الطبيعية المسلّم بها ان الفعل وردّ الفعل متساويان . فاذا انحرفت طائفة كبيرة من الدقائق المكهربة بتأثير حقل الارض المغنطيسي واتجهت في انحرافها صوب القطب فأحدثت الاضواء القطبية الباهرة ، فالطاقة التي أنفقت في حرفها أخذت من حقل الارض المغناطيسي فأصاب هذا الحقل شيء من التغيير ولما كانت هذه الدقائق المكهربة ليست قادمة من جميع الجهات على السواء ، فالتغيير لا يصيب حقل الارض المغنطيسي في جميع جهاته على السواء . فيتجه الحقل المغنطيسي من تلقاء نفسه الى المساواة ، وهذا الاتجاه يدوّن اضطراباً في بوصلة الملاح

ولا يخفى ان علماء الطبيعة أثبتوا من عهد فراداي ان سلكاً متحركاً في حقل مغنطيسي مستقر ، يولّد فيه تيار كهربائي . وان سلكاً مستقراً في حقل مغنطيسي متحرك يولّد فيه تيار كهربائي كذلك . وكذلك يولّد التغيّر في حقل الارض المغنطيسي — سعياً وراء العودة الى الاتساق — تيارات كهربائية في أسلاك الشركات البرقية . فاذا بلغت هذه التيارات المؤثرة درجة معينة اضطرب نظام ارسال الاشارات البرقية أيما اضطراب . ويطلق على الاضطرابات التي تقع في حقل الارض المغنطيسي اسم « عواصف مغنطيسية » والعواصف الكبيرة التي من هذا القبيل

نادرة . ولكنها سواء أصغيرة كانت أم كبيرة تدل على وصول تيارات من الدقائق المكهربة من الشمس الى الارض

وقد نسأل ما مصير هذه الدقائق ؟ عندما تصطدم هذه الدقائق بدقائق الهواء يمتصها الهواء فتؤثر فيه فوق الطبقة المعروفة بطبقة كنلي هيڤيسيد . وهذه الطبقة أشبه ما يكون بمدار كهربائي يحيط بالارض على ارتفاع ستين وقوامها ذرّات اصابتها الاشعة التي فوق البنفسجي فأيّنتها . ولذلك يصيب هذه الطبقة تغير يوميّ بين الليل والنهار . ففي اثناء الليل تعود شظايا الذرّات المؤينة الى التجمع فتبنى منها ذرّات كاملة ثانية . فاذا اتصل بجوّ الارض تيار من الدقائق المكهربة تعاونت مع الاشعة التي فوق البنفسجي في فعل التأيين فيزداد عدد الذرات المؤينة في تلك الطبقة ، ومن خصائص الغازات المؤينة انها تعكس الامواج الكهرطيسية اي أمواج الراديو كما لايخفى . ومن الطبيعي ان يصيب فعل الانعكاس تغيرٌ ،اذا أصاب الطبقة الساكنة تغير في بنائها

فلما حدثت « العاصفة المغنطيسية » أخيراً لم يدهش مهندسو الراديو ان يجدوا تلاشياً في أشعة الراديو القصيرة التي تجتاز المحيط الاطلنطي فاضطروا ان يغيروا طول الامواج التي يذيعون بها لكي يتمكنوا من الاحتفاظ بالاتصال اللاسلكي . وذلك لانه عندما تأثر طبقة كنلي هيڤيسيد باشعاع الكلف الشمسية تصبح وهي أحسن عكساً لامواج لاسلكية معيّنة دون غيرها

والاشعة الكونية تصل الى الارض من رحاب الفضاء . ولو أنها كانت تصدر من الشمس لكانت اقوى في النهار منها في الليل . ولكن ذلك لا يقع . فالتغير في الاشعة الكونية بين الليل والنهار لا يزيد على خمس واحد في المائة لان التغير في ضوء الشمس يهبط الى صفر تقريباً على جانب الارض المظلم . واذا كان هذا كذلك فلماذا تضعف الاشعة الكونية في اثناء العواصف المغنطيسية ؟ ان الجواب عن ذلك منطوٍ في طبيعة هذه الاشعة نفسها

ان جانباً من الاشعة الكونية على الاقل دقائق مكهربة . تأتينا من مصادر مجهولة في رحاب الفضاء وطاقتها تتباين من ملايين الى عشرات البلايين من الفولطات . فدقائق هذه طاقتها قلما يؤثر حقل الارض المغناطيسي في حرفها . ولكنها تنحرف قليلاً فتبدو وهي قرب القطبين أشد مما هي عند خط الاستواء بمقدار عشرة في المائة . فاذا تغير الحقل المغنطيسي الذي يحرفها تغيرت شدتها . واذن فالاشعة الكونية التي لا تتأثر بالشمس عادة تتأثر بما تطلقهُ الكلف الشمسية من دقائق مكهربة تؤثر في حقل الارض المغنطيسي

الاّ ان التغير في الاشعة الكونية ليس كبيراً ولم يكن قياسه بالمستطاع الاّ في العهد الاخير وبعد اتقان أساليب القياس الدقيقة . وقد اعلنت هذه الاساليب اولاً في ٢٥ ابريل ١٩٣٧ ثم حدثت العاصفة المغنطيسية في يناير ١٩٣٨ فظهر الاثر في الاشعة الكونية كما كان متوقعاً

النهضة العربية

القومية وأثرها الادبي

انيس المقدسي
استاذ الادب العربي بجامعة بيروت الاميركية

﴿ توطئة ﴾ للعرب في تاريخهم القديم ثلاث نهضات بارزة . الاولى دينية مهدها الحجاز وقد بلغت اوجها بظهور الاسلام وانتشاره في قسم كبير من المعمور . والثانية قومية . وليس بالهيّن فصلها عن الاولى ، على انها تبرز بشكل خاص في العهد الأموي نفيه كان للعرب سلطنة عظيمة الشأن تمتد من حدود الهند الى الاندلس . وكان العرب فيها اهل الادارة والسلطان ، بسيوفهم تحفظ الدولة والى خزائنهم تجبى الاموال . واما النهضة الثالثة فعلمية لغوية ، وقد بدأت بالنمو منذ ظهور الاسلام وما زالت حتى بلغت عصرها الذهبي في بغداد وبعض الحواضر الاخرى. ويراد بها ما قامت به اللغة العربية يومئذ من نقل العلوم القديمة والتوسع فيها وما عُرف من ازدهار معارفها وآدابها

ومن المعلوم ان العرب فقدوا بعد الامويين مقامهم السياسي الممتاز في الشرق واخذوا بعد العصر العباسي الاول بالتراجع امام سائر العناصر . ولم يلبثوا في الشرق عقب انحلال الخلافتين العباسية والفاطمية ، ان دخلوا في حكم الدول الاعجمية وآخر هذه الدول السلطنة العثمانية التي يمتد حكمها عليهم من سنة ١٥١٦ م الى نهاية الحرب الكبرى ١٩١٨

ولا نرى بين القرن التاسع عشر ما يشير الى يقظة قومية للعرب ، فقد كانت قوميتهم في سبات عميق . واول من حاول ايقاظها لاغراض سياسية محمد علي الكبير (مؤسس البيت المالك المصري) او قل ابنه ابرهيم باشا ، وكان ينوي انشاء دولة عربية مركزها القاهرة[1] لكن مشروعه لم يتم. ولا يظهر ان البلدان العربية التي تؤرخ ادبها الحديث (مصر وسوريا والعراق) تأثرت يومئذ

(١) راجع ما ذكرناه في مستهل الفصل الاول (مقتطف فبراير الماضي) وكذلك تاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعي (طبع ١٩٣٠) ص ٢٣٣ و ٢٦١

تأثراً جديّاً بهذا المشروع او سعت لتحقيقه، على أن البذرة وضعت في الارض وترك للزمان إنباتها

بقي الحال كذلك الى الثلث الاخير من القرن التاسع عشر، وكانت مصر قد استقلت بشؤونها الداخلية عن الدولة العثمانية، والنهضة العلمية قد بدأت في سوريا ولبنان بتنشيط بعض اعلام الحكّام كرشد باشا ومدحت باشا [1] واضرابهما، فنهيأ من كل ذلك بواعث لحركة ادبية تعبّر عن احلام العرب وخواطرهم القومية. ومن هذا القبيل جملة من القصائد والخطب الوطنية التي كان لها اثر يذكر في تخمير الافكار واذكاء الروح القومية وسنذكر شيئاً منها بعد

ومن ظواهر تلك اليقظة القومية نشوء جمعيات غايتها المطالبة بحقوق العرب في السلطنة العثمانية والحضّ على إنهاضهم كالجمعية التي تأسست سنة ١٨٨١ باسم « جمعية حفظ حقوق الملّة العربية » وقد نشرت نداء الى العرب من مسلمين ومسيحيين تحت عنوان « يا ناعي الامة العربية » تدعوهم فيه الى الاتحاد والمطالبة بالحقوق القومية [2] ويبدأ هذا النداء بمخاطبة المسلمين فيلفت نظرهم الى ظلم تركيا ويختم ذلك بقوله —

« فأين انتم واين هم؟ من منكم اليوم امير ومن منكم اليوم وزير ومن فيكم اليوم مدير؟ بل كل واحد منكم فقير، وكبيركم مثل صغيركم حقير، والمال والآمال بأيدي الترك الخ » ثم يلتفت الى المسيحيين فيقول لهم —

« اتحدوا مع المسلمين واستعدوا لنوال حريتكم من المتحدين فان الترك يخشون بأسكم فلا يستعبدونكم ولا يتهكون حرمتكم خوفاً من الفتائل. فاتحدوا بقلب مع اخوانكم المسلمين فان مرجع مصالحكم الى واحد »

ويظهر ان بعض ذوي المصالح من الاتراك كانوا يظاهرون العرب، فقد ذكرت جريدة المشير ان جماعة من شبان العرب والأتراك اجتمعوا في باريس لتأسيس جمعية عربية وغاياتها [3]

١ — ان يدافعوا عن حقوق العرب جميعاً مهما تباينت مذاهبهم

٢ — حفظ الامة العربية تحت ظلّ الراية العثمانية في وضع قانون اساسي للخلافة

٣ — ان يساوى بين العرب والترك في كل شيء

٤ — اجراء الاصلاحات الواجبة بالطريقة الوافقة (اي بالفعل)

٥ — استقلال كل ولاية من الولايات العربية بمعاليها وتخصيص ولايتها بوالٍ عربي او معاون عربي. (وهو كالنظام اللامركزي الذي كان يسعى اليه الاصلاحيون قبيل الحرب الكبرى كما سنرى بعد)

ويلوح لنا ان هذه الجمعية هي نفس الجمعية التي يذكرها سيمبونكو في جريدة الجورنال

(١) رشد باشا كان والياً على سوريا سنة ١٨٦٣ — ٦٨ ومدحت بعده بقليل (٢) جريدة المشير ٢٩ مايو ١٨٩٢ المشير ١٩ ديسمبر ١٨٩٦

الفرنسية اذ يقول [١] « في العام ١٨٩٥ بدأت حمّى الاستقلام بالارتفاع عند ما تأسست في باريس عصبة الوطن العربي وكان لهذه العصبة قاعدتان جوهريتان هما التحرّر من الاجانب واتحاد البلدان العربية تحت سلطة موحّدة ورزمية »

ولعلّ عصبة الوطن العربي هي الجمعية الوطنية العربية التي يذكرها الاعظمي في كتابه « القضية العربية »[٢] رسواء صح ذلك ام لم يصح فالواقع ان العرب اخذوا منذ ايام السلطان عبد العزيز يتنبهون الى حقوقهم ويطالب احرارهم بها، وقد تركوا لنا من آثارهم الادبية في العهد السابق لدستور ١٩٠٨ ما لا يترك مجالاً للشك في ذلك

على ان هذا التنبه لم يبلغ بهم يومئذ مبلغ الرغبة الجدية في الانفصال عن تركيا وجل ما كانوا يطلبونهُ ان يناولوا حقوقهم في الدولة . وعلى ذلك يقول المقطم سنة ١٨٩٤ بعد ان يذكر النسبة العددية بين العرب والاتراك [٣] — « ان العرب مظلومون من حيث الادارة والمناصب وان جلالة السلطان لو علم الحقيقة لانصف العرب ونحن لا نشك بحسن نية السلطان ولكننا نشك في أن هذه الحقائق تصل اليه » . ويتضح من هذا القول تصريح خليل غانم ، مبعوث سوريا في المجلس النيابي الاول (ايام مدحت) وأحد مؤسسي جمعية تركيا الفتاة في باريس ، اذ قال [٤] — « ولا نطلب انفصال العرب عن الاتراك لان ذلك يؤول الى الخراب والاندثار . بل نطلب وتتمنى من صميم الفؤاد انضمام الملتين بل ادغامهما الواحدة بالاخرى بحيث تكونان امة واحدة ، ولكن على شرط المساواة في الحقوق والواجبات »

وهذه الروح المسالمة تتجلى في اقوال جمهرة النيابيين من ابناء العربية . على ان منهم من لم يقف هذا الموقف المسالم بل نراه يتطرف الى درجة التهجم على الدولة وتعمّا بشتى النعوت الذميمة . ويغلب ذلك في الصحافة الخارجة عن دائرة النفوذ التركي . او في بعض الاوساط الخاصة المشبعة بروح العداء للادارة الحميدية . واكثره من قبيل الانفعالات النفسية التي كانت تثور في نفوس الشبيبة وهي عادة عنيفة متطرفة . فلما تنظر في الامور من كل وجهاتها لتميز بين الغث والسمين وتعرف الصحيح من الفاسد . ولكنها على كل حال صادقة . وبرغم تطرفها ، وبرغم تسفلها ترسم لمؤرخ الادب صورة جلية ناحية من نواحي تلك البيئة السياسية

(البوادر القومية الاولى في الادب العربي) ظهر في اصيل القرن التاسع عشر نخبة من احرار الكتبة والشعراء ، وأكثرهم كما ذكرنا في فصل سابق ، من دعاة الاصلاح العام للدولة العثمانية . على ان الذي يهمنا هنا هو ذلك الادب القومي المتصل مباشرة بالحركة العربية او بالاسباب

---

(١) عن صوت الاحرار (بيروت) ٣٠ سبتمبر (ايلول) ١٩٣٧ (٢) طبع ١٩٣١ ص ٤٨ (٣) المقطم عدد ١٧٢٨ (٤) المشير ٢٥ يناير (ك ٢) ١٨٩٥ (راجع سيرته في تاريخ الصحافة لطرازي ج ٢)

التهذيبية لها . ويخرج لنا من رجاله ثلاثة نرى في نشأتهم أصدق مثال لتلك الحركة . وهم ابراهيم اليازجي . وعبد الرحمن الكواكبي . ونديب اسحق . فلننظر في كل منهم وفي الدور الذي قام به

(اليازجي ١٨٤٧—١٩٠٦) ولقد يعجب البعض لزجنا ابراهيم اليازجي في هذا المقام وهو المعروف بالتشبب اللغوي والبعد عن تيار السياسة . على ان الذي يطالع شعره في أبان شبابه يرى فيه عربيًّا شديد النزعة القومية . ودليلنا على ذلك بعض قصائده التي نظمها (وهو في نحو العشرين او بعدها بقليل) فأحدثت في نفوس الناس هزة لا يزال اثرها الى الآن . ومنها ثلاث قصائد أولاها قصيدة انشدها سنة ١٨٦٨ في الجمعية السورية ومطلعها [1] —

سلامٌ ايها العربُ الكرامُ وجاد ربوع قطركم الغمامُ
لقد ذكر الزمان لكم عهوداً مضتْ قدماً فلم يضع الذمام

ويتقدم الى وصف مجالس العلم وأربابها ثم يعود الى ذكر العرب فيقول مفاخراً : —

وما العُرب الكرام سوى فصال لها في أحفن العَلياء مقامُ
لعمرك نحن مصدر كل فضلٍ وعن آثارنا أخذ الانامُ
ونحن اولو المآثر من قديم وإن جحدت مآثرنا اللئامُ

ويأخذ من هنا بتعداد امجاد العرب الأول في العراق والشام والحجاز واليمن والاندلس ويختم ذلك بقوله —

ولسنا القائلين بكل هذا وليس لنا بمروته اعتصامُ
ولكنا سنجهد للعالي الى ان يستقيم لنا قوامُ

والقصيدة الثانية مائية وهي تلهب حماسة ومطلعها [2] —

تنبهوا واستفيقوا ايها العربُ فقد طمى السيل حتى غاصت الركبُ
قيمَ التخلف بالأمال تخدعكم وانتم بين راحات الفنا سَلَبُ
كم تظلمون وتسمو تفتخرون وكم تستغضبون فلا يبدو لكم غضب

ومنها فشمّروا وانهضوا للامر وابتدروا من دهركم فرصةً ضنّت بها الحقب
لأنتم حضرتي وكم نسيتم ذمامي ضيعتم ما تعلّمتم من الحقب

ثم يشير الى الاتراك فيقول : —

سلاحهم في وجوه القوم مكرهمُ وخير جندهم التدليس والكذبُ

(١) وجد الآداب العربية في القرن التاسع عشر للمؤلف ٢ — ٣٠ (٢) راجع نصها في المشير ٢٥ ابريل ١٨٩٦ وفي مجلة الاصلاح (نيويورك) ٤ — ٤ وفي القصيدة العربية للاعظمي ١ — ٤٣ . ولا يذكر المشير اسم ناظمها . وتجدها في سرحان ٧٣ في أحد مشائخ المسلمين . أما — المصادر ومنها زيدان في تراجم مشاهير الشرق ٢ — ١٩٠ فتتفق على ان صاحبها اليازجي

لا يستقيم لهم عهدٌ اذا عقدوا ولا يصحُّ لهم وعدٌ اذا ضربوا

وتأخذه الحماسة القومية فيصيح :

بالله يا قومنا هبُّوا لشأنكمُ فكم تناديكم الاسفار والخطبُ
ألستم من سطوا في الارض واقتحموا شرقاً وغرباً وعزوا أينما ذهبوا
فما لكم ويحكم أصبحتم همَلاً ووجه عزّكم بالهون منتقب
لا دولةٌ لكمُ بشتدُّ أزركمُ بها ولا ناصرٌ للخطب يُنتدب
أقداركم في عيون الترك نازلةٌ وحقُّكم بين أيدي الترك مغتصب

وكلُّها على هذا النمط من اثارة الحفائظ والعصبية الجنسيّة

أما الثالثة فهي النسبة المشهورة . قال سليم سركيس : « ان الذي تولى نشرها في دمشق جمعية نظمت ايام مدحت باشا . وقد كان لنشرها رنّة في البلاد فارسلت التلغرافات الى الاستانة وازداد عدد البوليس السرّي والفت الحكومة القبض على كثيرين »[1] . ولما كانت قد نشرت كاختها البائية غفلاً من التوقيع فقد اختلف في ناظمها على ان أكثر المصادر تعزوها الى البازجي وهي قصيدة طويلة قد تزيد على الستين بيتاً وحاك بعضها[2]

دعْ مجلس القيد الاوانسْ وهوى لواحظها النواعسْ
ومنها أي النعيم لمن يبيت على بساط الذلّ جالسْ
ولمن تراهُ بائساً أبداً لذيل الترك « بائس »
ولمن أزمّته بكفّ عداه يُظلمُ وهو آيسْ
ولمن تباع حقوقه ودماؤه بيع الخسائسْ
ولمن يرى أوطانه خرباً كاطلال دوارسْ

وهنا يقف الشاعر على طول البلاد ويعدد امجادها الغابرة ثم يقول : —

فالترك قومٌ لا يفوز لديهم الاّ المشاكسْ
أولستم العرب الكرام ومن هم الشمّ المعاطسْ
فسيوفكم نفاظم ناراً تروّع كل قابسْ

ويدعو العرب الى الاتحاد منددّاً بالشقاق والتعصب الديني ومشيراً في نفوس العامة ثم يقول :

ساد الفساد بهم فسادَ الترك فيه بلا مماكسْ
كم تأملون صلاحهم ولكم فساد الطبع مائسْ
ويغركم برق الغنى خبلاً وليل اليأس دامسْ

(١) سر مملكة ٦٧ (٢) راجع نصها في سر مملكة ٦٤

عمّت قبائحهم فأضحت لا تحيق بها الفهارسْ
حانٌ بها طاب التبسم للـــوغى والموتُ عابسْ
وحلا بها سفك الدماء فسفكها للجور حابسْ

ولم تكن هذه النفثات الشعرية سجع وحدها في تلك العهود بل ظهر مثلها كثير في البلاد العثمانية والمهاجر . وكلها تنم على تخمير قومي أحدثتهُ الاحوال الجديدة في نفوس الشبيبة لذلك العهد

(عبد الرحمن الكواكبي ١٨٤٩ — ١٩٠٢) كان هذا الاديب الحلبي اصلاحيًّا حرًّا . وقد اوصلتهُ نزعته الحرة إلى السجن . ثم الى هجرة تركيا والطواف في افريقيا وبلاد العرب والهند[1] . وله كتابان معروفان هما «طبائع الاستبداد» و «أم القرى» والاول دعوة جريئة الى الحرية والتخلص من قيود العادات الاجتماعية المضرة . اما الثاني ، وهو الذي يهمنا هنا ، فمن النواحي الفعالة في ايقاظ الشعور القومي بين العرب ، اذ هو يدعو الى خلافة عربية مركزها الجزيرة العربية[2] ويسرد لذلك اسبابًا كثيرة نذكر منها ما يلي[3] —

(١) عرب الجزيرة هم مؤسسو الجامعة الاسلامية لظهور الدين فيهم

(٢) عرب الجزيرة اقوى المسلمين عصبية وأشدهم أنفة لما فيهم من الخصائص البدوية

(٣) لغتهم اغنى لغات المسلمين في المعارف ومصونة بالقرآن الكريم من ان تموت وهي اللغة العمومية بين كافة المسلمين

(٤) والعرب أعرف الامم في أصول الشورى وفي الشؤون العمومية

وليس من شأننا في هذا المقام ان نشرّح نظرياته اثباتًا او تجريحًا وانما نحن نعرضها تدليلاً على ما كان يختلج في بعض النفوس يومئذٍ واشارة الى تلك الخواطر القومية التي تركت اثرها في الادب العربي

وقد اجمع الكواكبي والامة على وصفه بمكارم الاخلاق والتشغف بالحرية والاصلاح والجرأة على الجهر برأيهِ مفيداً البلاد . وذهب بعضهم الى نقد عقله ومرارة لهجته قال الطباخ[4] «وليس غليان دم الشباب في مؤاده وفتكه ، وتلك النفس المفطورة على الاباء المتعشقة منذ الطفولية لمحاسن الاصلاح المتطلعة اليه تطلّع الاسد الى فريسته هي التي أهابت به ان يطلق لجواد قلمه العنان في هذا الميدان ، وحال حبّه الشديد لاوطانه وشغفهُ العظيم بانتظام احوال بلاده بينهُ وبين التطلع الى ابعد ، والالتفات الى ما كان حوله فكبا براعه ، ونكل جواد كبوة وكان ما كان ، والامور مرهونة بأوقاتها»

وكيفما كان الامر فان الكواكبي كما قال المقتطف[5] «من كبار رجال النهضة الحديثة

(١) راجع سيرته في الجزء الاول من تراجم مشاهير الشرق لزيدان — وفي اعلام النبلاء للطباخ ج ٢ . وبحاثي المقتطف واشهرها (سنة ١٩٠٢) (٢) ام القرى ١٢٢ (٣) ام القرى ١٦٠ (٤) اعلام النبلاء (حلب ١٩٢٦) ٧ ص ٥٢٤ (٥) مج ٢٧ — ٦٢٤

في هذه الديار الاّ ان المحيط لم يساعده والاجل لم يمهله حتى يتم مقاصده السياسية والدينية . على ان النغمة التي ضرب عليها قد التقطت بعض انامل . ولو لم يهبط مصر لكان دفن مع من دفن في تلك البلاد (اي المثانية) ولم يُعرف عنه ولا فضله »

فالكواكبي ، كما يتبين لنا من اقواله واعماله ومن آراء اهل الثقافة فيه ، عامل قويّ من تلك العوامل التي حرّكت نفوس الناطقين بالعربية ووجّهت انظارهم الى اصلاح حياتهم القومية وتعزيز منزلتهم السياسية

(اديب اسحق ١٨٥٦ — ١٨٨٥) ولم يكن اديب من المناوئين للعثمانية ، وليس في ادبه ما يشمّ منهُ روح الثورة على نظامهم السياسي . على ان فيه تلك الجراثيم القومية الحديثة التي تغلب على ادب الاحرار لذلك العهد . واذا كان لا يهاجم الحكومة العثمانية كما يفعل الكواكبي فهو يجاريهم في الدعوة للقومية العربية والكرامة الوطنية . والذي يبرز في أدبه دأبه على تحريك الروح الشرقية وتعزيزها . فهو يناضل عنها في مصر وسوريا ، وهو في طليعة المناصرين للاحزاب الوطنية الرافعين لواء الحرية . ومن الطبيعي ان يكون في رسالته الشرقية ما يرغب مواطنيه في احترام انفسهم باحترام لغتهم وتاريخهم . ومن أمثلة ذلك قوله من خطاب مشهور بموضوعه دولة العرب[1]

« شعلة سرتْ من الحجاز فأنارت الشام والعراقين ومصر والمغرب والهند واتصلت بأطراف الفرنجة فملأتها نوراً وناراً . فهي بنورها تستضيء ومن نارها تقتبس » وبعد ان يذكر فتوح العرب يقول على طريقته الخطابية : —

« فسارت اسود رجالها على طيور خيولها تطوي الصحارى وتقطع الفدافد ، حتى نطحت برؤوسَ عزمها شرفات الايوان ، ونسرت من الشرق فسر الرومان ، ونشرت على مصر اعلامها وضربت في الاندلس خيامها »

ويأخذ من هذا بمذابة العرب الأوّل بعرب اليوم مهيباً بهؤلاء الى الاتحاد ، داعياً اياهم الى تلافي حالهم قبل فوات الاوان . ويقترح لهذه الغاية اجتماعاً عربيًّا يتذاكرون فيه شؤونهم ويطالبون بحقوقهم . وكأنهُ شعر بتشاؤم البعض او حذرهم من مثل هذا الاجتماع فقال منشطاً ومثيراً لهممهم

« أيحسبون ذلك الصوت لا يكون له من صدى ، أم يحسبون أن يذهب ذلك الاجتماع سدى . أوَ لا يعلمون ان مثل هذا الاجتماع مؤهّلاً عن المقاصد الدينية ، منحصراً في المصلحة الجنسية والوطنية ، مؤلفاً من اكثر النحل العربية ، يزلزل الدنيا اضطراباً ويستميل الدول جذباً وارهاباً ، فتعود للعرب الخالة التي ينشدون والحقوق التي يطلبون »

---

(١) راجعه في مجموعته (الدرر) ص ٢٠٠ — ٢٠٣

وليس هذا الكلام اول ما اداه من الرسالة العربية وآخره بل في تضاعيف اقواله كثير مما يوقظ النفوس ويثير النخوة القومية.

ومن الخطأ أن نحصر هذا العمل التحضيري في اولئك الثلاثة فقد كان مثلهم كثيرون، كالشيخ يوسف اليهاني، ونجيب العازوري اللبناني، وقد اصدر هذا الاخير سنة ١٩٠٥ كتاباً سماه يقظة الامة العربية استحث فيه العرب على استرداد حقوقهم المهضومة [١] وكالشاعر المشهور الشيخ نجيب الحداد وهو القائل من قصيدة [٢] —

آن الاوان لان اخاطر بالدم ... من لم يخاطر بالدما لم يسلم
أجزيرة العرب التي احببتها ... كم من اكفّ قد رمتك بأسهم
امست أكف الترك فيك فغادروا ... في كل قطر فيك نهراً من دم
قتلوا رجالك واستلوا من بني ... فبقيت صرعى لليدين وللفم
وغدا العراق مع الحجاز غنيمة ... وبلاد نجدٍ سيئة المتقسّم
فليتقذ الله الذي جنوده ... وليحفظ العرب التي لم تأثم

وقد ادرك هذه الطبقة طبقة متأخرة كان لها يد كبيرة في ايقاظ الروح القومية وسيرد ذكرهم في غير هذا المقام

بمثل هؤلاء الرواد القويين من كتبة وشعراء اخذت النفسية العربية تستيقظ من سباتها العميق. فلم يكد فجر القرن العشرين يتنفس حتى كانت العاطفة القومية قد اخذت تحرك القلوب والاقلام. وكان لها في الادب اتجاهات ظاهرة اظهرها تلك المفاخرة بالامجاد السالفة. وتلك الغيرة الملتهبة على اللغة الوطنية والتشكي من اهمالها. كقصيدة حافظ ابراهيم « رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي » ومنها ما جاء على لسان اللغة شاكية مما ألمّ بها —

انا البحر في احشائه الدر كامنٌ ... فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتي
ارى لرجال الغرب عزّاً ومنعةً ... وكم عزّ اقوام بعزّ لغات
سقى الله في بطن الجزيرة اعظماً ... يمرّ عليها الدهر تلو قرون
حفظنَ ودادي في البلى وحفظتهُ ... لهنّ بقلبٍ دائم الحسرات
وفاخرت اهل الغرب والشرق مطرق ... حياء بذلك الاعظم النخرات
ارى كل يوم بالجرائد مزلقاً ... من القبر يدنيني بغير اناة

(١) النهضة العربية للاعظمي ١ — ٤٨ (٢) اوردها الاعظمي في كتابه ١ — ٤٣ ولم نجدها في ديوانه ولعلها من جملة ما كان ضائعاً من آثاره يوم نشر الديوان

ايهجرني قومي عفا الله عنهمُ الى لغة لم تصل برواة
سرت لوثة الاعجام فيها كما سرى لعاب الافاعي في مسيل فرات

والقصيدة كلها على هذا المنوال من تعظيم العربية وذمّ المعرضين عنها الراغبين في اللغات الافرنجية (١)

ومثلها قصيدة لمصطفى صادق الرافعي موضوعها اللغة العربية والشرق وفيها يقول

امٌّ يكيد لها من نسلها العقبُ ولا نقيصة الاّ ما جنى النسبُ
كانت لهم سبباً في كل مكرمة ورم لنكبتها من دهرها سببُ

ومنها في تقلّب الايام على هذه اللغة :

أتى عليها طوال الدهر ناصعةً كطلعة الشمس لم تعلق بها الريبُ
ثمّ استفاضت ديباج في جوانبها كالبدر قد طمست من نوره الشهبُ
ثمّ استضاءت فقالوا الفجر يعقبهُ صبحٌ فكان ولكن فجرها كذبُ
ثمّ اختفت وعليا الشمس شاهدةٌ كانها لمنة في الجوّ تلتهبُ
كان الزمان لنا والسن جامعة فقد غدونا له والامر ينقلبُ

ثم يلتفت الى طلاب الادب الاجنبي فيقول مؤنباً

اتترك الغرب يلهونا بزخرفه ومشرق الشمس يبكينا وينتحب
وعندنا نهرٌ عذبٌ لشاربهِ فكيف نتركه في البحر يشربُ
فهل لضيّع ما ابقى الزمان لنا ونقض الكفّ لا جدٌ ولا حسب
إنّا اذن سبّةٌ في الشرق فاضحة والشرق منّا وان كنا به خربُ

ويختم القصيدة بنشوة فخر فيقول

اذا اللغات ازدهت يوماً فقد ضمنت للعرب ايّ فخار بينها الكتبُ
وفي المعادن ما تمضي برونقه يدُ الصدا غير انْ لا يصدأ الذهبُ

والمثال الاخير القصيدتين كثيرة في الادب العربي ومصدرها كما ذكرنا غيرة قوية نشأت على أثر اليقظة القومية في النصف الاخير من القرن الماضي ولا تزال الى الآن . ويقرن بالغيرة على اللغة ما نظم في ابطال العرب الاقدمين ووقائعهم احياء لسالف المجد وانهاضاً لهمم الهمم . كقول الرصافي من قصيدة مقابلاً بين العرب اليوم والعرب قديماً

لهفي على العرب امست من جمودهم حتى الجمادات تشكو وهي في حجر

(١) ديوانه (١٩٣٧) ج ١ ص ٢٠٣

ابن الجحاجح من يتسمون الى ذؤابة الشرف الوضّاح من مُضر
قومٌ هم الشمس كانوا والورى قمر ولا كرامة لولا الشمس والقمر
راحوا وقد أعتبوا من بعدهم عقباً ناموا عن الامر تفويضاً الى القدر

وقد اتصلت هذه الروح بالجمعيات الادبية في المعاهد العلمية وخارجها فالتهبت بها نفوس الناشئة وأخذوا في بدء القرن الحالي يتغنون بالاناشيد الحماسية . وهاك مثالاً منها نظم ١٩٠٦ في بيروت لاحدى الجمعيات العربية : —

لغة العرب اذكريني واذكري ما فات
كيف نسماك وفيا نفحة الحياة

***

يا بني الشام ومصر وبني العراق
هل نسيتم ذكر عصر طبّق الآفاق

***

كنتمُ فيها تمشّى بهجة الازمان
فلماذا اليوم ترضى حالة الهوان

ولشيوع هذه الفكرة اللغوية والتاريخية وانتقادها في الادب يوعز اسباب شتى منها — (١) اطراد الانتظام السياسي بمصر وظهورها بمظهر دولة عربية متقدمة (٢) اطراد التقدم العلمي والصحافي في الاقطار السورية والعراقية (٣) أن الاتراك برغم تشديدهم التكريمي طلاب الاصلاح كانوا لا يزالون يعتبرون العربية لغة الدين والثقافة الشرقية القديمة ويعدون انفسهم من حماتها وناصريها فلم يظهر منهم في ذلك العهد ما يرغب المتحمسين لها او يثبط عزائمهم

على ان من الانصاف التاريخي ان نقيد هنا القول ان هذا العمل التحضيري الذي سرى في الاوساط الادبية قبل ١٩٠٨ لم يبلغ درجة النضج . ولم يصل الى نفوس السواد من الامة . فكانت العواطف العمومية لا تزال غير منظمة . وكان الادب العربي بين هذه الروح القومية الآخذة في الاستيقاظ ، وما ألفهُ من الجامعة العثمانية المرتبطة بالخلافة جيران لا يدري كيف يسير . فهو بين جهة قومي ومن جهة عثماني — تارة يتغنى بامجاد العرب ، وطوراً يتغنى بامجاد العرش العثماني . وما زال في هذا الموقف الغريب حتى فوجيء بالدستور فذهلت حيرته وسيطر عليه مدة كانت العثمانية الحرّة فيها غايته المنشودة.[1]

(١) وقد بسطنا ذلك في كلامنا على «الناشئة الدستورية»

جسم الانسان

بين الحرارة والبرد

لطفا نصر (١)

كلكم يعلم ان جسم الانسان دافئ ، والغالب ان كلكم يكرهُ ان يصافح راحة كفٍّ باردة رطبة ، ويحاول ان يتغلَّب على كرهه هذا بقوله ان صاحب « اليد الباردة دافىء القلب » على حدّ المثل الفرنجي السائر . كذلك اذا وضعنا يدنا على عنق بقرةٍ او حوادٍ ، او اخذنا فيها عصفوراً حيًّا ، أحسسنا بدفء البقرة والحواد والعصفور ، إحساساً هو في نظرنا مرادفٌ للحياة نفسها . ولكنَّ من الحيوانات ما ليس دافئاً . فآكل النمل مثلاً لا تزيد حرارتهُ على ٣٠ درجة مئوية ، اي انها تقلُّ سبع درجات عن حرارة اجسامنا نحن ، ولكن اذا اخذ الى غرفة دافئة ارتفعت حرارتهُ بسرعة ، حالة ان الانسان ، تبقى حرارتهُ ، اذا بقي سليماً من المرض حوالي ٣٧ درجة مئوية سواء كان في غرفةٍ على جانبٍ من الدفء او على جانبٍ من البرد

فما هي هذه الحرارة في جسم الانسان ؟ وما منشاها ؟ ان الحرارة في الحيوانات العليا ، سببها تفاعلات الاحتراق التي تتمُّ في الجسم ، باتحاد ما نأخذه من مواد الغذاء ، بعنصر الاكسجين الذي تتنفسهُ عن طريق الرئتين . ومواد الغذاء ترجع في اصلها الى النبات ، والنبات يخزن في خلاياهُ ، طاقة الشمس ، بأسلوب عجيب ، سنفسرهُ لكم في حديث قادم . واذن فحرارة الجسم ، سببها ، اطلاق طاقة الشمس المخزونة في الطعام . وليس في وسع اي جسم حيٍّ ان يخلق طاقة ، وانما يستطيع ان يحوّلها من شكل الى شكل . ففي هذه الحالة ، كانت الطاقة كامنة في الطعام ، فحوّلها الى حرارة ، بالتفاعل الكيمياوي

وفائدة الحرارة في جسم الحيوان ، مزدوجة . فهي تساعد على ان تكون افعال الجسم وتفاعلاتهُ الكيمياوية سريعة . وثانياً على ان تكون منتظمة . ولذلك نرى الحيوانات المزودة

(١) من اساتيذ العلوم المبسطة التي يذيعها رئيس تحرير المقتطف من محطة الاذاعة الحكومية

بالحيوانات الدائمة الدم كالطيور والثفريات ، في مكانة أعلى ومقام أسمى في عالم الحياة من الحيوانات المعروفة بالحيوانات الباردة الدم ، كالزواحف والاسماك وغيرها

فالقسم الاول من الحيوانات يوصف بانهُ دافئ الدم ، اي ان جسمهُ يبقى على حرارة واحدة . فاذا وضع الانسان في مكان بارد ، أبرد من جسمه ، وأخذ يبرد بفقد حرارته وتشعّها الى المحيط البارد الذي يحيط به ، يتنبّه الدماغ ، فيحفز العضلات الى زيادة التفاعل فيزيد ما تولدهُ من الحرارة ، والى أوعية الدم فتنقبض ، حرصاً على حرارة الدم من ان تشعّ منها الى الخارج . أما اذا كان الانسان او أي حيوان فقري آخر غير الانسان في محيط حارّ ، فماذا يفعل حتى لا ترتفع حرارتهُ عن المتوسط السويّ ؟ انهُ يخلد الى السكون ، لكي لا تكون الحركة ، باعثاً على زيادة الحرارة بزيادة التفاعل في الجسم ، او يعمد الى تصبّب العرق من جسمه ، والعرق عند تبخّره يخفض حرارة الجسم ، او تزيد حركة تنفسه كما يفعل الكلب في يوم حارّ فيزيد ما يقذفهُ من الحرارة الى الخارج بزيادة الهواء الذي يزفره من الرئتين

هذه الوسائل ، تحفظ جسم الحيوان الدافئ الدم ، على متوسط واحد ، اذا كان الحيوان سليماً من المرض . واذن فلاءمتهُ لمحيطه أتم من ملاءمة الحيوانات التي لا تستطيع كل هذا وهو لذلك أوفى منها عدةً في نزاع الحياة

***

ولكننا اذا أخذنا فرخاً من الطير ، ووضعناه في مكان بارد ، رأينا ان حرارة جسمه تأخذ في الهبوط رويداً رويداً حتى يموت برداً ، أخيراً ، ذلك لان الاجهزة التي تمكن جسم الطائر من الملاءمة بين حرارة الجسم ، وحرارة المحيط ، لم يتمّ نموها بعد فيه ، فيروح ضحية هذا النقص

***

ومن الحيوانات الفقرية ، حيوانات لم يتم في جسمها نشوء هذه الاساليب ، التي تمكنها من مقاومة حرارة البيئة او بردها ، والاحتفاظ بحرارة الجسم على مستوىً واحد ، فتعمد في أيام البرد ، الى ما يعرف باسم «التشتية» او « الاسكتان » اي انها تبحث عن مكان تقارب حرارتهُ حرارة جسمها ، وتقبع فيه ، ممتنعة عن كل حركة ، لكي تحتفظ بحرارة جسمها ، ما أمكنها الى ذلك سبيلا

فقلبها في هذه الاحوال ينبض نبضاً ضعيفاً ، والدم يجري في عروقها جرياناً بطيئاً ، ثم انها في خلال ذلك لا تأكل ولا تتبرّز ، والتنفس يكاد يقف ، وما خزن في جسمها من الشحم يستنفد قليلاً قليلاً ، وكل ذلك ، لانها لا تستطيع ان تولد من الحرارة في جسمها ، الا جزءاً مما تخسرهُ لو تعرّضت للبرد بيقظها ، فتكتفي به من الكفاح ، الى القيلولة والصبر والاسكتان

وهذه الحيوانات التي تشتي او تسكن على المنوال المتقدم ، او « تنام نوم الشتاء » كما يصفونها في اللغات الفرنجية ، تختلف من حيث ثقل نومها

فالقنفذ النائم هذا النوم الشتوي ، قد تقطع مدة عشرين دقيقة في اثناء ، او تمرض لغازات تكاد تكون خانقة من دون ان يستيقظ . فكأنه والميت سواء ، ولكنه ليس بميت ، وانما جميع الافعال الحيوية في جسمه قد بطؤت بطأ عظيماً

يقابل هذا من حيث ثقل النوم وخفته حيوان يعرف باسم الزغبة Dormouse وهو من القوارض كالفأر يقيم في الشجر ويبني عشاً يسكن فيه في الشتاء . فنوم الزغبة الشتوي خفيف جداً ، ومثلها الخفافيش فانها تستيقظ ، اذا تخلل أيام البرد والمطر يوم صحو دافيء

وعندما تستيقظ الحيوانات التي من هذا القبيل ، اي الحيوانات التي تسكن في الشتاء ، ترتد اليها حرارة جسمها كاملة ، وقد ذكر الدكتور بيري ان زغبة مستكنة ، او مشتية ، تستطيع عند استيقاظها ان ترفع حرارة جسمها ١٩ درجة في ٤٢ دقيقة

***

هنا قد يخطر لبعضكم ان يسألني لو استطاع ، لماذا يشتي القنفذ ، ولكن الخلد ، وهو الحيوان الذي يحفر انفاقاً في الارض لا يشتي اي لا يسكن ولا يمتنع عن الحركة ، في فصل البرد . وتفسير ذلك ان الخلد ، وهو حافر الانفاق في بطن الارض يستطيع ان يجد الحراطين ، أي ديدان الارض ، على عمق كاف بعيد عن طبقة الارض المجلدة حتى في منتصف فصل الشتاء فيأكلها فتجهزه بالمادة اللازمة لتوليد الطاقة . واذ سألتموني لماذا تسكن الخفافيش ولكن الطيور لا تسكن قلت لكم ان الطيور التي لا تستطيع ان تحتمل برد منطقة ما ، تقطع او تهاجر اي تنتقل من بلاد باردة الى بلاد دافئة وهي الطيور القواطع ، وفي كل سنة تمر طوائف كثيرة منها بالبلاد المصرية . واذا سألتموني ، لماذا يسكن اليربوع ، وهو فأر طويل الرجلين قصير اليدين واله ذنب كذنب الجرذ ، ولكن الفرقدان لا يسكن قلت لكم : ان الفرقدان يستطيع ان يخزن الطعام ، فيأكله في الشتاء ويهضمه وهذا الطعام يجهز جسمه بالحرارة اللازمة له

واذاً فني وسعنا ان نقول ان الحيوانات التي لا تسكن في الشتاء مجهزة بوسائل تمكنها من الاحتفاظ بحرارة أجسامها في فصل الشتاء البارد

***

على أن لحرارة الجسم ناحية أخرى . فقد حكم على الانسان على ما جاء في التوراة « بعرق جبينك تأكل خبزك » . فما هو العرق ؟ ولماذا نعرق ؟

تعلمون ان على سطح الجلد مسامّ كثيرة . وهذه المسام ، هي في الواقع نهاية عدد صغيرة في الجلد ، هي عبارة عن انابيب لولبية او حلزونية تأخذ من الدم الذي يجري حواليها الماء وبعض الاملاح ، وتفرزها من هذه المسام التي على سطح الجلد . ويقول علماء التشريح والفسيولوجية ، أن كل بوصة مربعة من سطح الجلد ، تحتوي على نحو ثلاثة آلاف من هذه المسامّ

فاذا كان الجوّ معتدلاً والهواء على جانب وافر من الجفاف تبخر العرق بسرعة . ولكن اذا كان الجو شديد الحرارة ، شديد الرطوبة ، صعب على العرق ان يتبخر بالسرعة التي يفرز بها ، فتكون منه قطرات كبيرة على الجبهة مثلاً تسقط على الوجه كما تسقط الدموع المنهمرة . ففي مثل هذه الحالة قد تتغطى البشرة (الجلد) بقطيرات من العرق ، حيث لا تمتصها الملابس وتصبح راحتا الكفين ، وهما غالباً على جانب من الجفاف في معظم الناس رطبتين

***

ومعظم العرق ماء ، اذ لا يخفى عليكم ان الجانب الاكبر من المادة الحية ماء ، بل ان الماء يبلغ في بعض الانسجة والخلايا تسعين في المائة من المواد التي تتكون منها او اكثر . فالماء الذي يخرج في العرق يؤخذ من الدم ، والدم يمتصهُ من اعضاء الهضم وسائر انسجة الجسم . ويقال ان مقدار ما يفرز في يوم معتدل الحرارة والرطوبة ، قد يبلغ ثلاث كوبات من العرق ، ولذلك يمكن ان يقال ان من وظائف العرق مساعدة دورة الماء في داخل الجسم

ومع ماء العرق تخرج مواد اخرى ، بمقادير يسيرة من الافرازات الدهنية الطيارة ، والزلال والاملاح غير العضوية ، وغيرها من نفايا الجسم . ومن المعروف ان بعض ما نأكلهُ ونشربهُ تظهر آثاره في العرق الذي تفرزهُ . ولذلك قيل ان من وظائف العرق ترشيح بعض المواد التي يتناولها الجسم ، فيخرج به او يفرز به ما لا حاجة به اليه

ولكن اذا صحّ هذا ، بعض الشيء ، فانهُ لا يكفي للجواب عن السؤال الذي وجهناه ، وهو لماذا نعرق؟

ان الجواب عن هذا السؤال لا يفهم على صحته ، الاّ اذا لاحظنا زيادة العرق في الجو الحار او عند العمل الشاق . فالحمام الذي يعمل امام الموقد في المصانع او السفن ، يفرز نحو ثلاث كوبات ونصف كوبة من العرق في ثلاثة ارباع الساعة . ونحو خمس كوبات من العرق في ساعة وعشر دقائق . وهذا المقدار لا يكاد يصدَّق لولا ما نعلمهُ عن عدد غدد العرق اللولبية الصغيرة التي وصفناها

فقد قال الفسيولوجي الدكتور رونلد كبل ما يمكن ان عددها على سطح جسم الانسان

يبلغ مليونين ونصف مليون غدة . ولما كانت كل غدة انبوباً حلزونيًّا ، فان طول هذه الانابيب اذا وضعت طرفاً الى طرف يبلغ من ٢٠ ميلاً الى ٣٠ ميلاً فتأملوا

في الجو الحار ، وفي خلال العمل الشاق ، يتعرض الجسم لخطر كبير وهو زيادة متوسط حرارته عن المتوسط الطبيعي اي ٣٧ درجة بمقياس سنتغراد

فلكي لا يزيد هذا المتوسط ، ويبقى الجسم على حالته الطبيعية من حيث الحرارة — وقد بيّنت لكم في ما تقدّم فائدة بقاء حرارة الجسم على مستوى واحد في تنازع البقاء — جهّزته الطبيعة بوسيلة العرق لخفض الحرارة الناشئة عن الجوّ الحارّ والعمل الشاق . ذلك ان العرق عندما يفرز يميل الى التبخر ، وفي تبخّره يحتاج الى حرارة ، فيأخذها من الجسم فتهبط حرارة الجسم الى متوسطها الطبيعي

فتصبّب العرق من الجسم ، هو اسلوب من اساليب الطبيعة لانقاذ الجسم الحيّ من تأثير ارتفاع الحرارة فيه

ولكن احدكم قد يسأل لماذا لا تعرق الطيور ، وهي من الحيوانات الدافئة الدم . ولماذا لا تعرق الكلاب الاّ قليلاً جدًّا ، وهي من الحيوانات الدافئة الدم كذلك . والجواب عن ذلك ان للطبيعة وسائل اخرى لتبريد الجسم الحارّ . فالطير تطلب ظلّ الشجر وهذا يساعدها قليلاً وأوعيتها الدموية تتمدّد فيتعرّض مقدار كبير من دمها لفقد جانب من حرارته . ثم أن لها اكياساً من الهواء متصلة برئتي الطائر . فعندما يدور الدم في اوعية الرئتين يتبرد باتصاله بهواء هذه الاكياس . اما الكلب ، فجميعنا يعلم انهُ يرض في يوم حار على ارض باردة وهو يلهث . واللهث ، يعني زيادة التنفس . اي زيادة مقدار الدم الجاري في عروق الرئتين . أي زيادة مقدار الدم المتصل بالهواء الذي في الرئتين ، وبذلك تخفف حرارة جسمه . ثم إن لسان الكلب المتدلع من بين شدقيه في يوم حار ، يمكنهُ من تبخير اللعاب الذي تفرزهُ غدد اللعاب في فيه ، وهذا يمكنهُ من تبريد الدم الجاري في اللسان وحواليه ويساعد الرئتين في عملهما على تبريد الدم الجاري في أوعيتهما

***

واذن فالرد على السؤال الذي سألناهُ وهو لماذا تعرق ، هو هذا : انها تعرق ، لانها بهذا الاسلوب تمكنها الطبيعة من التغلّب على ميل الجسم الى ارتفاع حرارته في الجو الحار او العمل الشاقّ ، عن المتوسط الطبيعي الذي يصلح لهُ . وهذا الاسلوب ، على بساطته بعد فهمه ، من العجائب في دقته وحسن نظامه . ويامَ في الطبيعة ، المخلوقات الحية من البدائع والعجائب !

العامية والفصحى

عود الى الموضوع

بقلم أنيس فريحه
دكتور فلسفة في اللغات السامية

عهد اليَّ مرة ان اساهم في وضع كتاب في اسماء الكتب والمقالات والتقارير التي كُتبت بعد الحرب العظمى في العلوم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية عن الشرق الادنى العربي[1] وكان نصيبي ان ادوّن المصادر العربية . وشدّ ما كان عجبي لكثرة ما كُتب في موضوع « العامية والفصحى » في الجرائد والمجلات . وكنت اقرأ الردود بانتباه خاص - لاقف على وجهة نظر المحافظين ، وشعرت اذ ذاك ان المحافظين سيربحون المعركة لتذرعهم بمنطق — مع انهُ كان ناقصاً — كان يثير في الناس حماسة . سكتت المجلات والجرائد وخفت الصوت وخيّل للناس ان الموضوع قد اصبح في سلّة المهملات . ولكني كنت ابدأ على يقين من ان القضية ستُبعث بعد حين ولاسيما بعد ان يشعر الناس بالاستقرار السياسي وبعد ان يصح التهذيب والمصالح الاقتصادية من جملة الروابط القوية التي تربط اجزاء العالم العربي . لان القارىء المتتبع لتطور النهضة العربية يسلّم معي بان القائمين على تغذية الحركة كانوا ولا يزالون يقولون بان الروابط المقدسة التي تربطنا هي اللغة والدين ، فيجب ان لا يُمسّا ولذا قضي على البحث قبل أن يسفر عن رأي ناضج

ولكني سررت اذ تحقق يقيني برأيي الموضوع ثانية ، وسروري مضاعف — شأن كثيرين من امثالي — لان الذي اثار الموضوع رجل ذو مكانة سياسية أدبية سامية ولان مساعيه ستكون مثمرة ان شاء الله ، هذا اذا اعدّت صحافة الترية لتهيّ الذرة . نعم ان الموضوع الآن يدور حول اصلاح الخط العربي وتسهيل القواعد واعداد كتب مدرسية مفيدة ، ولكني ارى ان للموضوع هذا صلة بمشكلة اعمق واهم ألا وهي مشكلة وجود لغتين لغة البيت والسوق ولغة الكتب ، واما ارى في اثارة الموضوع بادرة جديدة سوف يرى الباحثون اقسمهم معها سنهتكين

(١) واسم الكتاب « المصطلح » مراجع ما نشر بعد الحرب العظمى عن بلدان الانتداب في الشرق الادنى » مطبوعات الجامعة الاميركية في بيروت

بدرس المسألة من جذورها . والذي يودّ ان يقف على ما قيل للآن في الموضوع ، والذي يريد ان يقف على وجهة نظر بعض المفكرين ، يستطيع ان يُلمّ بفكرة تامة اذا طالع عدد يوليو لمجلة التربية الحديثة التي يصدرها الدكتور امير بقطر في الجامعة الاميركية في القاهرة

وحيث ان الموضوع قد بُحث مرة اخرى فأنني ارى ان البحث يجب ان لا ينحصر في فئة من الناس بل يجب ان تسمع اصوات صغار الناس وصغار الملحين فهؤلاء لديهم كنوز من الاختبارات التي أملتها عليهم الحياة وهم بصعوبة اللغة وتعليمها ادرى لانهم ان تكلموا فانما يتكلمون عن خبرة ويقين . وها انا اجرؤ واصرّح برأي طالما درسته ورددته في خلوتي وترددت كثيراً في نشره أما الآن فلي من رحابة صدر المجتمع مشجع ولي في اثارة الموضوع مسوّغ

وقبل الاسهاب في الموضوع اقول انني من جملة الذين يقولون بانهُ ان كان هنالك من مشكلات في تعليم العربية وتعلمها فانها جميعها تُحَلُّ من تلقاء ذاتها اذا كانت براعة التعليمية تسعى لاحلال الفصحى محل العامية وهذا لا يتوفر الا اذا (اولاً) قضينا قضاء مبرماً على الكتب القديمة البالية — رغم ان بعضها طبع سنة ١٩٣٨ — التي لا تعين بها على تعليم اللغة ، واستعنا بعلماء علم النفس الحديث وبعلماء التربية الاخصائيين لوضع اساليب عصرية تمشي وروح العلم (وثانياً) — وهنا يخالفني الكثير — اذا خففنا من حدة الفصحى وتصلبها ، والافضل ان يقال من تصلب القائمين على امرها لان العربية مشهورة بالمرونة والاشتقاق واتباع القياس . ويوم نوفق الى هذا نجد ان ليس هنالك مشكلة خط او مشكلة قواعد او مشكلة اساليب في التعليم

﴿ حقيقة اللغة ﴾ هل اللغة من صنع الآلهة ام نتيجة تطور العقل والفكر : قد يقول قائل ولماذا نسأل هذا السؤال في القرن العشرين وقد كان هذا من مباحث القدماء ؟ للأسف انهُ لا يزال بين ظهرانينا من يعتقد ان اللغة سلعة منزلة فهؤلاء يخصون العقل لاساليب اللغة لا كما يفعل الذين يرون في اللغة عبدةً للعقل والفكر ، فان هؤلاء يخضعون اللغة للعقل . عند ما نبحث اللغة يجب ان نبتعد عن فكرة قدسيتها بمعنى انها لغة الآلهة

وهنالك حقيقة أخرى نساها أو نتناساها عند بحثنا اللغة . ذلك ان حقيقة اللغة هي النطق اعني ان اللغة هي المحكية لا المكتوبة . لان الكلمة المكتوبة ليست سوى هيكل عظمي ميت جافّ يكسبهُ النطق حياةً . فان مجرد شكل « قتل » يعيد الى الذاكرة مجموعة اصوات وهذه المجموعة يفسرها العقل بصورةٍ ذات معنى هي صورة القتل . ودرس اللغة في الغرب يدور حول اللغة المحكية ، اللغة التي ينطق بها ولا يهتم بالكتابة الاّ بقدر انها رموز تشير الى اصوات متواترة تنتقل من جيل الى آخر شفهياً . لا يوجد لغة تحت السماء تعبر كتابتها عن منطوقها بالضبط التام. وحقيقة اخرى ، وهي ان الفيلولوجي لا يعتبر وحدة اللغة الكلمة المفردة المستقلة بل وحدات اللغة جمل مفيدة . ونحن اذا فحصنا كتب الصرف بالاخص وكثيراً من ابواب النحو نقصر همنا

على مفردات الكلام بيد انهُ يجب علينا ان ننظر الى اللغة كجمل، كل جملة تفيد معنىً . اللغة ظاهرة سيكولوجية لا ظاهرة اركيولوجية

﴿ ما الداعي لطلب الاصلاح ؟ ﴾ لا شك ان بعض الرجعيين يرون في طلب الاصلاح ناحية من نواحي هذه الطفرة الجديدة التي طفرها الشرق الادنى بعد الحرب ، ويرون فيها فذلكة المدّعين بان تفكيرهم متأثر بالطابع العلمي الحديث . ويرى البعض ان طلب الاصلاح ليس سوى محاولة سياسية خفية تديرها يد الاستعمار للقضاء على الروابط التي تربط الشرق العربي . وهنالك المتطرفون في رجعيتهم الذين يرون في هذا افتراء على اللغة والدين . انا لا نوافق على هذه المخترعات . قد يكون بعضها على جانب من الصحة ولكن الدوافع ترجع الى ما هو أعمق وأعمّ . انا نرى في الحركة رغبة الناس المخلصة في البساطة في التعبير والطلاقة في الكلام . الانسان ، وهو جزء من الطبيعة ، يمشي مع القانون الطبيعي الازلي : اتباع اقلّ السُبُل مقاومة . الانسان يكره التفكير في لغة والكلام بأخرى . وقد بدأنا نشعر بتلك الصعوبة غير الطبيعية في تعلم الفصحى . هذا العصر عصر اقتصاد والاقتصاد شعار الفرد كما هو شعار الامة . الاقتصاد في كل شيء الاقتصاد في الكلام والتفكير والمال

﴿ النزاع بين لغتين ﴾ نلاحظ في تاريخ تطور اللغة نوعين من التنازع ، الاول نزاع بين لغتين مستقلتين تمام الاستقلال يتكلّم بهما في القطر الواحد كما كان الحال بين اللاتينية والبربرية، بين الالمانية والمجرية ، بين الفرنسية والفلمنكية ، بين العربية والسريانية والفارسية الخ وهذا النزاع لهُ اسبابه السياسية البحتة . وأما الثاني فنزاع بين العامية المحكية واللغة الكتابية الادبية. وقد يخطىء من يظن ان هذه مشكلة العرب فقط . كلاّ . هذا النزاع عامٌّ مرَّت في أدواره جميع الشعوب المتمدنة وفريق كبير منها حلّ المشكل . اما نحن فلا نزال من جملة الحائرين . هذا النوع الاخير من النزاع بين العامية والفصحى لا يعود الى أسباب سياسية بل بالعكس ، هو نتيجة لتطور طبيعي ، نتيجة لحب الناس للغة السهلة البسيطة التي تعبر عن أفكارهم وشعورهم بدون أدنى تكلُّف او اجهاد فكر . اللغة الكتابية أبطأ في مجاراة الحياة من لغة العامة . لغة الناس اليومية تتقدم وتتطوّر بتطور الحياة وأساليبها . وأما اللغة الكتابية مع حياتها، فتتباطأ في سيرها

قلنا ان كثيراً من الدول مرَّت في هذا الصراع . أما فرنسا فحلّت المشكلة في القرن الثالث عشر ، وايطاليا بظهور دانتي ، والمانيا بترجمة لوثر للتوراة بلهجة المانية محلية ، وانكلترا بظهور شوسر وشكسبير . وقاست اليونان الامرّين وسفكت دماء بين أتباع اليونانية القديمة ، لغة أرسطو وافلاطون ، واليونانية الحديثة ، لغة الحياة . والحقيقة ان المحكية كانت تخرج من المعمعة ظافرة

﴿ نشوء اللغة الادبية ﴾ ينبغ عبقريٌّ فذٌّ في أمة ما فيكتب أدبه او ينشد اشعاره بلهجة خاصة ربما تختلف عن لغة السوقة وهذا أمر طبيعي ، وإلاّ فما هو الفرق بين الخاصة والعامة ،

فتستسيغ الناس هذا النوع الجديد من الفن وبروقهم فيحاول الفنان الناشيء حديثاً أن يقتفي أثر من هو أبرز منهُ وبعد زمن نجد ان في كلّ أمة مقياساً ادبيًّا يسعى الناس لتقليده . وتصبح اللهجة التي كتب بها ذاك الادب مقياساً للغة الادب والشعر

لنرجع الى العربية أيّ لغة هي مقياسنا الادبي ؟ القرآن الكريم وهذا أمر مجمع عليه لانها الحقيقة بينها . فالصرف والنحو والبلاغة والفصاحة قوانينها وأساليبها مستمدّة من القرآن ومبنية عليه

ولكن السؤال الذي لم يجب عنهُ للآن هو هل كانت لغة القرآن الكريم تمثل عامية ذلك العصر أو كانت تمثّل لغة الادب والشعر الراقي؟ سؤال مهم جدًّا ، وقد انبرى للاجابة عليه مستشرقون وشرقيون ورغم الجهود الجبارة لا أظن ان لدينا رأياً ثبتت من صحته . المسألة لا تزال قيد التخمين والترجيح وانت اذا راجعت الدراسات الدقيقة التي قام بها العلماء تبيّنت خطر الموضوع . فمنهم من قال ان الطريقة المثلى لحل هذه المشكلة هي درس اللهجات المحكية الحالية في الحجاز ونجد والعراق وسوريا . وحقًّا ان كثيراً من هذه اللهجات قد درس درساً وافياً ولدينا المعلومات الكافية عنها . ومنهم من ظنّ ان في الادب بعض بقايا ميزات هنا وهناك قد تُلقي ولو بعض النور على المسألة . ومنهم من انبرى لدرس القرآن نفسه والقراءات المختلفة علّهُ يهتدي الى السبيل كما فعل ڤولرز . ومنهم من حاول ان يجد في الشعر الجاهلي القديم بعض آثار للهجات المحكية . والغريب ان الادلة التي يمكن ان يبنى عليها رأي ناضج قليلة ، لان الادب العربي عدا ديوان ابن قزمان الاندلسي وجانب من مقدمة ابن خلدون ، تقريباً صامت وليس فيه ما يرينا بوضوح لغة العوام المحكية سوى اشارات الى ان العرب كانت تتكلم بلهجات . أما ما هي هذه اللهجات وكم كانت تختلف عن لغة القرآن وهل كانت خالية من الاعراب ، جميع هذه المسائل لا تزال اموراً نودّ كثيراً ان يميط البحث عنها اللثام

المهمّ ان اللهجات كانت موجودة . وان لغة القرآن كانت لغة أدبية راقية يتكلم بها الخاصة فقط في مجامع خاصة وهذا أمرٌ مرجحٌ لا بل يقبله الكثيرون لما يجدونهُ في الفصحى من تعقيد يجعلها غير سائغة لتكون لغة البيت والسوق . ومن اراد مزيداً فليراجع ما قاله شيخ المستشرقين نولدكه الذي لم يرَ في الفصحى لا صعوبة ولا تكلف ، وڤولرز الذي يقول بعكسه [1]

﴿ الاعراب ﴾ وهو العقبة الكؤود في اللغة . ويحق لنا ان نسأل عن قيمته الحقيقية في اللغة كما سألنا غيرنا من قبل . فهذا ابن قزمان في مقدمة ديوانه الزجلي يحمل حملة شعواء على الاعراب ويقول انهُ عبء ثقيل على اللغة وان لا فائدة منهُ البتة . وابن خلدون في كلامه عن « اللسان

(١) ألف ڤولرز كتاباً في درس لغة القرآن ليبين وجود اللهجات حتى في القرآن . موضوعه « اللغة العربية » والكتاب بالالمانية . وقد رد عليه نولدكه مراراً . راجع احدى مقالاته في
Neue Beiträge zur semitischen Sprachwissenschaft.

العربي لهذا العهد » يقول « وفقدان الاعراب ليس بضائر لهم (ص ٥٥٨ طبعت بيروت) ويقول أيضاً (ص ٥٨٣) والاّ فالاعراب لا مدخل لهُ في البلاغة

ولكن لندع الاستشهاد بالقدماء جانباً ولنبحث الموضوع على ضوء الحقائق الفيلولوجية. لنعتبر الاعراب في تاريخ اللغات السامية نجد ان جميع اللغات السامية كانت تعرف الاعراب ولكن منذ بدأ عصر الكتابة والتدوين بدأ الاعراب بالتلاشي كالبابلية والسبئية والارامية والعبرية وفي أدب هذه اللغات نجد بقايا للاعراب هي أشبه بالمتحجرات التي ليس لها الاّ قيمة تاريخية . أما العربية وهي أحدثهنّ من حيث التدوين والكتابة فقد حافظت على الاعراب أشد محافظة . السؤال الوجيه لماذا لم تحافظ عليه المحكية؟ أما جواب الرجحيين قديماً وحديثاً فهو ان فقدان الاعراب من علامات الانحطاط والتأخر ومخالطة الاعاجم ، والسامية هي الفصحى في انحطاطها . لماذا لم تحافظ عليه اخوات العربية ؟ هل لانها انحطت ؟ أو يسلم بهذا الرأي حماة الثورات ؟ أو كتبة الادب السرياني ؟

منشأ علامات الاعراب وقيمتها في اللغة أمر لا يزال موضع البحث . ولكن لنا في منشأه رأي لا ضرر في ايجازه هنا . من المسلم به انهُ كلما بعدت اللغة في القدم ازداد التعقيد خلافاً لما كان يُظن سابقاً ولا يزال يظن الكثيرون منا . المعتقد القديم هو ان اللغة في اطوارها الاولى كانت بسيطة للغاية تتألف من كلمات ذات مقطع او مقطعين ومن جمل غاية في البساطة والافصاح . هذا خطأ محض، عقل القدماء لم يكن على اتزان ومنطق يمكن ان تكون معهما اللغة في هذه البساطة . لغة القدماء كانت لغة مجازية صورية معقدة للغاية ونزعة الناس كانت منذ فجر التاريخ ولا تزال نحو البساطة والسلاسة ، وأدب لغات كثيرة يريك هذا الاتجاه [1]. فالاعراب من جملة المزركشات والمحسنات . ثم هنالك الشعر والغناء ، وهما من أقدم فنون الادب ، يتطلبان وزناً وايقاعاً ورنةً . أليس عندنا نون الرباية ؟ أضف الى هذا عاملين آخرين اولاً حب التفرد والظهور عند جماعة المغنين والمنشدين والقصاصين . كيف يتفردون ، او كيف يتميزون عن عامة الناس ان لم يكن لكلامهم وقع خاص ونبرة خاصة وفم خاص ؟ والعامل الآخر ، وهو حديث العهد ، محاكات المنورين الذين اشتغلوا بوضع قوانين اللغة من صرف ونحو وتعسفهم في كثير من الاحيان . جميع هذه العوامل عملت معاً وساعدت على ظهور الاعراب

ولكن هل هذا الاعراب ضروري للبلاغة ؟ الاكثرية الساحقة اليوم تقول طبعاً ضروري والغريب ان أدلتهم أوهى من خيط العنكبوت . فقد وقع نظري فقط على حجة واحدة يدللون بها على ضرورة الاعراب وهي جملة « ضرب زيدٌ عمرو » — وتأمل في هذه الواو « الكمينة » في آخر عمرو ! — فيسألونك من الضارب ومن المضروب ؟ كأن المحكية لا تميز بين الفاعل

(١) ترجع المستزيد من كتابات Otto Jespersen فانه لي طليعة اللغات في تطور اللغات وأهم كتبه "Philosophy of Grammar" و "Language"

والمفعول . ألا تقول في العامية زيد ضرب عمرو أي الفاعل يتقدم . وفي لبنان حيث أثر السريانية ظاهر يقولون « زيد ضربه لعمرو » وهو تركيب سرياني فصيح . وهل لمجرد وجود عدة جمل قد تدعو الى الارتباك مبرر وجود نظام للاعراب مضن متعب ؟؟

اسمع ما يقول ابن خلدون ردًّا على هذا السؤال (ص ٥٥٧) « ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربي لهذا العهد واستقريا أحكامه لتباين عن الحركات الاعرابية في دلالتها بأمور أخرى موجودة فيه تكون قوانين تخصها ولعلها تكون في أواخره على غير المنهاج الاول في لغة مضر ... »

اننا لا نعتقد ان للاعراب قيمة في ذاته والاّ كانت المحكية حافظت عليه . أنا لا أجد فرقاً في المعنى بين « كان زيد غنيًّا » و « كان زيد غني » — « إنّ زيدًا غني » و « ان زيد غني » — « واشتريت عشرين رطل زيت » و « اشتريت عشرين رطلاً زيتاً » واربع — رجال واربع نساء . المعنى واضح جدًّا بغير الالتجاء الى قواعد الصرف والنحو الصارمة

« هل تحل العامية محل الفصحى ؟ » كلاّ . والاعتراضات التي يرجيها الرجعيون وجيهة لا يمكن لمنصف ان يرفضها . فالشرق العربي في اشد الحاجة الى التقرب والتآلف واللغة من الاواصر التي تربطنا فاذا اصبحت العامية اللغة الادبية اصبح لكل قطر لغة خاصة لان لهجاتنا متعددة ومختلفة . والمشاهد ان العراقي لا يفهم اللبناني والمصري لا يفهم العراقي اذا كل منهم تكلم بلغة العوام وباصطلاحهم . هنالك اعتراض اوجه وهو ان العامية ينقصها تراث ادبي فأين الشعر فيها وأين القصص وأين الانشاء الرفيع . هذا كله نجده في الفصحى بيد ان العامية من هذه الناحية معدمة بتذلة

« هل هنالك طريق وسط ؟ » نعم . وهذه لغة التخاطب عند المتأدبين . ولا ينكر ان في الاقطار العربية اليوم لغة وسطاً لا هي بالعامية المبتذلة ولا هي بالفصحى التامة الاعراب . ألا يأتي المصري ربوع لبنان فيتفاهم مع المتعلمين في لبنان بكل سهولة . ألا يأتي المدرّس المصري العراق فيفهمه الطلبة ويصغي اليه المثقفون ويفهمون كل ما يقول . وكاتب المقال له مع خادمه في النجف الاشرف ما يضحك ويبكي فلا هو يفهمني ولا انا افهمه ولكني لا اقول اني جلست مرة الى رفاقي واصحابي العراقيين وقلت لاحدهم « ارجوك بعد ما قلت » إلاّ اذا استعمل اصطلاحاً غريباً محليًّا . وهذا شائع في لغات اخرى فليس من الضروري او يفهم ان لندن جميع مصطلحات اهل شيكاغو . ثم أليس هذا ما يجري ايضا في المانيا وفرنسا ؟ الالماني البافاري يصعب عليه فهم ابن برلين اذا كلّ منهما تكلم بلهجته الخاصة . ولكن من الملايين العديدة في المانيا قلّ وقلّ جدًّا ان نجد فيهم من لا يجيد التكلم باللغة العامة لغة المتأدبين ويسمونها Hochdeutsch . وما قولك في Patois ؟ ولكن هل هنالك فرنسيون لا يمكن ان يتفاهموا بلغة واحدة ؟

ونحن نعتقد ان الاقطار العربية في سعيها للقضاء على العامية ستجد نفسها مرتبطة الواحدة بالاخرى

بلغة وسط لغة لا عامية ولا فصحى بالمعنى التام . ما هي مزايا هذه اللغة ؟ يمكن ان نختصر الجواب بقولنا : تتصف هذه اللغة بتجنبها جميع ما من شأنه ان يجعل الفصحى غير سلسة للتخاطب . اذاً ما الذي يجعل الفصحى لغة صعبة ؟ (١) الاعراب (٢) التثنية (٣) قوانين العدد . ولنبحث كلاً على حدة

﴿ الاعراب ﴾ وقد مرَّ الكلام عنه . نعتقد ان الاعراب ليس ضرورياً لتأدية المعنى فالمعنى واضح تماماً في هاتين الجملتين : « جاء المعلمين . ورأيت المعلمين » . أنا لا أنكر ان هنالك بعض الجمل الواردة في الادب ، وكثيراً من أبيات الشعر التي لا يظهر فيها المعنى واضحاً الاَّ اذا ظهرت علامات الاعراب ولكن لماذا لا ننظر الى هذه على انها أقلية ، انها عارضة ، أنها بعيدة عن البساطة ؟ لماذا لا يكون هدفنا في الانشاء البساطة والافصاح وعدم افساح المجال للظنّ او الشك ؟ هل هذا بالعسير وفي العربية ما فيها من ضروب التعبير والافهام ؟

﴿ التثنية ﴾ اللغات السامية جميعها كانت تعرف المثنى وفي العبرية والسريانية آثار تدل على وجود التثنية . ولكن لسبب ما — ولعل السبب عدم وجود مبرِّر للتثنية — انقرضت . حتى ان بعض اللغات الآرية كانت تعرف التثنية ولكنها سقطت من اللغة عند فجر التاريخ . ومما لاشك فيه هو ان التثنية من بقايا عصر عريق جداً في القدم ، عندما كان الانسان لا يتعدّى في حساباته رقم ٢ وانت اذا اعتبرت حذف التثنية في العربية وجدت ان الشاعر ، وعددها ١٤ ، تنقص الى ١٠

﴿ العدد ﴾ ومن يجيد قواعده غير الذين يعلمون قواعد النحو ؟ فوالله اني اردد قواعده كل مرة اريد كتابة الاعداد . ونعتقد ايضاً ان هذه ظاهرة غريبة في القدم ، نعني بها ظاهرة التضاد . عقل الانسان القديم يفهم الشيء بضده أليس في الطبيعة تضاد ؟ نهارٌ فليل ، شتاء فصيف ، شروق فغروب ، حياة فموت وقس على هذا . وفي تطور العربية مظاهر عديدة لهذه العقلية . اعتبر الجموع المكسرة ، كبير كبار فحرف ا ضده د . أسود سود حذفت الهمزة للتضاد . والتضاد هذا كما قلنا ، له اثر كبير في اللغة لا يمكننا خوض بحثه الآن . وتأنيث العدد مع المذكر هو من هذا القبيل . يقول مينهوف الذي درس لغات الحاميين انهُ وجد عند بعض القبائل ان في حفلات ادخال المراهقين في عداد البالغين كانوا يلبسون الفتاة ثياب الفتى والفتى ثياب فتاة . الضدّ مستحبٌّ والضدّ يظهر حسنهُ الضدُّ . فرحمة بأبناء القرن العشرين علينا ان نهجر اساليب القرن الثالثة قبل فجر التاريخ

﴿ خلاصة ﴾ يشعر العرب اليوم ان الوقت من ذهب ، وان الطفل يبذل جهداً كبيراً لتعلم اللغة ، واحياناً يُسفر هذا الجهود عن خيبة . ومفكرو العرب يشكون اللجان لدرس قضية اللغة من جديد ، وحيث ان الرأي العام متهيء لمجابهة الموضوع أشعر كما يشعر غيري ، ان القضية عامة وان القضية تعود الى أعمق من بعض الصعوبات السطحية . المشكلة هي مشكلة وجود لغتين . فهل آن الاوان لدرس امكان الاتفاق على اقرار لغة واحدة هي لغة التخاطب عند المتأدبين ؟

رسالة المنبر

الى الشرق

من امين الريحاني الى فليكس فارس
عن طريق المقتطف

سبقني « الصيرفي » في تقريظ « رسالة المنبر الى الشرق العربي » [1] تأليف صديقي الاستاذ فليكس فارس « ولكنهُ وقف عند الاشارة الى ما هو في نظري — ونظري — « أمتع الفصول » في الكتاب « وأولاها بالمناقشة » . فجئت أكمل عمله

أن اهم ما في كتاب الاستاذ فليكس « منابت الاطفال » — ذلك الفصل الحافل بشتوع العلوم السياسية والاجتماعية والدينية ، المتأجج بنيران الغضب والتفجُّع ، المتلألىء بانوار متقطعة من انوار التصوف . وان فيه كذلك حملات على العلوم الحديثة ، والنزعات الحرة في اصلاح شؤون الانسان ، واستمرار رقيِّه في هذه الحياة الدنيا

في هذا البحث المستفيض علماً وشعوراً ، يعالج المؤلف « مشكلة من اهم مشكلاتنا الاجتماعية هي اصلاح الاسرة » . والبحث ذو شجون ، وذو فسحات للجدل والمناقشة . فهل يجوز ان يقف عنده المفرطون ساكتين واجفين ؟ هل يكتفون بتقديم الورد للاستاذ فليكس ، ولسان حالهم يقول : لغيرنا ان يقدم الاشواك — اشواك الحقيقة !

فلو قلنا كلنا هذا القول فماذا يحل بالحقيقة ؟ وحسبك أننا اختلفنا في أمرها فاتنا لم نُضيِّعوها في اهمالنا البحث عنها . هذا من الوجهة الطبية العامة . اما من الوجهة الخاصة الشخصية فاني أبوح بسرها . وهو ان للحقيقة هذه صلةً عقليةً بصداقةٍ قديمة ، ومنَّةً روحيةً على قلبين متجاورين متحابين

ألا ان فليكسْ لصديق عزيز قديم . وقد طالما تراقفنا في جادات العقل والروح ، واتفقنا بل كنا دوماً في طليعة الحملات ، حملات الحرية والعلم ، على معاقل الظلم والضلال

(١) راجع مكتبة المقتطف عدد يوليو ١٩٣٨

واني لارى فليكس اليوم في غير تلك الطلائع والحملات . اني اراه اليوم واقفاً في المؤخرة وهو يلتفت الى الوراء ويحنو بعض الاحايين الى جادات لا أثر فيها لقدم الحديث ، وللنزعات الفكرية الحرة . فكأني به يقول : اني في هذه الثمرات الاجتماعية ، والمفاسد البشرية ، أؤثر الرجوع الى الشرائع الالهية

فهل أصلحت الشرائع « الالهية » ما فسد من المجتمع الانساني في غابر الازمان ؟ وهل هذا الفساد الذي يعتري العالم اليوم هو الاول من نوعه في تاريخ الانسان ؟ وهل يجوز — وهل يليق بنا — أن نرجع القهقرى كلما « بعبعت » الايامُ علينا ، وكلما « كشرت » الشمس أمامنا والآفاق ؟

***

ليست الظلمات التي تنشر بها اليوم بظلمات جديدة . وليس فيها ، على تكاثفها ، ما يبرر الفجع والتلوع من أولي الفكر والحجى . ان ظلمات هذا الزمان لمثل ما تقدمها ، ولا تختلف بغير مقدارها وانتشارها . هي كثيفة كالحة . نعم . هي عاتية ، ولا ريب . ولكن في قلبها ، وعلى جوانبها ، يكمن فيض من النور الازلي ، وتشع منه ، هنا وهناك ، أشعة العلم والخير والحق الاعلى

وما تاريخ الانسان في نشوئه وارتقائه غير ظلمات تخللتها أشعة من النور . في دوائر الزمان يتثقف الانسان . وان كانت كل دائرة أشد هولاً مما تقدمها ، فالانسان كذلك هو أشد عزماً ، وأكثر علماً ، في مقاومتها والتغلب عليها

هي الظلمات تغشى العلم حقباً من الدهر ، فيتبعها ، بفضل العلم الدائم النمو والازدهار ، أحقابٌ من النور . بل ان القبض الثوري ليتسع ، بعد كل ظلمة ، ويزداد حرارة وتألقاً . كذلك كان ، وكذلك سيكون . هو الناموس الدائم للرقي البشري . هو روح التاريخ في هذا العالم عالمنا . واني ، مع عدد كبير من العلماء والمفكرين ، لمؤمن به كما يؤمن الناس بالكتب المقدسة

أما الرفيق النديم ، الاستاذ فليكس ، فهو على ما أرى من غير المؤمنين بإمامنا . هو من المؤمنين الاقدمين . أو انهُ عاد اليهم ، وهو ينفخ في الصور الذي نفخ فيه قديماً أشعيا وإرميا . فهل يداوي الانسان مرض يومه بمداوي أجداده امراض ايامهم ؟ هل يحيي المقروح حسنة ايوب ، ويصبح مثله ويبوح ؟ أفي الكتب القديمة — المقدسة — تلتمس الدواء لامراضنا الحديثة — لكل امراضنا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ؟ لست ممن يرون ذلك . لست من اصحاب السوداء والردات . حسبنا ان نعود الى التاريخ لنرى ما فعلته الاديان في أبنائها.

ومع ذلك فقد أدى كل دين رسالته في فترة من الدهر مقدارها الف سنة ، او ألفان من السنين. وبات بعد ذلك جاثما يابساً عقيماً ، لا يقوّم معوجّاً ، ولا يصلح فاسداً ، حتى ولا يسد فراغاً في العقل ، او في القلب ، او في الروح

ومن العبث ان نلجأ اليوم الى مهابط الوحي القديمة ، نحاول الاستنارة بنورها الضئيل — يشمسها الغاربة . لكل أجل كتاب ، ولكل كتاب أجل ، وعلى الاخص في ما يتعلق بالانسان الحر ، وبأسرته ، ووطنه ، وبزعاته العاطفية والوجدانية والفكرية . والانسان الحر رائد الناس

أما كتاب اليوم فهو كتاب العلم . ومن فروع العلم الحديث ، ان كان في تحسين النسل البشري eugenics او في تقييد birth-control فروعٌ صالحةٌ مفيدة ، هي آخذة بالانتشار يوماً فيوماً ، ولا حؤول في انتشارها . فان كان في انطلاق الغريزة الجنسية من قيودها ما سيُهلع لها القلوب ، فان في مجرد الانطلاق شيئاً من الخير . وسيكثر هذا الخير ، وستقل تلك المآسي ، رويداً رويداً ، كلما ازدادت فيوض النور التي تنبع الظلمات التاريخية

وهاك مثالٌ زماننا من هذه الظلمات ، او من تلك الفيوض النورية — كما تشاء . تقوم اليوم في بلاد السوفيات الروسية تجربة اجتماعية سياسية اقتصادية منقطعة النظير في تاريخ الانسان . ويجب علينا ان نصبر لنرى نتائجها . ليس من الحق ، ولا من العدل ، ولا من الحكمة ، ان نسارع الى شجبها ، او نحكم اعتباطاً عليها . فقد تكون في نتائجها أفظع التجربات ، وقد تكون أكثرها خيراً ونعمة . علينا ان نصبر . والصبر في مثل هذه الانقلابات الاجتماعية لا يحسب صبراً اذا قيس بالسنوات التي لا تتجاوز العشرين او الثلاثين عدّاً

على ان هناك ما يدعو للتفاؤل والاطمئنان ، وخصوصاً فيما يتعلق بشؤون الاسرة وتطورها فاذا قرأنا تشريع السوفيات في الزواج والطلاق ، وفي الامومة ورعاية الاطفال ، تيقنا ان أولئك المشترعين ليسوا من الشياطين او من الجن ، بل هم مثلك ، أيها القارىء الكريم ومثلي ، إنسٌ عقلاء بصراء ، ذوو مثل أعلى ، محبون للجنس الانساني ، غيورون — او غُيرٌ باللغة التي لا قياس لها — على خيره ، ومثابرون على العمل الذي يستقيم فيه ويدوم ناموس النشوء والارتقاء

***

أجل انهم ينشدون المثل الاعلى لخير الانسان في هذه الدنيا ، مثلك يا أخي فليكس ومثلي ، ويعملون لتحقيقه الاثمان الغالية ، مهما يكن من خلل فيها او شذوذ . وليس من الحق ان نشجب تلك الاثمان قبل ان نرى ونذوق ثمارها الناضجة . فلا تسرف ، يرحمك الله ، في التوجع والتفجّع . انا سائرون الى الامام على الدوام ، على الرغم من كل ما في حاضرنا من الفساد وعوامله ، ومن الردّات السياسية والدينية والاجتماعية

الاوبئة والتاريخ (١)

عنر البرنامه الفرماء

وفي القرون الوسطى والعصر الحديث

للاوبئة تأثير عظيم في التاريخ . فظهورها فجأة وعنفها وفتكها الذريع وما تتركه في نفوس الناس من شعور العجز ، كل ذلك يجعلها عاملاً من عوامل التفكك المعنوي وباعثاً من بواعث الانهيار في القانون والنظام

ومن المعروف ان قدماء المصريين والهنود والصينيين كانوا عرضة لبلايا الاوبئة . ولكن من بواعث الاسف اننا لا نستطيع ان نعيّن الامراض التي كانوا يبلون بها . اما الوثائق اليونانية فأدق . وفيها نستطيع ان نتبيّن طائفة من الامراض كانت تصيبهم ولا تزال تصيبنا . وقد اشار جاريسون Garrison في كتابه « تاريخ الطب » الى ان الجذام كان بينها ومن المحتمل السلّ

واول وباء جارف دوّن ذكره في التاريخ هو الوباء الذي وصفهُ المؤرخ الاغريقي ثوسيديديس في كتابه « حرب البلوبونيقة » . كانت الحرب ناشبة بين اثينا واسبارطة وكان قد انقضى عليها سنتان . وكان الجيش الاسبارطي قد اكتسح البلاد حول اثينا فاجأ السكان الى داخل اسوارها فاشتدّ بهم الزحام فتفشى بينهم وباء شديد وعجز الاطباء عن مكافحة داء جديد لا يدرون من طبائعه شيئاً فضاعت مساعيهم هباء وسلّم الاثينيون مصيرهم الى الاقدار

وكان المرض عندما يصيب احدهم يبدأ بشعور الحمّى في الرأس . ثم تحمرّ العينان وتلتهبان ويتبع ذلك عطاس متكرر ثم يخشن الصوت ويصبح صاحبهُ أجشّ . بعد ذلك يسقط المرض على الصدر فتأخذ المريض نوبات من السعال العنيف ثم الى المعدة فيصاب بالقيئان ، وكان معظم المرضى يصاب بالفواق او بالتشنج العنيف ، وكان التشنج قصير المدى في بعضهم وطويلهُ في البعض الآخر . وكانت درجة الحرارة ترتفع كثيراً حتى يعسر على المصاب ان يتحمل الملابس عليه او التدثر بدثار ما . وكان لا بدّ من استعمال وسائل المنع للحيلولة بينهم وبين الغوص في الماء البارد . وعلاوة على كل هذا كان الارق يصيبهم فلا يخلدون لا الى راحة ولا الى نوم

(١) موجز كتاب لرنمي بهذا العنوان تأليف اليبر كونا Albert Conat عن مجلة « ملخص العلم »

واذا استطاع المصاب ان يغالب هذه الاعراض ، انتقل المرض حينئذ الى اطرافه فتصاب الاصابع واليدان والقدمان والعينان بالفتغرين . فاذا شفي احدهم كان يشق وقد فقد نعمة الذاكرة . ولما كان السكان يجهلون سبب تفشي المرض واسلوب انتقاله ، كانوا يجتنبون بعضهم بعضاً ويتحامون عن اسعاف المصابين حتى الطيور من أكلة الجيف كانت لاتقارب جثث الموتى

إن اطباء العصر الحديث غير مجمعين على صفة مرض هذه اعراضهُ . ولعلَّهُ مرض زال الآن ، او لعلَّهُ حمى التيفوس تصحبها امراض أخرى او قد يكون الحمى الشوكية او الحمى القرمزية او الحمى الصفراء او الجدري . وقد بحث الاطباء جميع هذه الآراء . ثم أضاف اليها الدكتور بيتو Betau حديثاً رأيهُ في ان هذه الاصابة كانت حمى الدنغ وقد ضاعفتها الاصابة بالجراء

***

أما صفحات تاريخ القرون الوسطى فحافلة بذكر الالم واليأس . فالمجاعات المخيفة والامراض الجفية كانت تصيب الناس فتبدِّد شملهم وتنزل بهم الى وهدة القبر . وكانت أوبئة الحصبة والجدري تناهبهم . بل ان الجذام تحوَّل وباءً فأصيب به ألوف من الساكنين . وجاءت غزوة العرب لاوربا الجنوبية الغربية معواناً على اثارة هذا الداء الذي أكثر ما جنوب غرب اوربا خاصة ، بل لقد كان الجذام يعرف في تلك المنطقة من أوربا باسم « الداء العربي » . وكانت الصلات التجارية في البحر المتوسط وسيلة من الوسائل المتعددة لنقل العدوى

وهناك مرض آخر كان ينتشر حيناً بعد حين فيترك في أثره الموت والخراب والقنوط وكان يوصف بانه « النار المقدسة » او « نار الجحيم » . ظهر وانتشر في أوربا في القرن العاشر والحادي عشر والثاني عشر ، فتك بالناس فتكاً ذريعاً . وكان المصابون به ، تأخذهم حرارة داخلية لا تطفىء . ثم كان بعض الاعضاء يسودُّ وينفصل عن باقي الجسم ، فاذا ظلَّ المصاب حيًّا عاش بقية حياته عيشة ويل ويأس

وقد روى أحد المؤرخين ان هذا الداء حصد ٤٠ الفاً في بضعة أيام في اربع من الولايات الفرنسية

***

أما الحروب الصليبية فقد فتحت أبواب أوربا للجرذ . فعلى الرغم من البحث المدقق في آداب اليونان والرومان القديمة لم يعثر الباحثون فيها على اشارة واحدة الى الجرذ ، ولعلَّهُ كان يعيش بريًّا في صحاري مصر وبلاد العرب . وبهذا يفسَّر عدم اتصاله بأوربا عن طريق السفن التجارية ، او عن طريق غزاة العرب لاوربا

وكان الجرذ الاول الذي وصل الى أوربا هو الجرذ الاسود . فهو حيوان يحب التسلق

ولذلك كان يسهل عليه ان يتسلق الحبال الى السفن الراسية . وقد شوهد في اوربا اولاً في القرن الثاني عشر ، فما انقضى القرن الثالث عشر على ختامه حتى كان قد انتشر في ارجاء اوربا . ولم يكن معروفاً حينئذٍ انهُ من نقلة مرض معدٍ ، ولكن سطوه على الحقول في ايام الحصاد وعلى الاعراءات جعلتهُ شرًّا ونكبة على الاهلين فكانوا يعمدون الى الصلاة والضراعة للتخلص منهُ ونشأت بينهم حرفة جديدة هي حرفة «صائد الجرذان» . ولكن الضراعة عجزت عن ردّ شرّه ، وكذلك تحترفو صيده

ولكن ماعجز عنهُ الانسان حققهُ حيوان آخر هو الجرذ الاسمر . فهو أصلب بنية وأشد شرهاً من زميله الاسود ، جاء على ما يلوح من قلب آسيا وأخذ ينتشر في اوربا في القرن الثامن عشر . ففي سنة ١٧٢٧ اجتازت طوائف كبيرة من الجرذ الاسمر نهر الفولجا بروسيا ، ووصلت اميركا حوالي سنة ١٧٧٥ وانتشرت فيها . وفي اقل من قرنين كانت هذه الجرذان قد طوقت الكرة الارضية . الاَّ المناطق القطبية . وكان من نتائج انتشارها انقراض الجرذ الاسود الاَّ جماعات صغيرة منه ظلَّت مقيمة في اماكن لم يبلغها الجرذ الاسمر

وخطر الجرذ في نقل الامراض المعدية ، أعظم جدًّا من خطره في السطو على الغلال . ومن الامراض التي تنتقل بواسطة الجرذان الطاعون الدمّلي (الذي وصف في القرون الوسطى باسم « الموت الاسود ») وحمى التيفوس والكلَب وبعض الامراض الناشئة عن سيكروبات لولبية (spirochetes) . ولعلها تنقل « التريخينوسيس » كذلك

ويذهب المؤرخون الى ان وباء الطاعون الذي تفشّى في القرن الرابع عشر كان أعظم الاوبئة في التاريخ وأشدّها هولاً . وهو هذا الوباء الذي يشار اليهِ في كتب التاريخ والادب باسم « الطاعون الاسود » و « الوباء الكبير » و « الموت الاسود » . فقد بدأ في شمال الصين في سنة ١٣٤٦ حيث فتك بثلاثة عشر مليوناً من الناس في أقل من سنة . ثم أخذ ينتشر متجهاً الى اوربا — مسايراً طرق التجارة . فحصد سكان البلدان الواقعة على مسيره حصداً . ويقال انهُ فتك بالسواد من الناس في المنطقة الواقعة حول دمشق وأورشليم . والمرجح ان عدد ضحاياه في آسيا كلها ما عدا الصين . بلغ أربعة وعشرين مليوناً . وأصيبت بهِ جميع جزائر البحر المتوسط . ولم يبقَ من سكانه في جزيرتي كورسيكا وسردينيا سوى ثلث السكان . ومات بهِ أربعون الفاً في جنوى . ومائة الف في البندقية . وثلث سكان بادوى . وكان يموت بهِ الفان كل يوم في بولونا وفرارا . ثم غزا المانيا فبلغ ضحاياه فيها مليوناً وربع مليون . وفقدت بهِ بولندة نصف سكانها

وتفشى في فرنسا تفشياً ذريعاً . فمات بهِ في مدينة اڤينيون وجوارها مائة وخمسون الفاً في سبعة أشهر . وخسرت مدينة آرل نصف أهلها ومرسيليا ثلثيهم . ثم تخطى البحر مع الجرذان

والسفن الى انجلترا فبلغ في عنفه درجة لم يسمع بمثلها حتى ليزعم بعضهم ان عشر سكانها فقط نجوا من فتكه . ثم انتقل الى النرويج حيث حصد ثلثي السكان . وأما اسكتلندا فكاد ان يفتك بجميع سكانها ، وما زالت اسكتلندا عاجزة عن استرداد ما فقدته به من اقبال ورخاء

لسوق هذه الارقام على وجه التقريب . ولكن جميع المؤرخين مجمعون على ان وباء الطاعون الكبير فتك بثلاثين الى اربعين مليوناً من سكان أوربا . فاذا أضيف الى ذلك عدد ضحاياه في الصين وسائر القارة الاسيوية بلغ عددهم من ٧٠ الى ٨٠ مليوناً . كان بينهم الغني والفقير ، والنبيل والفلاح — وقد كان من ضحاياه ملكة نافار شقيقة امبراطور المانيا ودوق برغندي وملكة فرنسا وملكة اراجون وملك قشتالة

وصحب الطاعون الاسود ، وتلاه انحلال اجتماعي اضيفت آثاره الى ويلات المرض والموت . فقد كانت الجماهير تلاحق الاطباء الذين يعنون بالمرضى وترجمهم بالحجارة ، خشية أن تتصل بهم العدوى من الاطباء . وليس بالنادر أن نجد الوباء عاملاً حاسماً في حروب ذلك العهد . ففي انكلترا خلّف آثاراً من الاضطراب والقلق دامت سنين كثيرة وبلغ من كثرة الماتين به ان قلت اليد العاملة وارتفعت الاجور ارتفاعاً فاحشاً . اما عند صغار الفلاحين فقد كان الوباء مرادفاً للخراب علاوة على الموت . وبتجدد ظهور الوباء في سنة ١٣٦١ و ١٣٦٩ و ١٣٧٣ زاد الاضطراب الاجتماعي وتفاقم

***

وقد صحب رحلات الريادة في القرن الخامس عشر ، تفشي اوبئة كثيرة . فقد ظهرت الحمى الصفراء في عهد رحلة كولومبوس الثالثة ، فأصيبت بها الجاليات التي انزلها لاستعمار جزائر بحر كريب وفتكت بها . وكان اللون الشاحب الذي يبدو على وجوه المصابين ، يبعث الرعب في قلوب الاسبان عند رجوع المصابين الى وطنهم . ولم ترحم هذه الحمى سكان البلاد الاصليين . ولكن الامراض التي انتقلت اليهم مع الاوربيين كانت اخطر شأناً واشدّ فتكاً . فالسلّ حوّل تلك الجزائر قفاراً وحمّى التيفوس كانت تحصد الهنود الحمر بالالوف

وكان المرض والوباء كانا يسيران في اثر الروّاد الاسبان واتباعهم من المستعمرين . فأصيبت جميع المستعمرات بأوبئة مختلفة . وبلغ عدد الماتين في جزيرة هايتي مبلغاً جعل دفنهم متعذراً . فقد حصدت الجدري منهم نحو ثلاثمائة الف في بضع سنوات . وانتقلت الجدري مع الفاتح كورتيز الى المكسيك ففتكت فتكاً ذريعاً حتى لم يبق من الفلاحين من يكفي لحرث الارض وزرعها فمات كثيرون جوعاً وغدت امبراطورية « الازتيك » مقبرة واسعة . اما وباء الجدري الكبير الذي تفشى سنة ١٥٢٠ فقد قضى على ثلاثة ملايين ونصف مليون اي نصف السكان

ومع ذلك لم يكن هذا الوباء اعظم مصائبهم . ذلك بان مرضاً جديداً ظهر سنة ١٥٣١ منقولاً مع الغزاة . وهو مرض الحصبة . ثم في سنة ١٥٤٥ ظهر مرض دعاهُ اهل البلاد « ماتلازهوات » . ويقال انهُ حصد ٨٠٠ الف والغالب على الظن انهُ الجدري . ثم تفشى وباء الجدري ثانية في سنة ١٥٧٦ فات بهِ ما لا يقل عن مليونين

***

وقد كانت رحلة كولمبوس الاولى ذات شأن كبير في تاريخ أوربا . فهي لم تفتح بلداناً جديدة فيها حيوانات ونباتات غريبة فحسب، بل كانت سبيلاً الى نقل جراثيم الزهري (الحلق السفلس) من العالم الجديد الى العالم القديم . ويقال ان انتشار الزهري في أوربا يرتدُّ الى بحارة كولمبوس الذين أصيبوا به خلال اقامتهم بين الهنود الحمر في هايتي . وكانت غزوة الملك شارل الثامن الفرنسي لايطاليا سبيلاً من سبل نشر هذا المرض. ففي اثناء حصار جيشهِ لمدينة نابولي ظهرت بوادر ذلك المرض الذي أرعب أوربا

وكان مرض الزهري حينئذٍ على جانب من العنف والحدَّة لا يقرن بهما الآن . فكان المصاب تعتريهِ القروح . وكان المرض شديد العدوى . وبعد ما أخذت مدينة نابولي تفرَّق الجيش الفرنسي ناشراً عدوى الزهري في ايطاليا ومنها انتقلت الى فرنسا فالمانيا وانكلترا . وكان الاطباء عاجزين عن وقفهِ ، فوصفهُ الفرنسيون حقاً منهم بقولهم انهُ « مرض نابولي » حالة ان الاسبان والايطاليين وسواهُ « بالمرض الفرنسي » (١)

وانتشر الزهري بسرعة عظيمة ، فعزيت طريقة انتقالهِ الى الهواء والماء والنَّفَس (٢) . وعمد الناس الى العطور للتغلُّب على الروائح الكريهة التي تنبعث من قروح المصابين . وأقفلت الحمامات العامة . وكان من آثاره الاجتماعية انَّ تأثير الزهري في احداث الصلع حدا بالناس الى ارسال شعر الرأس واللحى والشوارب ، فغدا كل من يظهر في المجتمعات العامة وشعره غير مرسل تحوم حولهُ الريب في انهُ من المصابين

(١) جاء في كتاب الشياطين والعقاقير والاطباء Devils Drugs and Doctors تأليف هجارد صفحة ٣٤٠ ما يلي : وكان الاسبان يدعونه مرض نابولا والايطاليون المرض الفرنسي والفرنسيون المرض الايطالي والانكليز أسموه الى الفرنسيين وكذلك الترك . واما الروسيون فسموه المرض البولندي والهنود واليابانيون المرض البرتوغالي

(٢) يقول هجارد . واتهم الكاردينال ولسي بأنه ينقل عدوى الزهري الى الملك هنري الثامن بهبته لي أفنه . ومن المؤكد ان هنري الثامن كان مصاباً به والغالب ان عدواه به ترجع الى مصادر غير كلمات الكرديتال . وفي سنة ١٤٩٧ صدر قانون في فرنسا يحظر على المصابين به التحدث مع الناس تحت عقاب الاعدام

والكوليرا مرض قديم الانتشار في الهند . ولكنهُ امتدَّ في سنة ١٨٣٤ الى أوربا وسقطت اولى ضحاياهُ في باريس في ٢٢ مارس من تلك السنة . ثم ظهرت اصاباتها فجأة في مناطق مختلفة من العاصمة الفرنسية ثم انتشرت انتشاراً سريعاً في أوربا فاتت بها نحو مليون نسمة — ٤٠٠ الف في روسيا و ٣٤٠ الفاً في النمسا و ١٠٠ الفاً في أسبانيا و ٩٥ الفاً في فرنسا . ثم تفشى وباء الكوليرا في أوربا في سنة ١٨٤٧ وسنة ١٨٥٦ وكان ضحاياها اكثر من ضحايا وباء سنة ١٨٣٢ وكان آخر وباء كوليرا تفشى في أوربا وباء سنة ١٨٩٢ . وكذلك ظل هذا المرض خلال قرن كامل تقريباً يثير الرعب في نفوس الناس حتى نسوا ويلات الطاعون الدملي لشدة ما بلوا به منهُ

وقد كان الخوف من الكوليرا الباعث الذي حمل الناس على المطالبة بانشاء المجاري العامة وشتى الاعمال الصحية . فأعمال الصحة العامة في اوربا وأميركا هي وليدة هذا الخوف . ولا ريب في انها أثرت تأثيراً لا يسرف مدّاه في اساليب معيشتنا وطرائق عمارتنا وأفضت الى انشاء صناعات جديدة . ونشبت الحرب الكبرى على اثر فترة من السلام رانت على اوربا ، كان اهم سماتها التقدم العلمي العظيم . وغلب الظن بأن العلم تغلب على الاوبئة التي تنبئنا بها صفحات التاريخ . ولكنَّ وباء الانفلونزا تفشَّى في بدء سنة ١٩١٨ في الولايات المتحدة والصين ثم اتصل بفرنسا بعد اشهر فانتشر اولاً بين الجنود ثم بين عامة الشعب . وقد بلغ عدد ضحاياهُ في موجاته الثلاث المتوالية نحو عشرين مليوناً من الناس

***

وفي أثناء الحروب البلقانية عادت الحمى التيفوسية الى الظهور . ثم انقضت تلك الحروب ولكن شأفة المرض لم تستأصل من النمسا والمجر وبولندة وروسيا فلما نشبت الحرب الكبرى وعفت الجيوش الكبيرة عادت التيفوس الى الانتشار وكان اول مراتب انتشارها أمعر المعربين لستين الفاً من جنود النمسا فظهرت الحوادث الاولى في احد معتقلات الاسرى ثم انتشرت في الشعب . وعندما كان المرض على أشدّه كان يموت به سبعون في المائة من المصابين ثم بدأ انتشار المرض في الانحطاط في صيف ١٩١٥ ومع ذلك فالذين أصيبوا به بين يوليو وديسمبر من تلك السنة كانوا ٥٠٠ الف مات منهم خمسهم (٢٠٠،٠٠٠)

وظهرت حمى التيفوس في رومانيا في سنة ١٩١٧ فات بها مائة الف بحسب الاحصاءات . ولكن اشدَّ فتكها كان في روسيا حيث اجتمعت مع الملاريا والدوسنطاريا وحمى التيفود والحمى القرمزية والجوع وسوء الحالة الصحية في نشر شياطين المرض والموت : وقد صدر تقرير في سنة ١٩٢٢ جاء فيه ان ٢٥ مليون اصابة بالتيفوس سجلت في روسيا في السنوات الاربع السابقة مات من اصحابها ثلاثة ملايين

آلية الفن

اتجاهات العصر في الآداب والفنون

لزكي النجيب الفاروقي

مرفوعة الى استاذي صاحب «المصور» : اسماعيل مظهر

١ — تمهيد

أصبح الايمان بالنشوء والارتقاء في عصر المدنية الحاضرة ، من المبادىء العميقة التأصل ، التي تخضع لسلطانها جميع الكفاءات العقلية بما شيدته من الحضارات منذ بدايتها الفطرية الاولى ، التي خرج منها الانسان حيواناً منحط الصفات ، دنيء النشأة ، ماضياً في سبل الارتقاء ومدارج النشوء ، الى ان بلغ الى هذه المدنية التي توشك ان تكون عصر انقلاب وثورة لم تبلغ بعد منتهاها. انتقل فيها الانسان من وداعة القرون الوسطى ، التي كانت آخر حلقة من حلقات الحياة الهادئة ، الى هذه الحياة من المدن حشدت فيها النفوس حشداً ، وتنازعت جوها نواطح السحاب المتنصبة كرؤوس تائرة من الجن وسط دخان المعامل القاتم !

تعتبر مدنية الآلة عصر انقلاب في تاريخ البشر ، فما يلابس هذه الفترة التاريخية من ظواهر تجمع بين الحياة الهادئة ، الخالية من ضجيج المعامل ، المنبثة في تضاعيف عقليتها غرارة الفطرة الاولى ، الى الحياة في اميركا وغرب اوربا ، وأصل ثقافتها العلم اليقيني ، وقوام حضارتها الآلة

وقد تناول عامل التطور في هذه الربوع التي أثمرت فيها المدنية جميع نواحي الحياة السابقة ، فنشأت الى جانب حضارة الآلة ثقافة تسابر في حيويتها ما يفرع اليه عصر المادة من الصور

فان كان للناس قبل أن يخلقوا الانسان الثالث[1] موسيقى ، فلهم اليوم موسيقى ، وان كان لهم أدب فلهم اليوم أدب ، وإن خلفت قرائحهم على مر العصور ثروة فنية في لوحات رفائيل وميكل انجلو وأضرابهما ، فللعصر الحاضر رسومه ولوحاته التي وقعت عليها أيدٍ تود من السرعة لو تنطلق في حركة آلية صماء

(١) الانسان الصناعي « روبوت »

—٢—

إن في الثقافة الاشتراكية الحديثة أوضح مثال للفن الآلي ، المنبثة في تضاعيفه روح المذهب المادي . تتبين هذا واضحاً في الموسيقى والرقص والأدب والرسم والنقش جميعاً

في روسيا السوفياتية مُحيت جميع صور الثقافة الاوربية ، لتحل محلها صور اخرى تستمد روحها من روح الآلة ، التي يُرمز اليها كأبعد مدى وصلت اليه عوامل الرقي البشري منذ العصور المظلمة . وتعتبر كأساس لمدنية المستقبل المثالية ، التي تراود عقول العلماء كحلم غامض في حياة يسودها السلام ، ويتخلص فيها الانسان من أوشاب الفطرة وغرارة الوحشية الاولى ، ليشيد صروح مدنيته الخالدة على أساس علمي، يلوح عصرنا ومدنيتنا الى جانبها كما تلوح غرارة الانسانية الاولى الى جانب مدنيتنا الحديثة

يرجع أساتذة الثقافة الاشتراكية في روسيا إلى أن الفن السائد في الغرب ، إنما أله صبغة رأسمالية تعزز الفردية الاستقلالية وهذا يناقض في جوهره فلسفة الاشتراكية من حيث فناء الفردية الذاتية في الضمامية التي يمثلها « الكائن الاجتماعي »

ويرون ان ألحان الموسيقى التي تتناوح بين جدران الرأسمالية البرجوازية ، تُستقطر من أدوات تساعد على تكوين الشخصية الفردية، او ترمز اليها . إذ أن موسيقيًّا فرداً يستطيع أن يستوحي «البيان» مثلاً نغمات عذبة دون الاشتراك مع عصبة لاتتم عمل فرد فيها وجده . ثم ان حلقات الموسيقى في المسارح والاندية ، وبيوتات الآلية الحاكمة تغري المرء بالترف ، تساعد على رفاهية « الطالحين اجتماعيًّا » ! لذلك ابتدع مجمع موسكو الموسيقي أسلوباً حديثاً يساير روح الاشتراكية ، ولا يناقض نظرية « الكائن الاجتماعي » . وذلك بأن أُلِّفت أنغام الوحدة الموسيقية من أصوات اشبه شيء بصفير البخار ، ودحرجة العجلات ، وطنين المعادن في معمل من المعامل التي ترصع انحاء المدينة

وبوجهة النظر نفسها الى أساليب الرقص ، استنتج النقاد انهُ لا يجب ان يشذ عن قاعدة الآلة ، او تتميز به الروح الفردية . ولدى وضع خطوات الرقص وحركاته ، روعيت في ذلك حركات مختلف أجزاء الآلة الميكانيكية ، التي ان تحركت فيها قطعة منفردة لم تأت بنتيجة ما . فهذه حلقة الرقص ، وهنا رمز المكبس ، وتمثيل للعجلة ، وأشارة الدفاع ، وتقليد للبندول . وهكذا[1]

وبهذا تفادى أولو الامر وجود أي عنصر برجوازي نبيل ، وانما هو جو يلائم ما ينطبع في عقل العامل من صور الآلة والمعمل الذين يحملان طيها بدور العصر الذهبي

هذه بدعة جديدة لما يمرها من تطور الموسيقى والرقص في سائر مدن أوربا وأميركا .

(١) Read Filip Miller : The Mind and Face of Bolshevism, New-York City. Alfred. A. Knopf. 1928

إذ ان كلا الفنين قد بلغ من التطور درجة أصبحت فيها صورها أسرع وأبعد عن هدوء الطبيعة الذي تطالعهُ في ألحان شوبير وموزارت وبتهوفن مثلاً . يقول الفيلسوف عمانوئيل كانت : « ان أوجه التقدُّم كلما ازدادت سرعة قصرت صورها » [1] وهذا صحيح بالنسبة للتيار الذي ينحى على في الموسيقى والرقص في الغرب . ونعتقد ان مصير هذين الفنين قد توجههُ خطا التطوُّر على مرِّ العصور — اذا توغَّل الانسان في أغوار هذه المدنية الآلية الغربية — الى نفس التوجيه الذي يحاول علماء روسيا التكهن بهِ في صورة حتمية قبل أوانه ، سابقين في ذلك عوامل النشوء الطبيعية ، شأنهم في اصلاحاتهم جميعاً

غير انهُ لا يغرب عن بالنا أثر السياسة في هذا التوجيه . فمن الواضح الجلي ان زعماء الاشتراكية الحديثة في روسيا قد طفوا على الفن يتخذونهُ ذريعة للدعاية ، وأسلوباً يعمدون بهِ للثورة العالمية التي يعتبرونها خير وسيلة لاحداث الانقلاب الصناعي في تاريخ البشر ، والوصول الى عصر تسود الاشتراكية فيهِ بني الانسان وتمتد خطاهم الى آفاق العصر الذهبي ، وتحقق الجنة الدنيوية على الارض ، تلك التي وعدتنا بها شرائع السماء في الحياة الاخرى .

فلندع الآن إصلاحات نقاد الفن وأساتذته في الروسيا في كل من النقش والرسم والبناء اذ انها وثبات أولية لم تؤت القوة التي تستطيع بها أن تنهض الى جانب ما شيده الانسان منذ فجر التاريخ في هذا الحقل . أما أثر السياسة في هذه الحقول فيبيِّن الغرض منهُ عزل روسيا عن مدن العالم ، وتغذية العامل بلون واحد من ألوان الطعام . ولا يخفى ما ينتج هذا التحديد في آفاق الحياة العامة من تعصب وضيق في وجهة النظر قد يرجع بالاتحاد السوفياتي الحر الى تمثيل نفس الدور الذي لعبته محاكم التفتيش والسلطات الكنسية في القرون الوسطى ، أو اعادة مظالم القيصرية التي لم يمض على محاربتها ربع قرن

ولنتوجه الآن شطر الغرب قليلاً ، لنقف على وجهة القوم في الادب

— ٣ —

يقال في تعريف فن الادب انه ضرب من ضروب التعبير عما يجيش في صدور مؤلفيه من شعور مهم ، وبذا يشابه بقية الفنون حين يلجأ الى التعبير بها عما يجد من شعور . وهذا التعريف يقودنا الى العنصر الذاتي « Subjectivism » الذي نشأ منهُ المذهب الابتداعي « Romantic » وعكس ذلك أن يقال في هذا الفن انه وسيلة تؤدي فكرة الى القارىء وهذا هو الجانب الموضوعي من الادب « Objectivism » الذي نشأ منهُ الاسلوب الواقعي « Realism » [2] وهو المذهب الذي طغى على رومانيكية القرن الثامن عشر ، متسلحاً بمبادىء العلم اليقيني ، خاضعاً

(١) مقدمات المدنية الحديثة : ٤ مباحيل مطور صفحة (٢) Lascelles Abercrombie : Criticism

لقواسر الرقي والنشوء ، متخذاً صبغة علمية خالصة عندما ظهر في أفق المعارف العامة علم النفس الحديث في مستهل هذا القرن. وسنرى في هذا البحث تطور الادب في الغرب ومركزه في هذه المدارس الاسلوبية في بعض أدوار الفن في اميركا وأوربا

يعرف علماء النفس اللغة بأنها أصوات حيوانية تصدرها الحنجرة اذا ما تأثر المتعضي [١] بأي مؤثر جسدي كالالم واللذة ، والخوف والغضب ، والحب والكراهية [٢] وبدون استكشاف طرق التفاهم بالكلام تطوراً كبيراً ، وحادثة من الحوادث التي وضعت حداً فاصلاً بين عهدين متباينين ، سرّ بها الانسان في سرى تطورات الفطرة الرسيمة في أعماقه

والانسان انما يسجل فيما ينتج من الأدب أفكاره بالنسبة الى حالات جسمه ، وصفاته الطبيعية ، وليس في مقدوره ان ينظر في ظواهر الكون ونظامه نظرة موضوعية خارجة عن حواس الذات البشرية . اذ ان كل تعريف تنتجهُ قرائح المفكرين ، انما يعرف أصدق تعريف ذاتيتهم التي لن يستطيعوا أن يتنكروا سبيلها ، لانها متغلغلة في تضاعيف كيانهم البشري

بهذه النظرة الموضوعية [٣] أجرى العلماء عدة تجارب على الحيوانات وانتهوا الى ان كل بادرة عقلية ، انما هي انعكاس ذاتي ، ورد فعل لتأثر الحواس باحدى المؤثرات الخارجية [٤]

وهكذا تهدم هذه النتائج العلمية العقائد السائدة حول الوحي والالهام ، وتردها الى حظيرة التفسير المادي ، التي يدخل ضمنها كل تهيج روحي او وحي مما فوق العقل ، فقد يكون سببهُ وضع خاص يتخذه الجسم أو حالة معينة يتأثر بها الجهاز العصبي ، وتعيها الحواس . وينبئنا العلم بأنهُ في الامكان أن تساد هذه الحالة الروحية ، التي يعتقد السواد الاعظم انها هبة تخضع لمشيئة الآلهة ، أو عوامل المصادفة بواسطة هذه المؤثرات التي يصبها عالم « الموضوع » على عالم « الذات » ! [٥]

فان كان هذا حقاً ، فالادب لم يعد وجياً تلهمهُ السماء بضعة نفر من الناس ، وانما هو — الى حدٍّ ما — علم له قواعد ومهيجات يُلمّ بها الطالب في دراسته كأسس تستمد عناصرها من « الفسلجة » Physiology ، فما هي الا أن يعي الطرق التي يسيطر بها على حالات جسمه ، لينبه بهذا

---

(١) المتعضي هي الكلمة التي وضعها الجسم القوي لمعنى عضوي

(٢) The Mind and Face of Bolshevism. P. 231. New—York 1923. Published by Harper & Brothers N. Y. & London.

(٣) نستعمل كلة « موضوعي » هنا استعمالا فلسفيا نعني به العالم الخارجي ، دون ان يكون لذات الانسان او ميوله علاقة به . ومن الواضح ان استقراء الحقائق الموضوعية ممكن في التجربة والمشاهدة ، وقد نقنا انه عسير الى حد الاستحالة في الاستنتاج والتفكير المجرد

(٤) لا يكاد يخلو كتاب في علم النفس من أمثلة التجارب على الحيوانات وخاصة الكلاب . أما صاحب هذه التجارب فهو بالوف فالبا . وهو عالم روسي توفي منذ سنتين تقريبا

(٥) Ways of Behaviorism. John. B. Watson. Ch. 3.

التفاعل المادي الصفيق ، وحي الشاعر الكامن في اعماق روحه الهاجعة . فينتج أني شاء وكما يشاء !

قد تلوح هذه النظرة المادية في الادب حقيقة علمية لا سبيل الى نقضها ، ورغم انها لا تزال بعيدة عن حيز التجربة الموضوعية المتقنة — شأن كثير من نظريات علم النفس الحديث — الاّ ان كثيراً من التجارب النفسية الحديثة تعزز وجهة نظر أصحاب هذا المذهب المادي مثل السلوكيين Behaviorists الذين ينكرون وجود العقل والارادة واللاشعور وغيرها مما عجز العلم بوسائله المعروفة عن إثبات وجودها ، فاعتبرها فرضاً ضرورياً . وهم يفسرون التفكير مثلاً بأنهُ اهتزاز دقائق اللخ المادية ، يشترك فيهِ المجموع العضلي كلهُ ، كعضلات الحلق والصدر والرجلين [1] وهذا حقيقي بالمشاهدة والاختبار

في هذا الوقت الذي يكتسح فيهِ تيار العلم حظائر الادب ويكشف بأعاصيره الستائر عن الشعور وحقيقة الاهام ، نجد ان الكثرة المطلقة من الشعراء لا تزال تعتقد بالوحي الشعري ، وتناضل عن هذا الرأي ، ولا تجد الغضاضة الذليلة بأن ترضى قانعة بعشيقة المصادفة والوحي

على ان الادلة قد توافرت وأثبتت التجارب بأن الشعر الذي يبلغ المنزلة الرفيعة من الجودة الفنية ، التي تملي على القارىء أثر الاحساس النفسي ، انما هو في الحقيقة من جهد التفكير العميق ، والارادة الدائبة ، فنحن نخطىء كثيراً إن حسبنا أن الشعر وحدة تخضع لشياطين الشعراء ، وموهبة لا تسيّرها مؤثرات العقل والجسد

ولقد يكون من الخير أن نلزم الصمت ، لنقتل رأي كاتب فرنسا الكبير بول فالري ، عضو المجمع الفرنسي ، في فقرات من احدى محاضراته النفيسة . قال شاعر فرنسا الكبير :

« ينظم الشاعر حين يفيض قلبه ، ويمتلىء صدره ، فينطلق لسانهُ ويقول شعراً . ولكم وددت أن يكون هذا الرأي الغطير صحيحاً سديداً . إذن لتحمّل الشاعر تكاليف الحياة ، ورضي المحبور الشقاء ، ولكثرت الترجمة الفنية قد تبلد وتظلم حتى لا نعي امراً ، ولا نطق حرفاً . فمن يقول هذا الرأي الغرير يخضع الشاعر لسلطان الندر العابث . وكذلك يغدو الانتاج الشعري مرهوناً بالمصادفة المواتية والنسمة المشرقة ، أو متصلاً بالوحي العالي والموهبة الخارقة . ولست أعلم افتئاتاً على حرمة الشاعر واستهانة بكرامته كهذا الرأي العاثر ، يجعله منفعلاً لا فاعلاً ، وحاكياً أميناً يقول ما يلقى اليهِ من الكلام ، فان كان شراً قالوا هذا من عنده ، وان كان خيراً قالوا هذا من عند الله !

« لقد يمتاز الشاعر من بين الناس كافة بحظوظ مشرقة خاطفة تعصف بذاته وكيانه عصف الريح بفروع الشجر ، فتفتح لديه خنادق نفسه ويطل على دنياه الكامنة ، ويلمح عجائب الروح

(١) Ways of Behaviorism Ch. 2.

تلك لحظات ثمينة تضيء ما اختبأ بين اللحم والدم ، ونبعث من المعاني والصور ما لا يفهمها او يقدرها الا الشاعر وحده ، لانها مختلطة بأوضار المادة ، صادرة عن اسرار الظلام . وهي معان وصور لا تثبت للنطق الظاهر ، ولا تلين للبيان الشعري . وكل ما في الامر انها قطع تنثر من أعماقنا على حالها الطبيعي ، كما تنثر الاحجار الكريمة من جوف المركان . ولقد ينبغي أن نطرح الاوشاب ، ونحتفظ بالعنصر الصالح ، لنذيبهُ في قالب جديد ، ونقدمهُ جوهرة خالصة للناس

« فالذين يؤمنون بالوحي الشعري يقولون العمل والابداع ، ويرتفون بالشاعر وسيطاً تملي عليه القدرة ما تشاء من ضروب القول ، وألوان المطالعة . وما لمثل هذا يُسخَّر الفن . . . ويخلق الشعراء ! » اه [1]

— ٤ —

يبني العلماء على النظرية المادية السابقة في الادب ، نتائج لها خطورتها وقيمتها الادبية . فإن مجاراتنا عما يتولد من أصحاب هذه النظرية بالدين ! . . ألفينا العلم على الضفة الاخرى ، ينبئنا بأنهُ يحسن بالانسان المتمدن — حين ينشىء صور جديدة من الحضارة — ان يجدد اللغة التي يقيدها كرُّ العصور ، ليساير موكب التطور والارتقاء ، السائر بخطى سهلة خفيفة ، وليسهل لنشوء وحدة ثقافية تتناصر مع صور الحضارة المادية في بناء مدنية كاملة باقية [2] . وقد يلمس هذه الحاجة الاقوام الذين يعيشون في مجتمعات تختلف اختلافاً كلياً عن بيئات أجدادهم الذين ورثوا منهم اللغة فيما ورثوا من اسباب الرقي

وتجديد اللغة انما يكون بطرح الالفاظ الميتة ، التي كانت تعني شيئاً لدى اجدادنا بحسب مقتضيات مدنيتهم ، واستبدال بها ألفاظ تتحت بمقتضى حاجات العصر ، وتعني لاهله شيئاً بحسب ما يشعرون . ولا نذهب في تحديد الطرق لنحت الكلمات او وضعها وترجمة المصطلحات العلمية ، فهذا من شأن المتخصصين . وانما يشعر بهذا النقص في مستهل نهضة الشرق الحديثة ، كل من حاول ان يترجم عن إحدى اللغات الاوربية الحية كتاباً في الفلسفة او علم النفس او علم النبات او علم الحياة ، الى غير ذلك من فروع المعرفة الانسانية ، التي يعتبرها العلماء وحدات عضوية تخضع لناموس النشوء والارتقاء بمعنى نشوء فروع جديدة من المعرفة على مرِّ الزمن ، وتطورها الى حالات من التنافر والتغاير الجزئي ضمن نطاقها المتحد . اما بقاء اللغة بمفرداتها على سير الزمن ، فشكل من اشكال النبات الذي لا يتفق مع طبيعة الحياة المتحولة ابداً

فكل نظرة لا تعتبر اللغة كائناً حيًّا قد يتحلل ويذبل اذا لم تعده على الدوام بدم فني جديد انما هي عامل تقهقر رجعي يعوق سير الرقي ، ويذر اللغة كالمرآة الصدئة قد خط عليها الزمن

(١) مجلة الرسالة عدد ٩٤ The Mind and Face of Bolshevism. Ch. 6.

أشباح الماضي الجامدة ، فهي مرتسمة عليها لا يريم ، تنعكس في كل عصور التقدم صورة واحدة للعصر الذي نشأت فيه . فكأنما تكيفت أطرافها وغاصت حيويتها

وقد أدرك علماء الغرب هذه المبادىء الاولية لازدهار الثقافة . فتناولوا بالتأليف والتصنيف والترجمة معاجم اللغة في العلوم والآداب والفنون، واستطاعوا ان يجاروا بثقافتهم ثورة الانقلاب الصناعي . وكونوا مع بدايات العصر الآلي ، وحدة أدبية تعبر عن روح هذه المدنية الغربية، وتسموا بسمة لها روعتها . وسنحاول فيما يلي ان نقدم صورة من الشعر الاميركي الحديث لنعطي للقارىء لمحة سريعة عن تطور الآداب ، وتأثرها بحضارة القرن العشرين الآلية[1]

— ٥ —

الشعر قطعة من روح العصر ، وهو مجموع تراكيب كيماوية منسجمة الالوان متحدة العناصر ، تتذوقها الأذن الموسيقية بقدر ما في الشعر من عذوبة الجرس ، ويبصرها الوجدان فيتأثر بما تبعثه من ضروب المعاني ، وما توصله من صور التعبير . والعاطفة الشعرية انما هي الاحساس بهذا العالم الذي يجرده الشاعر من نفسه، فيعيش فيه لحظات طوالاً او قصاراً ، يتجه فيها الى ما يملأ خياله من الرؤى ، عارضاً ما أولته الطبيعة من حس وادراك للانفعال بالمؤثرات الخارجية والاستجابة لها . فاذا استطاع ان ينقل الى ذهن القارىء او السامع ما يملأ ساحة شعوره المبهم ، أو يجسم في حدود اللغة هذه الاشباح والرؤى التي تبعثها في نفسه مؤثرات الطبيعة او مجالي الحياة ، كان بذلك أديباً يفذ يمتاز باستجابته لداعي الاحساس الفطري وهي الخطوة الايجابية التي تميز الشاعر المنتج عن القارىء العادي[2]

فهل للشعر اذا قرأت « الشعر الحديث » بأن المبين يوصل اليك في هذه العبارات القصيرة واللمحات السريعة ما يجول في خياله من الصور ؟ قد تغني وتنا قصيراً او طويلاً في شيكاغو ، فتنساب في تيار البشرية الجائشة ، وتتأملها كالبحر الخضم المائج ، المسرع على أرجيه . مجلاته

وقد تتقاذفك أباليسها فتسلبك فراغك وشخصيتك ، وتدمجك في ضبابة كثيفة من البشر . وتصرفك عما تحرص عليه من هدوء البال وسحر الخيال ! فهل للشعر اذا رفعت مع الشاعر على توقيع قصيدة ، أنك في شيكاغو حقاً . . . يزعجك ضجيج دواليبها بقدر ما يروقك أسلوب الشاعر في التعبير ؟ هل تعيش ولو لحظات خاطفة في هذا الجو الفني الذي يتولد في أعماق الشاعر من تقلبه بين ضروريات حياته ومظاهر مدنيته ؟ !

قد تقرأ قصيدة لاعرابي يعيش في البادية . فيحرك فيها انسجام الموسيقى في البحر الذي يختاره لقصيده ، وفي الكلمات التي ينتقيها ليوصل اليك الصورة التي تراود عقله ، وفي الاسلوب الذي يفهم به الامور والاشياء ينقلها اليك ، كأنما هي لوحة فنية قد اكتملت فيها ان يبصرها وجدان

(١) اقرأ هذه المختارات في « حديقة المقتطف » في هذا العدد (٢) Lasqeiles Abercrombie : Criticism

الشاعر ، وتجري على لسانه . ولكنك ترى في الشعر الحديث أنهُ لا يقيد بوزن او قافية ، وأنى لشعر القرن العشرين ان يوضع في رداء خيط قبل ان تنشأ المدنية الحاضرة ، واقتصر على وضعه متخلفاً عن موكب النشوء والارتقاء . وانما هو كلام ينحدر من قلم الشاعر كما تنحدر الجنادل من القمم الشاهقة ، يستمد صلابته من الملم . ويبلغ دقة الوصف في عبارات موجزة سريعة الصورة ، متوثبة المعنى ، حتى لكأن الشاعر ينظم حين ينظم مسرعاً ، حريصاً على أن لا يمنح لقصيدة من الوقت فوق ما يغني ! . . . وأنت حين تقرأ لشاعر حديث ، تجد الشعور الذي يوحيه لك ان الشاعر يكابد في انتزاع الكلمات التي يعبر بواسطتها عما يتوثب في نفسه من المعاني ، ويجد غير قليل من الجهد حين يبحث بين اوضاع اللغة المتوارثة عن رداء يضع فيه بنت افكاره وبكارى معانيه . ولو قد اطلقنا لهُ حرية القول ، لتحرر من القيود التي يتواضع عليها الناس ، ولا تتخذ لديه عقد اللغة ، ولأنشأ أوضاعاً جديدة من الكلام تحسب ، لاقي في روعه مظاهر حياته ومدنيته . وأنت تطالع في هذا الشعر التغني بالآلة غناء قد يجمد حيناً حتى يبين كأنهُ كلمات مرصوفة لا تمت الى الشعر بسبب ، وقد يسمو أحياناً فيلقي في روعك ، في روع الشاعر من الاحلام ، وروعك ما يتبعث فيه من صور فنية يستلهمها الشاعر من دوي المصانع ودخانها !

ونجد في هذا الشعر أيضاً قرب غور معانيه ، وندرة البديع اللفوي ، أو التعقيد في المعنى ، وانما الشاعر يتسلسل مما يحوطهُ من الماديات الى آفاق بعيدة من الخيال الشعري . ولكنك واجد فيه على كل حال ثورة صناعية على أمنا الطبيعة ، التي تقدم لنا اروع صور الفن في دوح رائعة يهزه النسيم فيترنح من الهواء كأنما فيه نشوة من الطرب ، أو ترنيمة غدير ينساب بين الصخور فكأنما تتردد في خريره معاني الطبيعة الهادئة او وحي التاريخ السحيق . فتثور عليها طائفة وحي المادة ، وما تبعثهُ من آفاق محدودة ، أو أنغام جامدة . غير ان الجمال الفني في الشعر كما يكون وليد الطبيعة أو كما يكون في سر أعماق النفوس وحصد ثمرات حقل الشعوب ، فانهُ يكون في الشعر الحديث في كل عصر ، وهو رهن نشوء صور جديدة من ألوان الحضارة المدنية . لذلك فنحن لا نجد ، حين نقرأ هذا الشعر ، صورة النفس البشرية الخالصة من أوضار المادة وضرورات الحياة بل نجد النفس التي طغت عليها قواسر العيش ، فتفننت بهذا الكلام عبوديتها للآلة وذهلت للمادة الصفيقة ، بعد أن كانت صفحات الطبيعة هي المصدر الغالب لكل ما أنتج العقل البشري من شعر

وقد لا نستطيع لاول وهلة أن نتذوق مقاطع الشعر الحديث ومعانيه لاعتبارات كثيرة أهمها اختلاف البيئة وجدة هذا التوجيه ، وقد نراه خالياً من الانسجام الموسيقي ، غنياً بردد لا تعودنا ان تلمح الشعر لفظاً جميلاً ، يتسلل في اتساق متشابه قوي رائع ، ونحتفظ به في ذاكرة وتعيده لفظاً جميلاً أبداً ، تمضمضهُ النفس الواعية ، ثم لا تبالي ان هي ملت ، أو حزنت ، او ثارت ، ما دام في انشادها رنة الفرح ، او أنَّة الالم ، او نزوة الهوى !

ابن سينا (١)

ليس بين ما نظمهُ الاقدمون قصيدة أدنى الى معتقدي وأقرب الى ميولي النفسية من قصيدة ابن سينا في النفس

في هذه القصيدة النبيلة قد وضع الشيخ الرئيس أبعد ما يراودُ فكرة الانسان، وأعمق ما يلازمُ خياله من الاماني التي تولدها المعرفة ، والسؤالات التي يثيرها الرجاء ، والنظريات التي لا تصدر الاَّ عن التفكر المستمر والتأملات الطويلة

وليس من الغرائب صدور هذه القصيدة عن وجدان ابن سينا وهو نابغة زمانه ، ولكن من الغرائب ان تكون مظهراً لرجل صرف عمره مستقصياً أسرار الاجسام ومزايا الهيولى . فكأني به قد بلغ خفايا الروح عن طريق المادة وأدرك مكنونات المعقولات بواسطة المرئيات فجاءت قصيدته هذه برهاناً نيراً على ان العلم هو حياة العقل يتدرج بصاحبه من الاختبارات الحسية — الى النظريات العقلية — الى الشعور الروحي — الى الله

قد يجد المطالع في ما نظمهُ كبار شعراء الفرنجيين مقاطع متفرقة تذكره بهذه القصيدة السامية . ففي روايات شكسبير الخالدة أبيات لا تختلف بمعانيها عن قول ابن سينا

وصلت على كره اليك وربما كرهت فراقك وهي ذات تفجُّع

وفي اقوال شلي ما يماثل

سجنت وقد كشف الغطاء فأبصرت ما ليس يدرك بالعيون المجمَّع

وفي تأملات غوتي ما يضارع

وتعود عالمة بكل خفية في العالمين فخرقها لم يرقع

وفي ما قاله برواتغ ما يضاهي

فكأنها برق تألق بالحمى ثم انطوى فكأنه لم يلمع

ولكن الشيخ الرئيس قد تقدَّم جميع هؤلاء بقرون عديدة . توضح في قصيدته واحدة ما هبط بصور متفرقة على أفكار مختلفة في أزمنة مختلفة . وهذا ما يجعلهُ نابغة عصره وعصور التي جاءت بعده ، ويجعل قصيدته في النفس أبعد وأشرف ما نظم في أشرف وأبدع موضوع

---

(١) نشر هذه القطعة من آثار جبران خليل جبران بمناسبة نشرنا الفصل الاخير من البحث المسهب في سيرة ابن سينا ومؤلفاته

تقدم علوم الطب

— ٢ —

للدكتور شريف عسيران

صدر حديثاً كتاب علمي جليل من أنفس الكتب الطبية موضوعه «تقدم العلم» دبجت أقلام أئمة علماء الانكليز في هذا العصر أمثال السر جيمز جينز والسر وليم براج وهالدين وهكسلي وايتن . وقد نشر فيه الدكتور ادورد ملاني فصلا قيماً عن تقدم علوم الطب فيه فائدة للاطباء وعامة الناس . فنقله ليتمتع به الناطقون بالضاد :

ولنستعرض الآن بعض نتائج ازدهار هذا النشاط الطبي الذي تدل عليه زيادة التنبيهات الطبية وانتشار المؤسسات الكثيرة . وخير طريقة لذلك مقابلة معدل الولادات والوفيات الناشئة عن الامراض النوعية. بلغت وفيات الاطفال دون السنة من العمر بين سنة ١٨٩٦ — ١٩٠٠ ١٥٦ بالالف بينما سقطت سنة ١٩٣٤ الى ٥٩ بالالف وبلغ معدل وفيات الرجال بسن ٤٥ — ٥٠ (٣ر٢٠) بالالف سنة ١٨٧٠ — ١٨٧٥ وهبط سنة ١٩٢٦ — ١٩٣٠ الى ٧ر١١ بالالف وهبطت وفيات السل الرئوي من ٣٤٧٨ بالمليون بين سنة ١٨٥١ — ١٨٦٠ الى ٧٤٠ بالمليون سنة ١٩٣٤ ونقصت وفيات السعال الديكي من ٥١٠ بالمليون سنة ١٨٧١ — ١٨٨٠ الى ٥١ بالمليون سنة ١٩٣٤ والحصبة من ٣٨٠ الى ٨٣ بالمليون والتيفوئيد من ٣٢٠ الى ٤ بالمليون. وقد هبط معدل اكثر الوفيات المذكورة في القرن الحاضر . أما السل فقد بدأت تتناقص وفياته منذ ما يقرب من مائة سنة . فاذا أخذنا هذه الارقام مقياساً أدركنا المدى الواسع الذي تقدمت فيه الصحة العامة خاصة في الثلاثين السنة المتأخرة

وهناك طرق أخرى غير المذكورة تؤدي الى نفس النتيجة اي تحسين الصحة العامة. صحيح اننا خطونا خطوات كبرى في تشخيص الامراض والوقاية منها وطرق معالجتها ولكن مما لاريب

فيه ان طائفة من الامراض تلاشت لاسباب لا علاقة لها بالطرق المذكورة ونذكر على سبيل المثال ان وطأة الامراض حفت لاسباب لم تخرج عن حدّ الظن كداء النقرس (gout) الذي كان كثير الانتشار منذ مائة سنة فأصبح الآن نادراً ولا يعلم أحد سبب ذلك . ويظن البعض ان سبب ذلك هبوط التسمم بالرصاص. ومن الامراض التي قلت في الثلاثين السنة المرض الاخضر Chlorosis [1] وهو ضرب من فقر الدم يصيب النساء . فمنذ ٣٥ سنة كانت المستشفات تعج بالفتيات المصابات بهذه العلّة . أما اليوم فقلّ من يمرنها من الاطباء لندرتها . ويزعم البعض ان سبب تلاشيها اقلاع النساء عن لبس المشدات ولكن هذا الرأي مجرد ظن . ومن الامراض القتالة التي كانت منتشرة انتشاراً فظيعاً بشكل وبائي اسهال الاطفال الصيفي فكان يقضي على ألوف الاطفال وقد تناقص الآن كثيراً . ويعزو البعض نقصانه الى تلاشي الذباب من المدن (في بلادهم لا بلادنا) بعد ان حلت السيارات محل الخيل ولكن لم يثبت في السبب بعد . ومن الاسباب المهمة لتحسن الصحة نقصان تعاطي المكرات . وفي هذا النقصان اسرار اكثرها مدرك في الوقت الحاضر ولكن نستطيع حتى الآن ان نجزم بأن بعض الامراض الناشئة عنهُ قد قلت كثيراً بعد أن نجحت لجنة الاشراف على المشروبات في حمل الشعب على الاعتدال في تعاطيه فغدا الهذيان الرعشي الناشيء عن الكحول نادراً ومن المرجح ان شطراً من اسباب قلة سحق الاطفال في الفراش [2] يعزى الى هذا العامل مع ان حوادثه كانت كثيرة

والسبب الثالث لتلاشي بعض الامراض التحسن الكبير في التنظيم الصحي (Sanitation) والنظافة الشخصية . والفضل الاكبر لانكلترا في قيادة حركة من الشرائع المتعلقة بالصحة العامة ويجب ان لا تنسى هذه البلاد (يقصد انكلترا) ما لبعض الشخصيات البارزة من الفضل العظيم في حمل المجلس النيابي على تصديق شرائع كهذه رغماً عن شدة المعارضة . ولا نسمع الاّ القليل عن هذه الشخصيات امثال Chadwick, Murchison, Simon, Alchand, Buchanan and Benjamin مع ان جهودهم الجبارة هي التي أدت في الشطر الثاني من القرن التاسع عشر الى هبوط الامراض هبوطاً هائلاً . ان انتشار اوبئة الحمية الآسوية ساعد كثيراً في حمل المجلس النيابي على سن تشريع الصحة العامة لسنة ١٨٤٨ الذي كان حافزاً لتشريع التنظيم الصحي لسنة ١٨٦٦ . ومع ان التنظيم الصحي ابتدأ عدة سنوات قبل اكتشاف كوخ وكان الصل فيه من الامور المسلّم بها في ذلك الوقت فانه ازداد زيادة عظيمة حينما تبين ان الجراثيم هي مصدر كثير من الامراض وان اغلبها ينتقل بواسطة الماء واللبن الحليب. ومما لا جدال فيه ان بعض الامراض

(١) نوع من فقر الدم يصيب النساء وعلى الاخص حديثات السن

(٢) يقصد سحق الامهات لاطفالهن ليلاً وهم نائمون بجانبهن

قد زال تقريباً بسبب تحسن التنظيم الصحي كالحمى الآسيوية والوباء والطاعون والحمى النشبة والتيفوئيد [١] وآخر الحميات التي تلاشت هي الحمى التيفوئيدية وصارت الوفيات بها صدفة في بريطانيا وتبلغ ٤ بالمليون سنوياً ولا عذر لنا في هذا الوقت حتى على هذا العدد اليسير من الوفيات بها

ولنلتفت الآن الى ناحية اخرى من هذا الموضوع وهي عدد كبير من الامراض تقدمت معرفتنا بتشخيصها ومعالجتها والوقاية منها تقدماً عظيماً بفضل البحوث الطبية الحديثة . وقد تقدمت هذه المعرفة من ثلاث جهات بصورة تقريبية . فالفئة الاولى تشمل الامراض المتولدة من الحيوانات الاحادية الخلية Protozoa والبكتيريا والفيروس فنشأ من درسها فرع من فروع البكتيريولوجي يعرف بالمناعة وآلت معرفة الاطباء المناعة الفعلية والواسطية الى تخفيف وطأة بعض الامراض الجرثومية بعض الشيء كالخناق والحمى الدماغية الشوكية والحصبة والحمى القرمزية. وقد رأينا ان الجدري تلاشت او قلت من عهد جنر بواسطة التطعيم الذي يولد مناعة ضدها وتبين حديثاً ان المصل المُمنِّع (المولّدة فيه المناعة) المأخوذ من دم ولد شفي حديثاً من الحصبة اذا حقن به ولد معرض للعدوى بهذا المرض قلما ان لا يصاب واما ان تكون الاصابة خفيفة. وما لم يكن الولد دون الثلاث سنوات عمراً او لسبب آخر خاص فان الطبيب لا يرغب في منع الحصبة بل بفضل اصابة خفيفة بها تولد مناعة فعلية . ولنستطع الحكم على نتائج هذه الطريقة الباهرة من تجارب نجد باحثي لندن فقد استعمل المصل المُمنِع في ٣٩٩ ولداً بعد تعرضهم للحصبة فلم يمت منهم احد بينما مات ٥ بالمائة من الاولاد الذين اتخذوا ضابطاً فلم يلقحوا بالمصل الواقي . وآلت النتائج الحديثة في استعمال مضاد سموم الحمى القرمزية الى تقليل معدل الوفيات بها وتخفيف وطأة عواقبها الوخيمة

ان لتخفيف وطأة الحمى القرمزية والحصبة شأناً كبيراً في تقليل حوادث اصابات امراض الاذن الوسطى الناشئة عقب الحصبة والحمى القرمزية لان عدداً كبيراً من اصابات الصمم في هذه البلاد [٢] ناشيء عن مرض الاذن الوسطى واذا لم يقمع هذا الداء الفتاك فان مشكلة الصمم ستبقى . وقد استنبطت الطرق الآن لتخفيف تأثير هذين المرضين والسير عليهما يؤدي الى النتائج الحسنة

وقد اكتشف اخيراً آخر من المعالجة لمعالجة الامراض المتولدة من الحيوانات الوحيدة الخلية وهو المعروف بالمعالجة الكيمياوية Chemotherapy كالسلفرسان ومشتقاته الادوية النوعية في معالجة الزهري التي لا تقتل هذا المرض فقط بل تأثيراته الحسنة كقتل الجاثين العام وأشباهه

وقد حلّ محل الكينين الذي يعدّ دواءً نوعياً للبرداء للدوجلما ، مستحضر الاتبرين [٣]

---

(١) هذا في بلاده ، نعني ان تكون سائرين على الدرب (٢) وفي بلادنا ايضاً ينشأ من اصابة الضرب

(٣) لم يذكر الثلاثة وكين بجانب الاتبرين وتعتقد انه لا يزال للكينين منزلته السامية (الضرب)

وستحضر باير ٢٠٥ في بدء الاصابات بمرض التوم

أن فئة الامراض الثانية الكبرى هي المتولدة من اضطرابات الفرزات الداخلية فالقدم Cretinism (١) and Myxoedema (٢) يشفى باعطاء الثيروكسين وهو خلاصة الغدة الدرقية والكري بالالسولين وهزة الحائط بالـ Parathrombone خلاصة الغدد المحاذية للدرقية ومرض ادسن بخلاصة الجزء القشري من الكظر وفقر الدم الخبيث بخلاصة الكبد . وبما اننا لا نستطيع الافاضة في انتصارات الطب الباهرة في هذه الناحية نرى ان لا بدَّ لنا من توجيه النظر الى اكتشاف حديث عظيم الشأن فان Dakin وزميله استخرجا خلاصة الكبد بصورة صرفة او ما يقرب من ذلك وفعل هذه الخلاصة عجيب فان حقن ٠٫١ او ٠٫٢ . منها اسبوعيًّا يجعل الضعيف الشاحب اللون قويًّا نشيطاً وتصيره في أسابيع قابلة موَّرد الخدين بحي حياة طبيعية كثيره من الاصحاء . ولا يزال هذا الفرع في تقدم مستمرٍّ وله مستقبل كبير وكل من له المام بخلاصات الغدد الجنسية كال asterin, progestin, and androsterone يدرك امكان تقدم هذا الفرع غير المحدود

ان فئة الامراض الثالثة القابلة المعالجة هي الامراض الغذائية . وقد عثروا اثناء البحث في هذا الموضوع على الفيتامين الذي هو من العوامل الاساسية في منفعة الغذاء فعزلت مواده وعرف تركيبها وصرنا نعرف بفضل هذه النتائج كثيراً عن بعض الامراض كالكساح ونخر الاسنان وقابلية العدوى ومرض الاسكربوط والبري بري وغيرها من الاضطرابات الجسدية كالتسمم بالترمس والرعشة الناشئة عن التسمم بالجؤدر (Ergot) ومن نتائج هذا الفرع المهمة اننا صرنا نعلم ان ليست الجراثيم فقط تسبب الامراض بل ان سبب بعضها نقص او زيادة في بعض المواد الكيماوية الضرورية للجسم . ومع ان هذا السبب يعد حديثاً فالمطلعون على تاريخ الطب يعلمون ان هذه الفكرة ليست حديثة . ففي سنة ١٨٥٠ أدلى شاتان بنظرية خلاصتها ان مرض الجوار (الجحوظ) متولد من نقص اليود وذكر حججاً بينة في تأييدها . ومن صفحات الطب السوداء المؤلمة ان المجمع العلمي الفرنسي رفض نظرية شاتان بعد ان دققتها لجنة من قبل المجمع واعادت النظر فيها عدة مرات واعتبرتها خطأ لان اعضاءها لم يصدقوا بأن لهذا القدر اليسير من اليود ذلك التأثير العظيم في احداث المرض او منعه . ولم تتحقق نظرية شاتان وبصر لها شأن يذكر الاَّ سنة ١٨٩٥ حينما بين بومان ان في الغدة الدرقية معدن اليود . والفائدة الوقائية أعمى شأناً من العلاج . صحيح اننا نستطيع شفاء داء الاسكربوط والبري بري بوصف الغذاء الملائم ولكننا نستطيع في الوقت عينه الوقاية منهما بالمداومة على استعمال

(١) في الصغار (٢) في الكبار

الغذاء المناسب لعدم الاصابة بها. والشيء نفسه يصدق على مرض الكساح. وأودان اقول هنا كلمة عن موضوع الادوية الواقية والشافية فان الاطباء وعامة الناس لا يفقهون حقيقتها وأهميتها. ان الدواء الشافي يجيب في فعله لانه يزيل الداء حالاً ولا يستطيع المرء ان يقدر مدى تأثيره اذا كان مصاباً بمرض ما. اما المعالجة الوقائية الفعالة فانها تمنع حدوث المرض بتاتاً ولاسيما اذا صارت متداولة وشتان بينها وبين الطريقة الاولى. فالثانية تمحو المرض بينما الاولى إما ان تطيل الحياة وإما ان تخفف علامات المرض ولكنها لا تزيله فيجب ان يكون هدفنا الوقاية من الامراض او القضاء عليها لا معالجتها ويتوقف نجاحنا في هذه الناحية على مدى معرفتنا اصل الداء ومنشأه. ومن العقبات التي تعترض الاستقصاء العلمي لدرجة ما عدم توصلنا الى كنه حقيقة الامراض فاذا تمكنا من معرفة سببها سهلت الوقاية وسهل الشفاء وان لم يكن باستطاعتنا ذلك فقد نتمكن من تخفيف الالم ولا نعرف او نعرف قليلاً عن سببه أو قد نعرف الشيء الكثير عن مرض ما ونجهل طرق الوقاية منه او شفائه. فمثلاً قليلة هي الامراض التي نعلم عنها اكثر مما نعرف عن السرطان ومع ذلك لا نعرف الا اليسير عن طرق الوقاية منهُ. اما معرفتنا عن شفائه فصفر. وعكس ذلك السكري وفقر الدم الخبيث فاننا نستطيع اتقاء ضررهما بالانسولين وخلاصة الكبد فتتحسن حالة المصاب مع اننا نجهل او نعلم القليل عن سببهما

وأود ان اقول الآن بضع كلمات عن مباحث طبية خاصة لأبين كيفية كشف الستار عن سبب الامراض ومعالجتها ولان معرفتها هي التي ادت في هذه البلاد (يقصد انكلترا) حيث المواد الغذائية متوفرة الى ضلال الناس في حقيقة فهم الغذاء وتأثيره في الصحة. فقد ظل داء الكساح في انكلترا وسائر العالم المتمدن قروناً ضربة قاضية ومع ان شدته صارت لسيئاً نادرة في لندن فلا يزال منتشراً في كثير من البلدان الصناعية في الشمال وسببه كما هو معروف نقص في كلسيفرول يعرضها لمختلف التشوهات. وحتى سنة ١٩١٤ او ما يقرب من ذلك كانت النظريات مختلفة في سبب هذا المرض وعزوه الى أسباب صحية او معدية او افرازية او غير ذلك. فدائرة المعارف البريطانية مثلاً عزتهُ في طبعة سنة ١٩١١ الى سموم تتولد في القناة الهضمية واذا أراد اي شخص الآن ان يعرف سبب داء كهذا يتساءل هل كانت الحيوانات تصاب به فاذا كان من الممكن احداثهُ فيها فيمكننا اجراء التجارب اللازمة والتوصل الى معرفة السبب ولكننا لا نتمكن طبعاً من اجراء تجارب كهذه على الانسان وأول ما يجب عمله في معرفة السبب ان نلم بالطريقة التي تمكننا من احداثهِ على الدوام في حيوان الكلاب بمحض اختيارنا. ومثل هذه التجارب عرفنا ان بعض الاغذية تسببهُ وان تغييراً طفيفاً فيها يمنعهُ. وموأد الغذاء الاختباري كما يلي : —

لبن حليب مغزوعة قشدته : ١٥٠ — ٢٥٠ س . م يومياً

دهن : (زبدة زيت الزيتون أو شحم او زيت كبد الحوت) ١٠ غرامات

عصير البرتقال : ٥ س ٢٠ خبز : ٥ — ٧ س ٢٠

حبوب : (كالدقيق والارز والاذرة و...) ... — ٢٥٠ غرام لحم : ١٠ — ٢٠ غراماً

وقد وجدوا ان الكساح يحدث او لا يحدث وفقاً للدهن الذي في الغذاء فاذا كان فيه دهن حيواني كالزبد او زيت كبد الحوت فلا يتولد الكساح . واذا اطعمنا جراء غيرها نفس الغذاء وفيه زيت الزيتون او زيت بزر الكتان او شحم تولد فيها هذا الداء . واستنتجوا من هذه الاختبارات ان الضابط هو الدهن فبعض انواعه تسبب تصلباً في العظام كالزبدة وزيت كبد الحوت وبعضها ولا سيما الزيوت النباتية تسبب رخاوة فيها فدعوا المادة التي هي العامل في الصلابة والرخاوة (فيتامين) وتسمى الآن فيتامين D فهي التي تسبب صلابة العظام بترسيب فوسفات الكلس فيها ولا تتصلب العظام اذا كانت هذه المادة مفقودة رغماً عن وفرة المواد الكلسية والفصفورية فيها . فهذه المادة هي التي تثبت الكلس . ولنستطع تغيير نوع الحبوب لتجربة تأثيرها باحداث الكساح او عدم إحداثه بنفس الطريقة فاذا أطعمنا جراء كلاب كل عناصر الغذاء الاساسية بشرط ان نطعم بعضها دقيقاً أبيض وغيرها شوفاناً oatmeal والبعض الآخر أرزاً الخ يظهر الكساح بدرجات وفقاً لنوع الحبوب ومقدار الفيتامين D الذي فيها فالتي يه لا تسبب الكساح والتي تحوي قليلاً منهُ تجعل الاصابة خفيفة وعلم جرًّا . فالاذرة البيضاء مثلاً تولدهُ بصورة شديدة والدقيق والارز بدرجة اخف . فهذه التجارب تدل على ان ظهور الكساح لا يتوقف على نقص الفيتامين D فقط بل على نوع الحبوب التي تؤكل . ومن الحقائق الغريبة ان الحبوب التي فيها كلس وفصفور أكثر من غيرها كالاذرة البيضاء والشوفان oatmeal هي التي تولد أردأ انواع الكساح بصورة أشد من المواد المحتوية على مقدار أقل منهما كالارز والدقيق الخ

ان هذه النتائج تدلنا على ان لا نكتفي بالنظريات بل على المرء ان يجرب بنفسه ليصل الى الحقيقة . وقد طبقوا هذه التجارب على الاسنان فظهر أن لتخرها علاقة بالغذاء لان المواد التي تجعل العظم قويًّا هي التي تثبت الاسنان السليمة . فيتضح لنا من هذه الدروس ان الحليب وصفار البيض والجبن وزيت كبد الحوت والزبد هي العامل في توليد الاسنان الصحيحة بينما الحبوب كالاذرة والشعير والخبز والارز وكل نقة الحبوب تثبت الاسنان المعيبة . وبما ان الرواضع (أسنان الحليب) تظهر في كثير من الحيوانات في الدور الجنيني او بعد الولادة بقليل فمن البديهي ان تنمو صحيحة اذا أطعناها المواد الغنية بالكلس والفصفور والعكس بالعكس والثوابت (الاسنان الدائمة) تظهر من بعد الولادة حتى سن البلوغ وتتوقف سلامتها ايضاً على نوع الغذاء . ومن المعلوم ان اسنان اهل هذه البلاد (اكلترا) ليست صحيحة ومعناه ان غذاء الاولاد حتى

الحوامل ناقص بصورة عامة من وجهة صحة الاسنان . ونستطيع ان نتبأ على وجه يقرب من الجزم ان تخر الاسنان وتحريج الاسنان Pyorrhea سيظلان ضربة على الامة مالم يتغير نوع الغذاء ولا يمكن القضاء عليهما الا باعطاء الحليب والزبد وصفار البيض والجبن والخضر والفواكه الخ خاصة للاولاد. لقد أتيت على ناحيتين فقط من أهمية الغذاء مع ان مجال القول ذو سعة في هذا الموضوع . وقد أصبح من المعروف ان كثيراً من العيوب الجسدية والعقلية في هذه البلاد وغيرها يمكن تقليلها جداً بالتقيد بمبادىء الغذاء المذكورة وسيكون لهذه الوجهة من الطب الحديث الواقي تأثيرها في رفع مستوى صحة العالم

لقد أكلت مهتي الآن واستعرضت تقدم الطب في مختلف العصور خاصة سرعتها في الخمسين السنة المتأخرة . وانتقدت الاقدمين في محاضراتي لبطئهم في الاهتمام بالامراض والاخطاء التي ارتكبوها اما عمداً وإما سهواً . ومن الطريف ان نعرف نظر الناس فينا بعد آلاف السنين وحكمهم على ما توصلنا اليه . وعلى الارجح انهم سوف لا يفكرون بقضية الامراض اذ من المحقق انها تصبح نادرة جداً للدرجة ما ويصير المرء يجهد فكره ليتذكر انتشار المرض الفلاني ولا بد ان يقوم منقب يبحث في سير الاولين وآدابهم فيرى اننا تأخرنا في تقدير الطرق التجريبية ويسخر من بطئنا كما نسخر من الذين قبلنا . لقد حاولت ان اورد بعض أسباب بطء الاقدمين في التوصل الى الحقائق التي توصلنا اليها اليوم . ومن الخطأ ان نتقبلها كما نراها اليوم ولا نلتفت الى الجهود التي بذلها البشر في التوصل اليها فعلينا ان لا نتمسك بالنظريات مطلقاً دون التجارب . وسيجد نيلسوف البد المنقب عن آثارنا على كثير من الامور المستغربة . ومما لا شك فيه انهُ سيتمن على اصدقائه كيف كان الاطباء سواء عن اقتناعهم الشخصي او بناء على طلب المريض يصفون سلسلة من الادوية كالمحاليل والغرغرات والمساحيق . واذا كان سيسخر من هذه الامور فما احراه ان يسخر من هذه البلاد المتوفرة فيها المواد الغذائية الصحية ومع ذلك يحرم الكثيرون من أبنائها منها واخص بصورة خاصة اللبن (الحليب) . ويعجب حينما يعلم ان مصدّر مقابض المظلات يستطيع مثلاً الحصول على مقادير كبيرة منهُ بسعر الغالون الواحد بخمس بنسات بينما لا نستطيع الحصول على نفس المقدار لتغذية الاطفال بأقل من شلنين وخمس بنسات . ومما لا ريب فيه ان هذه الحالة مؤقتة ومتى عرفنا قيمة الغذاء الصحيح اصبحت أسسهُ راسخة ورسوخ التنظيمات الصحية والنظافة اليوم . فالاكتشافات الصحية تترى في الوقت الحاضر وهي تتقدم بخطوات سريعة والحقائق الطبية تتراكم يوماً فيوماً ولا حدّ لهذا التقدم حتى ان الموظف في الشؤون الصحية يعسب عليه تتبع الطب الواقي — ويجدر بنا ان نعلم اننا في عصر الطب الذهبي وان نعترف بالنعم التي نتمتع بها اليوم

دائرة الحياة

« كل يوم هو في شان »
« وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب »
(قرآن كريم)

شاعر أطرب الاله طويلاً بمقاطيع عذبة الألحان
أسكر الله لحنهُ فدعاه ليرى خطب ذلك الانسان
قيل: يا شاعر الاله تخيَّر لك من هذه الدنا ما أردته
قال: هاتوا الخلود يا جند ربي فأجابوا بئس الذي قد طلبته
أرأيت الاملاك هاجت وماجت وعلا الارض والسماء دويًّا
ما لدود التراب يرجو خلوداً ؟ ان هذا قد جاء شيئاً فريًّا
رعشة في قلوبهم قد تمشت ولوجه الاله خروا سجودا
قيل: أعطوا عبدي الذي يبتغيه يطلب الخلد فامنحوه الخلودا
نفخة الخلد في حناياه قرَّت إنما الخلد للاله العليّ
ألبسوه ثوب الخلود وآبوا واحتفى الخلد بالفتى السرمديّ
خيَّروه بين المواطن فاختار على شاهق رفيع مقامه
تركض الارض حوله وهو ثاوٍ ينظر الارض والسموس أمامه
كم عروش هوت على صاحبيها وتماثيل حطَّمتها الصروف
وتهاويل قدَّسوها رآها تتلاشى كما تلاشى طيوف
كم الٰه على التراب صريع وإلٰه عن عرشه قد تهاوى
يصرع البعض بعضهم فيخرُّ الكل من سكرة الصراع لثاوى
نظر الارض والتطور فيها عامل في الجماد والأحياء
وهو لا يأتلي يطل عليه ابداً وجه هذه الزرقاء

جاء دهر عليه وهو بجيل ... طرفه كالكئيب في الكائنات
فاذا بالرجاء قد مات فيه ... وبه ملء من سكون الحياة

أنا وحدي في الارض تذهب نفسي ... إثر من أهوى ، ثم يرحل عني
ما ابتغائي من الخلود وحيداً ؟ ... وجميع الآمال تذهب مني
أيها الغادي للتراب رويداً ! ... عاد جسمي حفنة للتراب
افتح الباب للردى وانتظرني ... اني ذاهب لأطوي ثيابي
كل حين أستطلع الركب منهم ... فأرى الراكبين بعض رفاقي
ينزعون الجلود ثم يعودو ... ن بروح جديدة الاشراق
هذه من عشقت نفسي وتحيا ... لم تزل روحها تطوف بداري
وجه ليلى، وروح ليلى ، وليلى ... لم يبدل منها سوى الأطمار
جهلتني وليت تذكر يوماً ... انها في حياتها عرفتني
مص من روحها الثرى كل وعي ... قلها عذرها اذا أنكرتني

سمع الله عبده وهو يشكو ... قال : ما تبتغي فقال الفناء
سأم عاد في وأضعف نفسي ... ماهي الارض ان خلت والسماء؟
قال رب السماء آمن بأني ... قد خلقت الوجود أحسن خلق
ملأ الناس بالشكاوى سمعي ... وهم يشتكون من غير حق
يطلبون البقاء في الارض دهراً ... فارو ماذا رأيته في البقاء
لا تلوموا على الفناء وجودي ... يشفع الكون نفسه بالفناء

كل يوم ترى الاله بشان ! ... كل يوم ترى الاله بحال
ما خلودي دوماً بمنح شيئاً ... أنا لولا تبدلي وانتقالي
لدة الارض هل تخاف انطفاء ؟ ... انما أنت جمرة في رماد
أفن جسماً والبس سواه جديداً ... فيك مجموعة من الاجساد
كل كمثل الزمان يوصل ماضيـــه بآتيه وعش كشيء جديد
فيك شيء من الفناء ، وشيء ... قد قبسناه من صميم الخلود !

مُلبل فتح الله

وزارة المعارف

نشاطها في دراسة
مشكلات التربية وتشجيع الثقافة العامة

— ١ —

ظلّت وزارة المعارف عصر ردحاً من الزمن طويلاً تعمل في دائرة لا تتعدّى الحدود التي ترسمها حاجة الحكومة الى موظفين يقومون بالاعمال الكتابية . ولم تتخطّ الوزارة هذه الحدود الاّ في ناحيتين اضطرتها الظروف القاهرة الى تخطيها : الاولى حاجة البلاد الى قضاة ومحامين يقيمون هيكل العدل بعد اعادة تنظيم المحاكم الاهلية فأنشئت مدرسة الحقوق ، والثانية حاجة البلاد الى مهندسين يشرفون على مشروعات الري والصرف وتوزيع مياه النيل فأنشئت مدرسة الهندسة . وفيما عدا هاتين الناحيتين لم يشعر المصريون بأثر للوزارة أثراً في توجيه الثقافة العامة وجهة ما . ولقد نقول يقين ثابت أن هذه السياسة ظلت مهيمنة على وزارة المعارف حتى عام الثورة سنة ١٩١٩ ، فكان هذا حدّاً فاصلاً بين عهدين من حياة وزارة المعارف . فان اتجاه الافكار الى المثل والغايات العليا وتحويل أنظار الامة الى الاستقلال والى الحرية قد نال وزارة المعارف منهُ نصيب وافر تطلعت بعده الميول الى التوسع في شئون التعليم توسّعاً لم تستطع في مدى عشرين سنة بما كانت عليه حال التعليم قبراً بتمامه ، لما استطعنا ان نمثل لهذا النفاس الاّ بحركة الكهرباء مفيضة الى مشي السلحفاة . هذا اذا اعتبرنا النتائج السلبية التي عادت على البلاد من تلك الاستيقاظة الاخيرة

ولقد تدرجت الوزارة في الاخذ بأسباب الاصلاح ، غير ان اعظم وجوه الاصلاح في نظرنا ذلك الميل الجديد الذي بدا أخيراً في أفق وزارة التربية والتعليم من حيث الاتصال بالحركات الثقافية التي تتكوّن خارج جدرانها . وفي الحق ان انبثاث الصلة بين الوزارة وبين أوجه التثقيف التي كان يقوم بها أفراد عاملون في خارج الوزارة كان سبباً رئيساً عاق التثقيف العام زمناً ما . ولا شك في ان الوزارة باتخاذها هذه الخطوة الموفقة سوف تحقق جزءاً كبيراً من مهمتها الشاقة باعتبارها المهيمنة على الثقافة وعلى التربية العامة . ولا شك في ان الخطوات التي اتخذت في هذه السبيل حتى الآن خطوات ثابتة سوف تتبعها خطوات اكثر توفيقاً باذن الله . فان تأسيس مجمع اللغة العربية الملكي والعمل على تأسيس المجمع الادبي وتنشيط الحياة الفكرية تكفي للدلالة على صحة ما نقول

حضرة صاحب المعالي الدكتور محمد حسين هيكل باشا وزير المعارف وهو خارج من سور الجامعة المصرية حيث ألقى خطبته التي نشرنا مختارات منها في صفحة ٣٣٠

— ٢ —

في الوسع تقسيم اعمال وزارة المعارف في خلال الاشهر الاخيرة، الخاصة بتشجيع الثقافة العامة قسمين عامين أولهما القسم الخاص بالمباريات حثًّا للهمم وحفزاً للقرائح وقد صدر امر الوزير الدكتور محمد حسين هيكل باشا ، بتنظيم ثلاث مباريات كلّ سنة يمنح الفائزون فيها جوائز مالية نفيسة

١ — المباراة الاولى خاصة باحياء الادب العربي في مصر الاسلامية. وقد جاء في قرار الوزارة: « تعقد وزارة المعارف العمومية كل عام مسابقة في احياء الادب العربي في مصر الاسلامية على ان يقدم كلّ من المتبقين كتاباً لا يقل عن مائتي صفحة يتناول فيه اية ناحية من نواحي هذا الادب في اي عصر من العصور وعلى ان يكون الكتاب مثالاً حسناً للعمل الجدّي والبحث الشخصي والابتكار الذي يفيد العلم فائدة محققة » . وقد عينت الوزارة « مبلغ ٥٠٠ جنيه تمنح منهُ ثلاث جوائز لاحسن الكتب التي تقدم في هذه المسابقة » وآخر موعد لتقديم الرسائل للمباراة الاولى هو أول يونيو سنة ١٩٣٩

٢ — والمباراة الثانية خاصة بالمدرسين عامة في الموضوعات التي تقترح معالجتها وقد جعل عنوانها « مباريات تشجيع الانتاج الفكري » وجاء في قرار الوزارة « بما اننا نرى ضرورة العمل على تشجيع الانتاج الفكري بين المدرسين بمدارس الوزارة والمدارس الحرة من طريق حفزهم الى البحث والتأليف في موضوعات اختصاصهم والموضوعات المتصلة بها بما يؤدي الى تقوية شخصيتهم وزيادة حيوية دروسهم وتكوين ذخيرة من الرسائل العلمية والادبية تدعو الى انشاط التفكير العام اذ ينتفع بها الطلاب والجمهور المثقف على السواء، وتكون بعيدة عن التقيد بالمناهج وان اتصلت بموضوعاتها، وبما ان المدرسين والاساتذة في جميع البلاد المتحضرة مصدر التجديد العلمي والفكري والاصلي في توجيه الحياة الاجتماعية الى أحدث المبادىء وأدق الآراء العلمية والادبية والتربية» قررت الوزارة رصد جوائز سنوية للمدرسين الذين يضعون رسائل علمية وأدبية تمنح في مباريات تعقد كل عام للتأليف بين المدرسين تخصص لها جوائز ثمانٍ قيمة كل منها مائة جنيه تمنح للمتبارين الذين ترى لجان التحكيم ان رسائلهم جديرة بالمنح » وتخصص جائزة لكل من الموضوعات التالية وهي:

الادبية — الاجتماعية — الفلسفية — التاريخية — الجغرافية — الطبيعية — الرياضية — المتصلة بالتربية وعلم النفس — التجارية — الصناعية — الزراعية

وقد اشترطت الوزارة في الرسائل التي يتقدم بها واضعوها لنيل الجائزة ان تكون باللغة العربية وان تكون موضوعاتها بعيدة عن التقيد بالمناهج وان اتصلت بموضوعاتها بعيدة عن طبيعة الكتب المدرسية وان تبدو فيها روح الابتكار في طريقة معالجة الموضوع على الاقل وان يكون لها اتصال بحياة البلاد العلمية والادبية او تاريخها القومي وان تصطبغ بالصبغة القومية في الامثلة

والتطبيق وان يراعى في التأليف التبسيط واستيفاء البحث من جميع أطرافه ، والامانة العلمية في ايراد الآراء والنظريات وان يقنع واضع الرسالة أسلوب البحث الحديث وطرائق النقد الحديثة في ايراد نظرياته ومناقشتها كما يشترط ان تكون الرسائل قد وضعت خصيصاً لهذه المباريات ولم يكن قد سبق طبعها ونشرها . وألا تقل عن مائتي صفحة من القطع المتوسط . وتتولى الوزارة نفقة طبع الرسائل التي تنال الجوائز ونشرها وتحفظ للمؤلف قسطاً من ارباحها

وقررت الوزارة ان «تحدد هذه المباريات في كل عام مدة غايتها ستة اشهر تبتدىء من اول يونيو وتنتهي في آخر نوفمبر يتقدم فيها المتبارون برسائلهم للوزارة غير مطبوعة »

٣ — والمباراة الثالثة خاصة « بالفنانين المصريين لاظهار بعض النواحي القومية في قالب فني » وان « يعرض كل ما يقدم من الآثار الفنية في معرض عام يقام في شهر نوفمبر من كل سنة وتؤلف لجنة محلية من ذوي الاختصاص لفحص ما يقدم من هذه الاعمال الفنية وتقرير الصالح منها للعرض واختيار الاعمال الممتازة لشرائها وضمها الى مقتنيات وزارة المعارف لتكون نواة لمتحف للموضوعات القومية وتوزيع جوائز على المتفوقين » . والمبلغ المرصود للجوائز ٥٠٠ جنيه وهي تتفاوت من ٥ جنيهاً (جائزتان) الى ٣٠ جنيهاً (٤ جوائز) الى ١٥ جنيهاً (ثمان جوائز) الى ٨ جنيهات (١٠ جوائز) الى ٥ جنيهات (ست عشرة جائزة) ولما كانت المذكرة التي وضعها مراقب الفنون الجميلة تعتبر برنامجاً للناحية القومية في النشاط الفني فاننا ننشر ما يلي منها :

لما كانت الفنون الجميلة تسام في نهضات الشعوب بنصيب وافر لا يقل بحال عن نصيب قادة الفكر ودعاة الاصلاح وهداة الوطنية بما لها من أثر في ارهاف الحس وتحريك العواطف بحيث كانت ولا تزال من أبلغ الوسائل وأقدر العوامل على حفز الهمم واذكاء جذوة الحياة في الامم اذا توجهت هذه الوجهة بدافع صدق من اشتراك اصحابها الفنانين مع ابناء وطنهم في البواعث والشعور وبخاصة انها أقرب من غيرها من وسائل التعبير الى مخاطبة الامة جماء بحكم انها تصويرية تمثل للعيان وتقع تحت الحواس الظاهرة

ولما كان فنانو مصر الحديثة حريصين الحرص كله على المساهمة في نهضتها كأسلافهم فنانى مصر القديمة الذين خلدوا على السطح مفاخرها الغراء الباقية على الدهر . تتشرف المراقبة باقتراح ما يأتي :

أولاً — دعوة الفنانين المصريين — وبلادنا في أبان نهضتها واستئناف عزها — الى ان يستقرا لتعزيز الروح القومي بفنهم مع الحرص على رسالة الجمال التي هي رسالتهم . وذلك بمعالجة الموضوعات الآتية وما يجري مجراها : —

(التاريخ المصري) يعد التاريخ المصري في أحقابه المتطاولة ، وما تداول أثناءه من دول وما تخللهُ من أحداث جسام، من أجمل التواريخ قديماً وحديثاً بالمواقع الحاسمة والمواقف الرائعة .

حضرة صاحب السعادة الاستاذ محمد الشناوي بك
وكيل وزارة المعارف

فهو يحدث عن وقائع حربية براً وبحراً وعما كان فيها من هجوم ودفاع ، وحصار واستيلاء على الحصون والقلاع واشتباك بين العمائر البحرية وعما كان من توديع لجيش المسافر واستقباله في عودته استقبال انتظار ، وعما يصحب ذلك من معارض الاسلاب ومواكب الاسرى ، وكذلك مداولات القواد والتقاء أمراء العسكرين واجتماعات التحكيم والمصالحة وما اليها . ولا جرم ان مثل هذه الصور تحتاج الى دراسات تاريخية عميقة للعصر وأزيائه ونوع ادواته وأساليبه المناشية وملامح الوجوه وسماتها وعلى الاخص في الصور التي تلتقي فيها أجناس عدة بالمصريين كالحثيين والاحباش والنوبيين والاشوريين والاغريق والفرس في التاريخ القديم ، وكالعرب والصليبيين من مختلف الممالك في القرون الوسطى ، وكالاتراك والمماليك في العصور الحديثة . على أن هذا الجهد الذي يتكلفهُ الفنان يسفر عن اروع الصور والتماثيل وأوقاها بالمتعة والفائدة . ومع أن الغرض من هذه الصور تقوية الروح القومية في الامة وتمويدها الافتخار بتاريخها وتوكيد ثقتها بنفسها فليس معنى ذلك قصر آثار الفنانين على الانتصارات بل يصح تصوير الوقائع التي منيت فيها الجيوش المصرية بالهزيمة لتأليب الاعداء عليهم او لغير ذلك من الاسباب الخارجة عن ارادتهم مع ابراز ما اظهروه من معاني الاستبسال والاقدام على التضحية وبذل النفس الغالية في ميدان الشرف

﴿ الآثار التاريخية ﴾ من شأن الفن الالتفات الى الآثار التاريخية ولا يكون ذلك بنقلها نقلاً فوتوغرافيًّا بل بالاعتماد على هذه الاطلال الدوارس يعيد الفنان بخياله بناءها كما كانت في في عهد ازدهارها ويسمرها باهلها سواء أمعابد كانت ام قصوراً . ويسري هذا على الآثار الفرعونية كما يسري على الدور العربية وجميع الآثار الاسلامية

﴿ الموضوعات الدينية ﴾ في تاريخنا الديني كثيرون دعوا الى الحق وآثروه على حطام الدنيا وزخرف الحياة ، وما زالت سيرتهم العاطرة تخفف من سلطان المادة على النفوس وتلطف من كثافتها . ولهؤلاء في مصر أضرحة ومقامات وصل بناء لاستقاء السابلة كما ان فيها فضلاً عن المساجد والجوامع زوايا لعبادة الله ليس لها ضخامة تلك وثخانتها ولكن عليها سمة من القدسية تخشع لها النفس . والفنانون يجدون في سيرة هؤلاء وآثارهم معيناً طاهراً يستوحون منهُ موضوعات تشعر بعظم الحياة الروحية ومتعة الاشتغال بما فيه صلاح الناس ورضى الله

﴿ المناظر الطبيعية ﴾ بعض المواقع الطبيعية المألوفة في مصر تتعلق بها ذكريات قديمة فاذا تشبع الفنانون بهذه الذكريات وجلوها على مسرح هذا المنظر كان المنظر الطبيعي بما يضيف اليهِ من المعاني وما غمره من خيالات الماضي أملأ للعين وأوقع في النفس

﴿ الاساطير والقصص الشعبية ﴾ لدينا من هذه الاساطير والقصص الشعبية ما لا يقل عما لدى الامم الاخرى بل ربما يزيد عليها ثروةً وغنى . وفي امكان الفنانين الايحاء بما فيها من المعاني

الرمزية من غير اخلال بمذاهبها الاولية كما هو الحال في تفسير الخرافات الاغريقية مثلاً . ولا شبهة في ان أمثال هذه الموضوعات تلذ الخاصة كما تسموى العامة وليس أجدى على النهضة من اشتراك طبقات الامة جميعاً في قوة الشعور بها

﴿ المرأة ﴾ . كذلك لا يصح اهمال المرأة وهي عروس الفنون وصاحبة وحيها على ان يختار الفنانون المرأة في أوج سموها وعظمتها النفسية لا لمجرد فتنتها الجسدية . والتاريخ المصري حافل بالنساء العظيمات ممن جلسن على عرش مصر وغيرهن ممن اشتركن في الذود عن الدين وحماية ذمار الوطن وكن مثالاً للخير والفضيلة .

ومما يتبع المباريات في تنشيط الحركة الفكرية والفنية في البلاد قرار أصدره وزير المعارف بانشاء لجنة برآسة معاليه وعضوية الشيخ مصطفى عبد الرازق بك والدكتور طه حسين بك والاساتذة احمد امين وخليل مطران وعباس محمود العقاد وابرهيم عبد القادر المازني وتوفيق الحكيم « لبحث وسائل تنظيم الحركة الادبية في مصر » لانهُ قد تبين « ان الحركة الادبية في مصر وان كانت قد نشطت وأصبح بها أثر ظاهر في تثقيف الجمهور وتوجيهه الا انها لا تزال يعوزها التنظيم الذي يكفل لها اطراد التقدم وحسن التوجيه وبما انهُ قد نبتت فكرة الدعوة الى انشاء مجمع أدبي مصري يقصد به على الاخص الى تنظيم الحياة الادبية في مصر وايجاد صلة منظمة تربط الادب والادباء والجمهور التي تبذلها وزارة المعارف في تنشيط هذه الناحية وتعاون على تنمية الثروة الادبية في البلاد على غرار ما هو متبع في البلاد ذات النهضات الادبية الكبيرة »[1]

— ٣ —

هذا وقد ألقى معالي وزير المعارف خطبتين نفيستين في شؤون التربية والتعليم احداهما في اجتماع المدرسين في يوبيلهم الاحتفالات بالجامعة المصرية والثانية في اجتماع رجال التعليم الالزامي ومن بواعث الاسف ان المجال لا يتسع لنشرهما كاملتين فاخترنا مقتطفات استوقفت نظرنا بما فيها من الحكمة العالية وصدق النظر قال : —

« على ان الامر في التربية والتعليم وضرورة تأثرهما بالفكرة القومية والتضامن القومي على الاجيال لا حاجة للانتفاع به الى هذه الموازنة بين العلم والعالم[2] ، والانسانية والانسان . بل الامر

(١) أما القسم الثاني من اعمال وزارة المعارف في العهد الاخير فنصرف الى دراسة مشكلات التربية وفي مقدمتها مشكلة اللغة العربية وتسهيل تعليمها وأساليب تلقينها بحيث يخرج الطلاب وهم ملكون لناصيتها . ومشكلة المركزية واللامركزية في تنظيم الوزارة الادارية . وقد وضعت لجنة تواليها الدكتور طه حسين بك والاساتذة احمد أمين وعلي الجارم بك ومحمد ابو بكر ابراهيم وابراهيم مصطفى وعبد المجيد الشافعي تقريراً شاملاً في الاول . وأعد سعادة الاستاذ محمد الشماوي بك وكيل الوزارة مذكرة نفيسة خاصة بالثانية . وسنعالج الموضوعين في عدد تالٍ (٢) اشارة من الوزير الى القول بأن العلم لا وطن له والقول الآخر بأنه اذا لم يكن للعلم وطن فللعالم وطن وقول الوزير ان العلم له وطن كذلك وانه يتألم

فيهما أيسر من ذلك بكثير . فكنا متفقون على ان افضل وسائل التربية والتعليم بالنسبة للناشئة ما كان المثل الحي امامه وما وقع عليه الحس او استطاع ان يتصل به . فما استطاع المتعلم ان يلمسه بيده ويراه بعينه ويسمعه بأذنه هو الذي يمثل الحقيقة في ذهنه ، وهو الذي يترك الأثر الباقي في نفسه . الناشيء الذي يرى الجبل ترسم صورته في ذهنه ولا يسهل ان يغيب تعريفه الجغرافي عن ذاكرته . والناشيء الذي يرى صورة موقعة حربية منقوشة على لوحة من اللوحات او ممثلة امامه في السينما يبقى ذاكراً لما رأى من ذلك اضعاف ما يذكره من حفظ عن ظهر قلب ماجرى في هذه الواقعة مما مثلته الصورة او استظهرته الشاشة البيضاء . واذا كانت قواعد العلم الحديث تستلهم سنن الكون من المشاهدة والملاحظة ، ثم من المقارنة والتبويب ، ثم من استقراء ذلك وترتيب النتائج عليه ، كذلك يفعل الناشيء ، وكذلك يجب ان يعوده المعلم ان يفعل ، فيما يقع عليه حسه من المرئيات والمسموعات وغيرها من سائر المحسوسات »

* * *

« التعليم الذي يعتمد على البيئة القومية له — فضلاً عما سبق — أثر في الحياة لا سبيل الى درك من طريق آخر . لقد قدمت ان عمل الاجيال يجب ان يفضل متضامناً لزيادة الثروة القومية ، معنوية كانت هذه الثروة أم مادية ، ولا يمكن ان تزيد هذه الثروة الا اذا عرف الابناء ما عمل الآباء في أمرها . فاذا لم نقف على تاريخ صناعتنا وفننا وأدبنا وعلمنا وكل مظهر من مظاهر حياتنا وجعلنا همنا الى استعارة معارفنا من غيرنا ، كان ما يتركه كل جيل مختلفاً عما يتركه الجيل الذي سبقه ، غير قابل للالتئام معه الا بمجهود يحتاج الى زمن والى رجوع الى المقومات القومية التي تساعد على النجاح فيه . فاما اتصال التعليم بالحياة القومية على الاجيال فيعفيها من هذا المجهود الذي يذهب الكثير منه سدى ، ولا يؤول الى النتيجة التي نرجوها من اتصال المزيد في ثروتنا »

* * *

« وأقف قليلاً لاقول ان الحرية التي يفهمها المذهب ليست الفوضى ، وانما هي النظام . فالحرية القائمة على أساس من التربية العقلية السليمة تجعلنا نزيد خطواتنا للسير في السبيل المستقيم الذي يبلغ بنا الى الغاية التي نبتغيها

« الرجل الذي يقدر الحرية على انها النظام ، ويقدر ذلك عن علم ، يؤمن بأن واجبه الاول ان يحترم حرية غيره ، وان يؤدي بذلك للغير واجبه ، وان يتعاون مع الغير مقابل تعاون الغير معه ، وان يقوم بواجباته لذلك طائعاً مختاراً مؤمناً بأن في ذلك الخير له ولاشاله جميعاً ، مطالباً اياهم بأن يؤدوا واجبهم كما يؤدي هو واجبه »

« وحسبكم تقدروا جلال هذه المهنة ان تذكروا ان المعلم الالزامي يحل من الاطفال الذين يعهد اليه بتربيتهم محل الاب والام ، وان عليه في هذا الدور من أدوار حياتنا القومية واجبات نحو هؤلاء الابناء اكبر من واجبات آبائهم وأمهاتهم . فهو يتولى أمر هؤلاء الاطفال من اطفال اليوم ورجال الغد ، وهم لا يزالون في السابعة من عمرهم . ويتولى أمرهم وقليل منهم من عني أهله بتربيته في السنوات السبع الاولى من حياته ، لان هؤلاء الاهلين جهلاء ، ولانهم فوق ذلك مأخوذون عن تربية ابنائهم بالسعي للحياة والكدح فيها . فواجب على هذا المعلم ان يتم النقص في الطفل وان يقوم على تربيته وتهذيبه ليكون من بعد مصريًّا فاضلاً نافعاً في حياته الجماعة وان بعده ليكون في مستقبل أيامه شابًّا صالحاً وأباً يعنى من شئون ابنائه بما لا يعني الآباء اليوم به من شئون ابنائهم ، لانهم لم يجدوا المعلم الذي يوجههم في الحياة التوجيه الصالح ومن يؤدبهم فيحسن تأديبهم »

* * *

« وكما ان محبة المعلم لتلميذه تحرك في نفس التلميذ محبة أستاذه ، فهي بذلك اسوة حسنة ، كذلك الاسوة هي المحرك الاول للفضائل في نفس الناشيء ، وعلى محورها تقوم التربية الصالحة . والمعلم الذي يحسب ان التربية الخلقية او النفسية تقوم على التعاليم او على النصيحة التي يقرأها الاطفال او يحفظونها عن ظهر قلب دون ان يروا مثلها واضحة امام أعينهم معلم غير ناجح بل معلم مفسد للناشئة ، مفسد لزملائه اذا لم يكونوا أقوى منهُ نفساً وأكثر بقواعد التربية الصحيحة إلماماً »

« إخواني : انكم تعلمون ما لكم من أثر في البيئة التي تكونون فيها . وأنتم اليوم اعظم أثراً لانكم أنتم زعماء البيئات القارئون الكاتبون الذين ينظر اليهم الناس على انهم أولو العلم والفضل ، ومصدر الطمأنينة وحسن التقدير . فقد رأوا فيكم المثل الحقي الكريم ، ورأوا فيكم الاحتفاظ بالكرامة ، والاستقلال بالرأي ، والحرص على الخير العام كنتم لهم الائمة الصالحين ، وكنتم بذلك قد مهدتم لبلادكم طريق الرفعة والرقي السريع »

« ياحضرات المعلمين : اذا قامت التربية على أساس من عاطفة المحبة ومن الاسوة الحسنة اتجه الجميع الى مرتقى الادهم راضين مغتبطين لذلك بما طفة من الحب يزيدها ويجددها في هذا الوطن من أسباب الخير والنعمة ، وما يجدونهُ في تاريخهِ من دواعي الفخر والمجد . وحسبكم انتم رجال التعليم الالزامي ان تعلموا ان كل قلم ينطوي عليهِ من خير أقامه الله عليهِ ، وما كان لهُ على التاريخ من أثر في العصور الخالية ، وان تعلموهم ذلك بقصة سهلة يفهمونها ويحبون لذلك من أجلها نفسهم ، لتكونوا قد بلغتموهم رسالة المعلم الالزامي بعد ان تكونوا قد قمتم بدوركم الجليل في تربيتهم وتعليمهم »

مؤتمر علم النفس

الحادي عشر [1]

للدكتور مظهر سعيد

عقد مؤتمر علم النفس الدولي الحادي عشر بباريس في ٢٤ يوليه الماضي (١٩٣٧) وظل منعقداً ثمانية ايام متتالية بالسربون . وافتتحهُ المسيو دلبوس وزير الخارجية وختمهُ وزير المعارف المسيو جان زاي . وقد مثل فيهِ نحو ثلاثين دولة وعشرين جامعة ومعهداً علميًّا كبيراً وحضره نحو ثلثمائة عالم اختصاصي في علم النفس كاعضاء عاملين ومائتي اخصائي في العلوم الاخرى المتصلة بعلم النفس وغيرهم من المستمعين كاعضاء منتسبين . ومثلت فيهِ من البلاد الشرقية اليابان والصين والهند ثم مصر لاول مرة في العام الماضي . وقد بلغ من اهتمام الحكومة الفرنسية بهِ دون سائر المؤتمرات الدولية التي عقدت بباريس وهي بالمئات — أن أقام رئيس الجمهورية بقصر الاليزه ووزيرا الخارجية والمعارف ومدير الجامعة ومدير البلدية وعمدة باريس ومكتب المعرض الدولي مأدب متعددة كان الاعضاء فيها موضع الحفاوة والتكريم . ونظمت لهم شركات السكك الحديدية وأقسام المباحث الجنائية وشركات الاجهزة السيكولوجية ورآسة اركان حرب الجيش — زيارات خاصة للمعامل وكذلك مستشفيات الامراض العقلية والعصبية . وتح لهم اللوفر مساء ليرود بأنواره المتجلية وألقى العلماء الاخصائيون محاضرات في سيكولوجية التاريخ والفن والديانات واعدت لهم حفلات تمثيلية خاصة بمسارح الشاتليه وسانت انطوان ومدينة الجامعة مثلت فيها روايات سيكولوجية عامة متصلة بدراسة علم النفس مثل أوديب الملك وهاملت وماكبث وقطع ممتازة من موليير . ودعاهم المعرض لحفلة ساهرة على السين . ولهذا كله أثره الكبير في تعريف علماء النفس بعضهم ببعض واطلاعهم على ما يقومون بهِ من مباحث لم تقدم بعد للمؤتمر وعرض ما تقوم بهِ بلادهم في هذا الشأن . فهو في الواقع يجيء اطيب الفرص للدعاية القومية بطريقة علمية

ولهذا المؤتمر شأن خاص في ميدان البحث العلمي فهو يعقد مرة كل خمس سنوات ليعرض

---

(١) المقتطف : اتفق لاسد اصدقاء المقتطف ان كان يزور الدكتور مظهر سعيد فدار الحديث على بعض وجوه التقدم في علم النفس فحدث الدكتور مظهر عن مؤتمر علم النفس الدولي الحادي عشر الذي عقد في باريس في يوليو سنة ١٩٣٧ فطلب اليه ان يتحف المقتطف بحديث هذا المؤتمر فلبى . فنحضه خالص الشكر

فيه العلماء آخر ما وجدَّ في العلم من بحوث ونظريات وما ابتكر من اجهزة وطرائق وبالجملة كل جديد ظهر خلال تلك السنوات. وقد قدم له نحو ثمانية آلاف بحث من مختلف أنحاء العالم لاساطين هذا العلم وجماعة المشتغلين بفروعه المتعددة. ومع كثرته لا يمثل الا جانباً العظيم في علم النفس وفروعه المتعددة لان المؤتمر يلزم العلماء ألاَّ يتقدم الواحد منهم اكثر من بحث واحد ذي صورة مختصرة. وقد أخذ المكتب الدائم للمؤتمر وهو مؤلف من خمسة عشر عالماً مختلفي الجنسيات أمثال ثورندايك في أميركا وسبيرمان وبيرز وذلتين في انجلترا وبيرون في فرنسا وجانيت وكلاباريد في سويسرا وكنكا وكوهلر في المانيا وبيزو في ايطاليا وغير ذلك من الاسماء العالمية المعروفة — أخذ في دراسة ما قدم له من بحوث زهاء شهرين فأقرَّ منها مائة وثمانية وعشرين فقط طبعت خلاصتها ووزعت على الاعضاء قبل انعقاد المؤتمر لدراستها ومناقشتها. ويخصص لصاحب كل بحث مقبول عشرون دقيقة يشرح فيها بحثه ونظرياته على الاعضاء ثم يناقشونه عشرين دقيقة أخرى وبمقتضى نصي اللجنة الدائمة قراءها في البحث بالقبول او الرفض او الاشارة بالتعديل واعادة العرض في المؤتمر الثاني عشر الذي سيعقد بفينا سنة ١٩٤٩ عدا بحوث اللجان المشكلة من قبل والمناظرات بين العلماء أصحاب النظريات المتعارضة. ولذلك تجد هذا المؤتمر علميًّا بحتاً وجديًّا ومرهقاً لان المؤتمر ينعقد في كل يوم ثماني ساعات كاملة كلها بحوث ومناقشات فلا يتسع فيه الوقت لكلمات الترحيب أو عبارات الشكر وخطب ممثلي الدول عن بلادهم وجهودهم وبلغ تقوتهم كما يحدث عادة في المؤتمرات الاخرى. بل ان المؤتمر يبدأ بحوثه العلمية بعد خطبة الافتتاح مباشرةً. وكانت البحوث تلقى في معظم الاحيان في قاعات المحاضرات الكبرى الاربع فيسمع بعضون في وقت واحد لكثرتها. ففي الاول لعرض النظريات الجديدة البحتة وفي الثانية لنظريات المعدلة والتطبيق والثالثة للبحوث الدولية والاجتماعية والرابعة للبحوث الطبية. ولم أحضر في هذا المؤتمر شيء لم أعهد له مثيلاً من قبل. ذلك ان المقاعد ركبت فيها سماعات كهربائية تتصل بقرص متحرك يشير الى اللغات المستعملة في المؤتمر. فبتحريك القرص على لغة خاصة يستطيع العضو ان يسمع بها كل ما يقال في القاعة في الوقت الذي يتكلم فيه المحاضر مع انهُ يتكلم بلغة أخرى. ولا يتسع المقام هنا لذكر كل البحوث الهامة التي قدمت لموضوع كتاب خاص سأقوم بوضعه فيما بعد ولذلك أكتفي بسرد بعضها

(١) مشكلة المصطلحات العلمية واختلافها في اللغات المختلفة وضرورة تأليف لجان دولية للبحث في توحيدها. وقد عرضت على اللجنة نماذج من بحوثي في تعريب مصطلحات علم النفس والمعجم الذي أقوم بوضعه بالعربية وأبديت وجهة نظر البلاد العربية فوافقت اللجنة على ضمي اليها وسأرفع تقريري للمؤتمر قبل المقبل. (٢) تعديل قوانين ثورندايك في ضوء بحوث مدرسة الجشتالت. (٣) تعديل بعض الطرق والمدلولات الرياضية المستعملة. (٤) مقاييس جديدة للذكاء

والشخصية والامزجة والكفاية الصناعية . (٥) أجهزة جديدة في مختلف الفروع . (٦) كشف بعض الامور المعقدة في الاضطرابات العقلية وطرق تشخيصها بالاجهزة وعلاجها. (٧) وضع مناهج جديدة لدراسة علم النفس واعادة ترتيب فروع العلم وتدرج مباحثه على أساس جديد

وغير هذا كثير مما يهم كل أستاذ مصري لعلم النفس والفروع المتصلة به . وأرى من الواجب ان تحرص وزارة المعارف المصرية على الاشتراك في هذا المؤتمر وارسال الاساتذة الذين يستطيعون ان يقدموا بحوثاً جديدة هامة يكون في قبولها واقرارها من أكبر هيئة علمية في العالم شرف عظيم لمصر

وقد شرفتني وزارة المعارف بانتدابي لحضور هذا المؤتمر فعرضت النظريات الجديدة التي تضمنها واحد من البحوث الواسعة التي قمت بها في مصر وانجلترا . ومن فضل الله أني وجدت بحثي مطبوعاً وموزعاً مع البحوث المائة والعشرين التي قبلت مبدئياً وازداد سروري عندما تقرر ان يكون بحثي الرابع بين جميع البحوث وان ألقيه في اليوم الاول بقاعة ريشيليو وسط عرضه والمناقشة فيه تررت اللجنة الدائمة هذا القرار الذي يشرفني ويشرف مصر : « ان هذا البحث مستوفي لجميع الشروط العلمية ونظرياته مقبولة برمتها وفي ضوئه تتضح البراهين القاطعة ان البحوث السابقة التي عالجت هذا الموضوع خاطئة ولا يركن اليها . وسينشر البحث في الكتاب الرسمي للمؤتمر. ولهذه المناسبة أشكر لمعالي وزيرنا المفوض في باريس تهنئته الرقيقة وتشجيعه العظيم وكذلك مندوبي الصحف المصرية الذين بادروا باعلان هذه النتيجة لصحفهم في مصر وجميع الذين عاونوني في البحث بانكلترا ومصر من أساتذة وزملاء وتلاميذ وطلاب فلهم الفضل كل الفضل في نجاحه

ولا يتسع المقام لذكر تاريخ هذا البحث والتجارب التي أجريت والطرائق التي اتبعت فأضمن كل ذلك كتاباً بالانكليزية وآخر بالعربية ارجو ان تساعدني الوزارة بطبعها على نفقتها

ولذلك أكتفي الآن بسرد النظريات والنتائج التي توصلت اليها : —

١ — أثبت بالبرهان القاطع وجود استعدادين طبيعيين مورثين متمايزين : أحدهما الاستعداد اللوني ويشمل كافة العمليات العقلية التي تتناول الالوان كالتعرف والتذكر والتعبير والتقدير والمقارنة والحكم . والثاني الشكلي للاشكال وقد ضمت لهما رموز خاصين

٢ — لكل استعداد عامل عام يتناول كل الالوان ومجموعها أو الاشكال على اختلافي أنواعها . وهذا العامل ليس لهُ أي ارتباط بالذكاء العام . فسرعة تذكر الالوان أو غيرها مثلاً ليس دليلاً على الذكاء العام بأي حال من الاحوال كما افترض العلماء والفلاسفة السابقون حتى العالم الفرنسي بينيا واضع اول أساس لقياس الذكاء . فحجمه تميز الالوان الاربعة المشهورة مقياساً للذكاء في سن معينة عند الاطفال

٣ — ومع هذا فالاستعداد اللوني بدوره تتبعهُ ستة استعدادات خاصة مستقلة لكل لون من الالوان الرئيسية . فيكون الانسان قوياً في تمييز الالوان الحمراء وضعيفاً في الزرقاء . كذلك

أربعة عوامل أخرى خاصة بدرجات الالوان

٤ — وفي الاشكال كشفت خمسة عوامل مستقلة خاصة للاشكال المنتظمة وغير المنتظمة وذات الخطوط المستقيمة وذات الخطوط المنحنية والاشكال المؤلفة من الاثنين ووضعت لها هذه الرموز

٥ — التمرين على الالوان في التربية الفنية لا ينتقل اثره الى الاشكال واكثر من هذا ان التحسن في مجموعة ألوان لا ينتج تحسناً في مجموعة اخرى ولا التمرين على رسم الاشكال المنتظمة يفيد في رسم الاشكال غير المنتظمة

٦ — الاستعدادات اللونية لا تظهر في الطفل دفعة واحدة وانما لكل منها سن خاصة ينمو فيها ويظهر على أتمه وانبات على العموم اقدر من الاولاد ويصلون الى سن النضوج اللوني قبل الاولاد بسنتين طويلة

٧ — لكل من الجنسين ألوان خاصة يكون استعداده فيها قويًّا عن الجنس الآخر وغير ذلك من النتائج الفرعية . وسيكون لتطبيق هذه النظريات اثر عظيم لا في علم النفس فحسب وانما في التربية الفنية وتشخيص الامراض العصبية وتحليل انواع الشخصية

ويكفيني فخراً وتشجيعاً ان العلماء في اوربا قد اعترفوا بهذه النظريات من سنة ١٩٣١ وأقروها في بحوثهم ومؤلفاتهم واتخذوها اساساً لبحوثهم الجديدة منذ اطلاعهم على النسخ القليلة التي طبعتها بالجلاتوا سنة ١٩٢٩ وان كان اثر هذا لم يصل لمصر بعد

فهذا الاستاذ الماش يقول في مجلة علم النفس الالمانية سنة ١٩٣٤ ان هذه النتائج تثبت ان البحوث السابقة للعلماء (كاتز ريفيز . فولكلت . كوينبرج) كلها خاطئة في طريقة البحث وان أساس تحليل الشخصية الذي وضعه (جانيش وكريتشمر) يجب تعديله في ضوئها. وقال الدكتور (اويسر) استاذ علم النفس العملي بكامبردج في مجلة علم النفس البريطانية سنة ١٩٣١ وسنة ١٩٣٤ وفي مقالة في مجلة (بيكي) بالنص : «ان هذه النظريات التي قدمها سعيد في بحثه القيم هي اصلح اساس لتحليل الشخصية الى نوعيها المنكمش والممتد وانها اصل من طريقة نيمان وكوهلستك . وقد أقرّ الرموز التي وضعها والتجارب التي قمت بها فاستعملها وأعادها ووجدها توصل الى نفس النتائج . وأوصت مدرسة (فورتمبرج) بتعميم استعمال هذه المقاييس على مقياس جمعي واسع وخصوصاً من الناحية الاجتماعية

وأقر الدكتور (وتجويل) الاستاذ بكامبردج النتائج التي وصلت اليها والعوامل التي كشفتها . وذكرها في كتابه «التذكر والتعرف» وقدم لمؤتمر بحثاً جديداً مبنيًّا عليها . ورأى الدكتور (مايرز) رئيس معهد علم النفس الصناعي البريطاني ان اسهم الطريقة التي ابتكرتها لتمرين ذاكرة الالوان والاشكال على جميع مدارس الفنون . وسيقوم المعهد (وأنا من اعضائه) بتطبيقها

ويسرني بعد كل هذا أني استطعت ان أقدم للادي شيئاً يشرفها ومعدنا مؤتمر فينا سنة ١٩٤١ البحث الآخر باذن الله

اعلام الطب العربي

ابن البيطار

لفؤاد عيناني

برع العرب في مختلف فروع الثقافة والعلم ولاسيما في الطب والفلك وكانوا قدوة للعلماء والاطباء في اوربا فأخذ هؤلاء عنهم مدنية الشرق واليونان . وكان للعرب نصيب وافر في اثراء الحضارة الاسلامية وبعث النهضة الفكرية وعتق الفكر من قيود الماضي والنهوض به الى اسمى مراتب الثقافة والتفكير الحر. ومن كان لهم أثر حميد في هذه النهضة العلمية الطبيب العربي الماهر والعشاب المدقق ضياء الدين بن البيطار الذي ساح في اقطار عديدة باحثاً متنقلاً فصادف كثيراً من المشاق والمصاعب في سبيل جمع النباتات النادرة الغريبة وترتيبها وتصنيفها ومعرفة فوائدها للاستفادة منها واستعمالها في الطب. وهو من أشهر من خدموا المدنية الاسلامية من ارباب العلم والفن فلم يسبقه أحد في علم النبات فكان اشهر العشابين وهو اللقب الذي كان يطلق على علماء النبات في تلك العصور الزاهرة (وكان ذكياً فطناً ثقة فيما ينقله وكان حجة واليه انتهت معرفة النبات وتحقيقه وصفاته واسمائه واماكنه لايجاري في ذلك)[1]

هو ضياء الدين ابو محمد عبدالله بن احمد المالقي النباتي المشهور ويعرف بابن البيطار . ولد في مدينة مالقة بالاندلس في اواخر القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) ويرجع بنسبه على الاكثر الى اسرة ابن البيطار التي استوطنت مالقة . درس علم النبات وفنونه على اكابر علماء عصره وكان استاذه في علم النبات ابو العباس النباتي [2] وجمع واياه نباتات كثيرة في ضواحي اشبيلية . ولما بلغ حوالي العشرين من عمره ورغب في زيادة الخبرة والمعرفة قصد الى شمالي افريقية ومراكش والجزائر وتونس فكان يبحث عن نباتات هذه البلاد ويعتني بجمعها ودرسها ويختار النباتات والاعشاب ويحققها ويبحث عن مواضع نباتها ونعت اسمائها على اختلافها وتنوعها . ورحل الى بلاد الاغارقة واقصى بلاد الروم واجتمع بجماعة كثيرة من الذين يعانون هذا الفن واخذ عنهم معرفة نبات كثير وعاينه في مواضعه واجتمع في المغرب وغيره بكثير من الفضلاء في علم النبات وعاين منابته وتحقق ماهيته . وظل مدة طويلة في ايطاليا وبلاد اليونان فاجتمع بعلماء الافرنج وباحثهم في النباتات والاعشاب وقد راجع كتاب (ديسقوريدس) العالم

(١) فوات الوفيات ج ١ ص ٤٠٢ (٢) هو ابو العباس احمد بن محمد بن مفرج النباتي المعروف بابن الرومية وهو من اهل اشبيلية وقد ترجمته في طبقات الاطباء لابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ٨١

المعروف النباتي اليوناني وحقق أسماء النباتات وصحح الاسماء العربية وبحثها بحثاً فنياً (٣)

ولما عاد من أسفاره رحل الى مصر وكان حينئذٍ ملكها الكامل محمد بن أبي بكر بن أيوب فأعزه وأكرم وفادته ومثواه . وكان يعتمد عليه في المسائل النظرية والادوية المفردة والحشائش وجعله في الديار المصرية رئيساً على سائر الشاوين ، صحاب البصاصات . وهذا مما يدلنا على مكانته الرفيعة في علم النبات وما حازه من ثقة وطيدة لدى ملك . ثم رافق الملك الكامل في رحلته الى الديار الشامية وهناك التقى بابن ابي أصيبعة صاحب كتاب (عيون الانباء في طبقات الاطباء) فأدهشهُ وأعجب به اعجاباً عظيماً . وهذا حديث ابن ابي اصيبعة عنهُ وعن مقابلته لابن البيطار قال :

« أتقن (ابن البيطار) دراية كتاب ديسقوريدس اتقاناً بلغ فيه الى ان لا يكاد من يجاريه فيما هو فيه وذلك اني وجدت عنده من الذكاء والفطنة والدراية في النبات وفي نقل ما ذكره ديسقوريدس وجالينوس فيه ما يتعجب منهُ . وأول اجتماعي به كان بدمشق في سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ورأيت ايضاً من حسن عشرته وكمال مروءته وطيب اعراقه وجودة أخلاقه وكرم نفسه ما يفوق الوصف ويتعجب منهُ ولقد شاهدت معهُ في ظاهر دمشق كثيراً من النبات في مواضعه وقرأت عليه ايضاً تفسيره لاسماء أدوية كتاب ديسقوريدس فكنت أجد من غزارة علمه ودرايته وفهمه شيئاً كثيراً جداً وكنت أحضر لديه عدة من الكتب المؤلفة في الادوية المفردة مثل كتاب ديسقوريدس وجالينوس والغافقي وامثالها من الكتب الجليلة في هذا الفن فكان يذكر أولاً ما قالهُ ديسقوريدس في كتابه باللفظ اليوناني على ما قد سمعهُ في بلاد الروم ثم يذكر جملاً مما قالهُ ديسقوريدس من نعته وصفته وأفعاله ويذكر ايضاً ما قالهُ جالينوس فيه من نعته ومزاجه وأفعاله وما يتعلق بذلك ويذكر ايضاً جملاً من أقوال المتأخرين وما اختلفوا فيه ومواضع الغلط والاشتباه الذي وقع لبعضهم في نعته فكنت أراجع تلك الكتب معهُ ولا أجده يغادر شيئاً مما فيها وأعجب من ذلك ايضاً انهُ كان يذكر دواء الاديمن في مقالة هو من كتاب ديسقوريدس وجالينوس وفي اي عدد هو من جملة الادوية المذكورة في تلك المقالة »(٤)

كان ابن أبي اصيبعة تلميذاً لابن البيطار وقد رافقهُ في رحلاته وتتلمذ له في صاحية دمشق . ولما توفي الملك الكامل بدمشق وتولى الملك خلفهُ ابنهُ الملك الصالح نجم الدين ايوب ، عاد ابن البيطار الى مصر ودخل في خدمة ذلك الملك أحد ابنائه وكان حظياً عنده مقدماً في أيامه)(٥) . وكانت وفاة ضياء الدين بن البيطار فجأة بدمشق في شهر شعبان سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) .

﴿ مؤلفاته ﴾ لما خرج ابن البيطار في رحلته العلمية جوّال في أنحاء سورية وآسيا الصغرى (بلاد الروم) باحثاً منقباً عن النباتات والاعشاب كان يقوم برحلته هذه كطبيب نباتي يجمع

(٣) قاموس الاعلام ش . سامي م ١ ص ٦٠٩ (٤) طبقات الاطباء — ج ٢ ص ١٣٣
(٥) طبقات الاطباء ج ٢ ص (١٣٣)

كثيراً من النباتات والعقاقير وأتحف العالم بكتابه المشهور « الجامع في الادوية المفردة » [٦] الذي صنفهُ للملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل [٧] بعد رحلته الى مصر وبلاد اليونان وآسيا الصغرى [٨] . وهو كتاب فريد في بابه جليل الاثر عظيم الفائدة . وهو أهم ما كتب عن الادوية المفردة وهو عبارة عن معجم طبي او مجموعة مرتبة على الاحرف الهجائية، يشمل النبات والحيوان والمعادن وقد اعتمد في تأليفه على مؤلفي الروم والعرب وعلى تجاربه هو نفسه [٩] . (ووصف فيه اكثر من ١٤٠٠ دواء وعقار مما يستعمل في الطب وقابل ذلك مع تآليف ومصنفات اكثر من ١٥٠ من المؤلفين القدماء والعرب . والكتاب المذكور يتضمن ملاحظات دقيقة ويدل على براعة فائقة ومعرفة واسعة في هذا العلم . وهو اعظم كتاب عربي في علم النبات .) [١٠] (وقد استقصى فيه ذكر الادوية المفردة واسمائها وتحريرها وقواها ومنافعها وبين الصحيح منها وما وقع الاشتباه فيه ، ولم يوجد في الادوية المفردة كتاب أجل ولا أجود منهُ [١١]) . وهذا ما يقوله عنهُ ابن سعيد [١٢] في كتابه المغرب (حشر فيه ما جمع به فقدر عليه من تصانيف الادوية المفردة ككتاب الغافقي وكتاب الزهراوي وكتاب الشريف الادريسي الصقلي وغيرها وضبطهُ على حروف المعجم وهو النهاية في مقصده .) [١٣]

وقد ترجم (لوكلير) [١٤] هذا الكتاب الى اللغة الفرنسية وضمنه في المجموعة المسماة Notices & Extraits التي تولى نشرها مجمع المخطوطات والآداب . وكان غلان Gallard قد ترجمهُ الى اللاتينية ولكنهُ لم يطبع ولا يزال محفوظاً في (المكتبة الوطنية) في باريس. وكانت مدارس الاندلس، كما يقول « لوكلير » تمتاز بصورة خاصة بدروس التاريخ الطبيعي ولا سيما ما يتعلق بالنباتات والعقاقير [١٥] . وله ايضاً (كتاب المغني في الادوية المفردة) — ويعرف بمفردات ابن البيطار — وهو بحث مختصر في الادوية ومرتب بحسب مداواة الاعضاء المريضة ، ومؤلف بالنظر لاستعمالها في الطب . وقد طبعت بعض اجزاء مفردات ابن البيطار باللغة اللاتينية في سنة ١٧٥٨ في مدينة قرمونة Cremona بايطاليا [١٦] . ومن اشهر مؤلفاته — (كتاب الابانة والاعلام بما في المنهاج من الخلل والاوهام) و (شرح ادوية كتاب ديسقوريدس) و(كتاب الانمال الغريبة و خواص الاشياء)

---

(٦) طبع في سنة ١٢٩١ هـ تحت عنوان (الكتاب الجامع لمفردات الادوية والاغذية) (٧) قاموس الاعلام م ١ ص ٦١٠ (٨) نيكلسون — تاريخ العرب الادبي ص ٤٣٤ (٩) دائرة المعارف الاسلامية (النسخة الفرنسية) الكراس ٢٤ ص ٣٨٨ — ٣٨٩ (١٠) تراث الاسلام ص ٣٣٩ (١١) طبقات الاطباء م ٢ ص ١٣٣ (١٢) هو ابن سعيد المغربي — ابو الحسن نور الدين علي بن موسى (٦١٠—٦٨٥هـ) من عاظم أدباء الاندلس وشعرائها مؤلف (المغرب في حلى المغرب) و (المشرق في حلى المشرق) (١٣) راجع فتح الطيب م ٢ ص ٤٤ (١٤) Jean Leclerc بحاثة فرنسي — سويسري (١٦٥٧—١٧٣٦) وناشر المكتبة العمومية والتاريخية Bibliotheque universelle & historique في مدينة امستردام في ٢٥ مجلداً (١٦٨٦—١٦٩٣) (١٥) مفكرو الاسلام ج ٢ ص ٢٩١ Les Penseurs de l'Islam (١٦) تراث الاسلام ٣٥٣

الحلم الحالم

لحسن كامل الصيرفي

في اي أودية الخيال . بأي افلاك الجلال
طوّفتِ يا حُلماً يطوفُ عليّ في ساع الليالي ؟

***

يا ليتَ للقلبِ الشُجونِ جناحَ رُوحي او خيالي
لبطتُ فوق جفونكِ السُكْرَى وريفاً من ظلالي
ولَمِستُ بالطيفِ الجميلِ بُرُودُ أوديةَ الجمالِ
لكنّ لي أسْراً من الرّغباتِ قَوّارَ القضالِ
أنا فيهِ مشدودُ الوَثاقِ . فهل تُمكّنِ اعتقالي ؟

مؤلفاته

بقلم منوشهر مؤدب زاده
صاحب مجلة نما الايرانية

١ — مؤلفاته الفارسية

(١) كتابه المسمى (دانشنامه أو حكمت علائي) وقد سمّاه بعضهم (دانش مايه) وظنه جزءاً من الكتاب المسمّى (حكمت علائي) والاصح أنهما اسمان لكتاب واحد والاختلاف الذي أوقع البعض في الخطأ هو من انتساب الكتاب الى علاء الدولة كاكويه المتقدم ذكره والاسم الذي سمّي به الكتاب . وقد أراد الشيخ بتأليف هذا الكتاب أن يجعل جميع الاجزاء والمباحث الفلسفية بالفارسية ولكنهُ لم يؤلف منهُ سوى قسم المنطق والالهيات والطبيعيات ويُعَدُّ هذا الكتاب من أحسن تآليفه ولا يختلف كثيراً عن كتاب النجاة المؤلف بالعربية . وكان أهم ما يومىء اليه الشيخ في هذا الكتاب محاولة جعل المصطلحات الفلسفية العربية بالفارسية وبذلك أصبح الكتاب أحد المنابع اللغوية الاحد تلامذة الشيخ المسمّى (بَهْمَنْيَار) شرح على هذا الكتاب وقد ضمّنهُ الاعتراضات التي كانوا اوردوها على استاذه وقد أجاب هو عليها وسمّى كتابه هذا « بالتحصيل » . ولدانشنامه انسجام وفصاحة معجبة بالقياس الى الفارسية المستعملة في ذلك العصر وأضف الى سلاسة البيان انهُ أول كتاب في الفلسفة كتب باللغة الفارسية ولكن اذا قسنا هذا الكتاب بالكتب الفارسية الاخرى التي كتبت بالفارسية بعد ذلك ككتب افضل الدين الكاشاني مثلاً وجدناه يقلُّ عنها في الانسجام والسبك

وقد ألف الشيخ كتابه هذا املاء الدولة بن كاكويه وقد اثنى في المقدمة على حسن اصطناعه اياه واشفاقه عليه وشكره لهُ ما اولاه إياه وقال في حقه : (اني وجدت كل آمالي عنده). وقد ظنّ بعض الناس ان كتاب « دانشنامه » هو آخر كتاب ألّفهُ الشيخ لانهُ لم يمكّن من إتمام تأليفه فأتمهُ أبو عبيد الجوزجاني وكتب مبحث الرياضيات منهُ وليس هذا بالدليل القاطع اذ يمكن ان يشغل المؤلف مشاغل عن اتمام ما يؤلفهُ ويوقفهُ ردحاً من الزمن وفضلاً عن هذا فان هذا القول

يخالف ما قاله المؤرخون حيث انهم اتفقوا على ان آخر تأليف للشيخ هو كتاب الاشارات

(ب) الرسالة المسماة بالمعراجية وقد ألف الشيخ هذه الرسالة لابي جعفر بن كاكويه وهي تشتمل على تأويل للاصطلاحات الشرعية وتفسيرها ومعنى ما ورد منها كروح القدس والوحي وكلام الله والنبوة والرسالة والشريعة . وبعد ذكره القوى الانسانية في المقدمة وبيانه أن وجهة الحركة تجب ان تكون متناسبة مع المتحرك والحركة يبرهن في النتيجة على ان المراد بالمعراج هو معراج الروح وبالعلو علو شرفي ويؤول مسألة المعراج على طريقة الحكماء . والظاهر ان جلال الدين الرومي قد استفاد من هذه الرسالة حيث يقول بالفارسية :

گفت پیغمبر که معراج مرا نیست بر معراج یونس اجتبا
آن مرا والاوآن أوبشیب زآنکه قرب حق برون أست از حسیب
نی چو معراج زمینی تاسما بل چو معراج جنینی تا نهی

والمعنى : قال النبي ليس لمعراجي فضل على معراج يونس (النبي) عرجت الى فوق وعرج الى تحت لان قرب الله خارج عمَّا تصوره . ليس هذا كالعروج من الارض الى السماء بل هو كعروج الجنين الى النهى والعقل . وقد أوصى الشيخ في مقدمة هذا الكتاب أن لا يبوحوا بهذه الرموز والاسرار لأحد . وهو يقول « لم أكن من هذه الافكار قبل اتصالي بمجلس علاء الدولة في شيء خوفاً على نفسي واحترازاً من الخطر »

(ج) رسالة النبوة وهي رسالة صغيرة في معنى النبوة والوحي والالهام وتأويلها وهي بالفارسية وأكثرها يطابق مقدمات رسالته المعراجية ولا تختلف عباراتها عن ذلك اختلافاً كليًّا

(د) الرسالة النبضية وقد ألفها لعضد الدين علاء الدولة كاكويه وقد بيَّن فيها أنواع النبض وشرح أقسامه

الكتب العربية [1]

(ا) كتاب الشفاء — وهو كتاب كبير يشتمل على جميع علوم الفلسفة من المنطق والرياضيات والطبيعيات والالهيات ويعدُّ من أهم التآليف الاسلامية وقد شرع أبو علي بتأليفه كما يقول أبو عبيد في همذان وكان ذلك اجابةً لرجاء ابي عبيد فكتب الشيخ ٢٠ صحيفة في مبحث الطبيعيات ثم شغلتهُ الامور الديوانية والحوادث عن إتمام تأليفه . ولما اعتزل وزارة شمس الدولة عاد على بدء وألَّف كتاب الالهيات والطبيعيات سوى النبات والحيوان في ٢٠ يوماً ولم يراجع

(١) ولا عجب اذا خلف لنا أبو علي وهو من أعاظم علماء ايران وأكابرهم كتب كثيرة وآثاراً خالدة بالعربية لان البحث والفرس يكشفان لك أن غيره من علماء الامة الايرانية أيضا قد الفوا وصنفوا كتباً ورسائل في جميع الفنون والعلوم بالعربية وقد خدموا هذه اللغة أية خدمة وأبقوا لها أثراً فقد قلدتها آثارهم بقلائد لا تنفصم وأبقت لها عزاً ومجداً لا يندثران مدى الدهر

أي كتاب . ثم شرع في تأليف منطق الشفاء ولكن طالت مدة تأليفه ولم يفرغ منهُ الاَّ في إصفهان وكذلك أتم بحث النبات والحيوان في تلك المدينة

ويزعم أبو عبيد ان عمر الشيخ كان في ذلك الوقت ٤٠ عاماً وليس هذا بصحيح لانهُ كما قدمنا فان كان عمر أبي علي في سنة ٤٠٤ هجرية ٣٢ سنة فيزن صحَّ ما يقول وجب أن يكون الفراغ من تأليف الكتاب سنة ٤١٢ اي ان يكون الشيخ في هذا التاريخ في مدينة إصفهان ولكن لا شك انهُ كان عند ذلك في همذان وكان سفره الى اصفهان بعد هذا التاريخ فلا يصح والحالة هذه ان نجعل سنة ٤١٢ السنة التي أتمَّ فيها الشيخ كتابه . وكان الشيخ قد اختصر الفنون الرياضية قبل تأليفه للشفاء ثم ألحقها بعد تأليفه به . وكان المقصود من تأليفه هو تقرير آراء الفلاسفة المشائين وتفسير معتقدهم ولذلك نراه قد اقتصر على الاخذ بترجمة كتب أرسطاطاليس وكتبها في كتاب الشفاء بعد ان هذَّبها ونقحها وأصلحها الى حدٍّ ما ولكنهُ مع ذلك لم يغفل عن تدوين آرائه وتجاربه في المنطق والطبيعيات وكذلك دوَّن قسم الموسيقى من الشفاء طبقاً لآرائه التي حصل عليها بعد فحص دقيق وتجارب صرف فيها ردحاً من الزمن

وكان أبو علي يؤلف شرحاً على الشفاء سمَّاه باللواحق وكان يؤرخ ما يؤلفهُ في كل سنة والظاهر انهُ أكبر مؤلف له شرح فيه الآراء والاقوال الفلسفية وأطنب في هذا الشرح ولم يثبت انهُ فرغ من اتمامه واعلم حقًّا أن واحداً من العلماء لم يرَ هذا الكتاب ولا نقل عنه

ويظهر من مقدمته على منطق الشفاء ان الغرض من تأليف الكتاب هو جمع خلاصة من أصول علوم الاقدمين وذكر ما أورد على كل من هذه الاصول وايضاح ما أشكل منها وان يدوِّن الفروع واصولها مع الايجاز في الالفاظ وعدم تكرار المطالب وان يدوِّن ما صحَّ بطلانه من آراء المتقدمين وعقائدهم

والظاهر مما يقوله أبو علي ان كتابه هذا قد حوى كل ما هو مدوَّن في كتب الاقدمين غير انهُ قد غيَّر مواضع الاقوال وجعل كلاًّ منها في المحل الذي يراه يليق به . وقد حذف مطالب فلسفية كان الاقدمون يدوِّنونها في المبادىء المنطقية وقال انهُ دوَّن المنطق أولاً ثم الطبيعيات ثم الرياضيات ثم شرع في تدوين علم الالهيات بعد ذلك ولكن أبو عبيد — كما أشرنا سالفاً — يقول أن الشيخ ابتدأ بتأليف الطبيعيات واذا صحَّ ما قال ابو عبيد يجب ان نحمل قول الشيخ على التدوين لا الجمع والتأليف فاذا حملناه على هذا لم يكن بينه وبين أبي عبيد اختلاف في القول

وقد وضع المتأخرون شروحاً على الهيات الشفاء ومنها حاشية آقا حسين الخونساري وملاَّ (الشيخ) أولياء وملاَّ سليمان وتعليقات صدر الدين الشيرازي والاخيرة من أهم الحواشي على الهيات الشفاء . ولا نعرف حاشية للمتأخرين على طبيعيات الشفاء اللهم الاَّ حاشية وجيزة وضعها آقا جمال

الخونساري على القسم الاول منهُ أي على كتاب السماع الطبيعي ولم يشرح باقي الكتاب ولم يوضح ذلك وليس لهُ حاشية . والظاهر ان السبب في ذلك هو عدم اهتمامهم بعلم النباتات والحيوان والعلوم الطبيعية كلية

وكتاب طبيعيات الشفاء هو المصدر الوحيد للعلماء الطبيعيين في الاسلام وربما لم تتجاوز الحقيقة اذا قلنا انهم لم يزيدوا عليهِ شيئاً ولم تعدَّ مباحثهم وتحقيقاتهم كتاب السماع الطبيعي ولم يضيفوا الى كائنات الجو والسماء والعالم والنبات والحيوان اي شيء بل اسقطوها من كتبهم

ولم تشتهر وتظهر الهيآت الشفاء كما ظهرت طبيعياته ومنطقه ولم يكن لها ذلك النفوذ وذلك لظهور الفلسفة الاشراقية والحكمة المتعالية . وكتاب منطق الشفاء أسهب منطق اسلامي وقد أقبل عليهِ الفلاسفة واعتمدوا عليهِ ولم يشرح مباحث الصناعات الخمس ولم يستوف البحث فيها كتابٌ مثله . وقد اقتبس المتأخرون مطالبهم من هذا الكتاب أو ترجموها عنهُ وكذلك مباحثه الاخرى فان المتأخرين وان كانوا قد أطنبوا في شرح مباحث القضايا والكليات الخمس وتجاوزوا الحد ولكنهم مع ذلك لم يصلوا الى ما وصل اليهِ هذا الكتاب ولم يبلغوا الدرس ولا الغاية فان كل ما قالوه لا يتجاوز حواشي وتفاصيل وضعت على جوانب المطلب والاصل . وقد استفاد الخواجه نصير الدين الطوسي من كتاب منطق الشفاء في كتابهِ المسمى بأساس الاقتباس الذي ألفهُ بالفارسية بل يمكن ان يقال عنهُ انهُ ترجمة لكتاب الشفاء

(ب) كتاب النجاة — كتاب متوسط صغير الحجم يشتمل على مباحث في المنطق والطبيعيات والالهيات وأهم مباحثهِ في تقريره عقائد الشائين وآرائهم على وجه الاختصار ولما لم يكن بينهُ وبين كتب أبي علي الاخرى خصوصاً الشفاء فرق يذكر فقد ظن بعض المعاصرين ان كتاب النجاة مختصر لكتاب الشفاء وتبعهم على هذا جمٌّ من المعاصرين ولكن الامر على غير ما ظنوا فان تأليف منطق النجاة متقدم على تأليف كتاب الشفاء لان أبا علي ألفهُ في جرجان وسماه بالمختصر الاوسط وكذلك سائر مباحثه فانها لا تتفق مع الشفاء من حيث الترتيب

وقد كان يحتوي كتاب النجاة على قسم آخر في تقرير أصول العلم الرياضي ولكنهُ فقد وضاع . وأما منطق النجاة فهو على جانب عظيم من حسن العبارة وسلاستها وسهولة بيانها ولذلك يعدُّ من معجزات ابي علي

(ج) كتاب الاشارات والتنبيهات — وهو كتاب صغير في فن المنطق والعلم الطبيعي والالهي ويظهر انه آخر تأليف لابن سينا وهو يحتوي على خلاصة آرائه ومعتقداته وقد اوصى في آخر الكتاب بأن لا يراه ويطلع عليهِ إلا من كان اهلاً وقد نجلت في هذا الكتاب روح ابي علي العرفانية وقد تكلم في آخر كتاب الالهيات عن المقامات والدرجات العرفانية وامتاز جمله

وعباراته عن سائر كتب ابي علي لان الشيخ قد ألبسها صبغة ادبية لم يراعها في سائر تآليفه. ونرى الانقة تتجلى من خلال عباراتها (فكأن الشيخ قد خلع عليها ثوباً من كبريائه وانانيته) وقد استخفّ ابو علي في كتابه هذا ببعض رؤساء المشائين واحتقرهم ولاجل صعوبة مطالبه واندماجها ولانهُ تأليف اظهرتهُ قريحة هذا الرجل النابغة العظيم فقد أقبل عليه العلماء والفضلاء والفلاسفة من المتأخرين وصار مطمح انظارهم فوضعوا عليه شروحاً كثيرة بالفارسية والعربية وترجموه الى الفارسية ايضاً. ومن الذين شرحوه بالفارسية الامام شهاب الدين السهروردي وتوجد الآن ترجمة فارسية لكتاب الاشارات تنسب الى الانوري (الشاعر الفارسي الذي عاش معاصراً للسلطان سنجر السلجوقي المتوفى سنة ٥٨٣) ولكن لم يحصل ما يثبت ذلك الى الآن . ومن الذين شرحوا الاشارات بالعربية الامام فخر الدين الرازي وقد عارض آراء أبي علي وعنده انهُ ردٌّ على اكثرها . وشرح الخواجه نصير الدين الاشارات وكان متحزباً لابي علي ومشايعاً لهُ فردَّ اكثر آراء الامام الرازي وقد أجاد في النقد والرد وقام بهذه المهمة خير قيام . ثم بذل كل وسعه في تقرير آراء ابي علي وبيان عقائده ولم يشكل عليه شيء منها ولم يعترض على أية مسألة من مسائله الا في مسألة العلم حيث يقول : « ولما وصل بي البحث الى هنا لم أتمالك من المخالفة » وشرح نصير الدين على الاشارات أشهر من شرح الامام الرازي وقد عرفهُ طالبو العلم وأخذوا في دراسته

(د) كتاب الحكمة المشرقية او حكمة المشرقيين — هذا الكتاب الذي ورد ذكره في كتب ابي علي كان يشتمل على نخبة آراء أبي علي ومعتقداته الشخصية وقد فقد على ما يظهر ولم يبق منه سوى مباحث في المنطق قد طبعت . وكان مراد ابي علي من تأليفه هذا الكتاب ان يدون المطالب الفلسفية حالة كونه خلواً من كل تعصب وتحيز لارسطاطاليس واتباعه . ومع ان الشيخ بعد الفراغ من كتاب الشفاء ورواية كلام ارسطاطاليس وما ترجاه من الناس حيث يقول « من أمكنهُ ان يضيف أصلاً على المنطق فليضفهُ ولا يتوقف عن إلحاقه بهذا الفن » أطنب في مدح أرسطاطاليس وغالى في التحزب له اذ قال : « ولم يضف أحد حرفاً واحداً الى اصول ارسطاطاليس ولم يتمكن من رد قواعده » . ثم نراه يعترف في كتابه هذا باضافات الى المنطق ويصرح برأيه في أول الكتاب

يختلف كتاب منطق المشرقيين الذي هو في متناولنا اليوم اختلافاً عظيماً عن كتب ابي علي الاخرى ويتجلى هذ الفرق بصورة عظيمة في مباحث القضايا حيث اظهر الشيخ فيها آراءه وحقق فيها أدق تحقيق وكذلك نراه قد اسهب في مباحث الحد والتعريف وذكر قضايا هي اقرب الى الحقيقة وأكثر تشابهاً لمطالب هذا العصر وهي لا توجد في اي كتاب من كتب المنطق

(ه) كتاب القانون — وهو اعظم كتاب في الطب الاسلامي ويشتمل على خمسة اقسام :
القسم الاول في كليات الطب والصحة وقسم من علم التشريح والعلامات الكلية للامراض والقسم الثاني يبحث في تركيب الادوية ويسمّى بأقرابادين. والقسم الثالث يختص بالامراض التي يمكن ان يصاب بها جميع الاعضاء. والقسم الرابع في امراض تخص كل عضو بنفسه. والقسم الخامس في مفردات الادوية . وقد حصل الشيخ على تجارب كتبها في مذكراته ولكن — كما ذكرنا سالفاً — وقد ضاع اكثر هذه التجارب ولو بقيت لاستفاد منها الطب . ويمتاز كتاب القانون من الوجهة العلمية على سائر كتب الطب بأن ابا علي يحاول فيه ان يؤدي الالفاظ الطبية بالطرق المنطقية ويجعل التقاسيم منقطبة ايضاً ولذلك صار كتاب القانون من اكثر الكتب اشكالاً فأقبل عليه العلماء والفضلاء يتفهمونهُ ويشرحون ما اشكل منهُ وهكذا ألفوا للقانون شروحاً كثيرة . ولم يجد كل العلماء والفضلاء انفسهم اهلاً لتدريس القانون فلم يترشحوا لقراءته عليهم ولم يحضر طالبو العلم على كل احد ايضاً . ومع هذا كله فان اكثر مدرسيه لم يمكنهم تدريس كل القانون على الاكثر . وممن درس القانون قطب الدين الشيرازي فقد حضره جملة من الاساتذة ومع ذلك كله لم يتمكن من فهم مطالبه كلها وايضاح ما أشكل منها فقصد نصير الدين الطوسي ولكنهُ على ما يقول لم يكن للطوسي تلك القدرة على تدريس القانون لانهُ لم يحترف الطب ولم يعالج صناعته . واخيراً سافر قطب الدين هذا الى مصر وزار هناك احد الاطباء المصريين وكان رجلاً فاضلاً عالماً بالطب وحصل ايضاً على شروح للقانون وبعد هذا كله تمكن من فهم مطالب هذا الكتاب وحل ما اشكل عليه من المسائل العويصة

وبعد هذا الجهد والتعب العظيم وضع على كليات القانون شرحاً هو أهم واعظم شرح لهذا الكتاب . وكتب غيره لكتاب شروحاً مفصلة ومنها شرح ابن قف المسيحي وشرح ملاّ علي الجيلاني وأول من شرحهُ الايلاقي ثم الامام الرازي . ويرى ان اصول القانون لا تختلف كثيراً عن اصول المطالب في كتاب كامل الصناعة . والظاهر ان ابا علي كان يستفيد من كامل الصناعة حينما كان يؤلف كتاب القانون

(و) كتاب التعليقات — وهو كتاب يطابق اسمه مسماهُ فانه يحتوي على جميع المطالب الفلسفية وقد كتبها الشيخ تعليقاً

(ز) كتاب المبدأ والمعاد — كتبه لابي احمد محمد بن ابراهيم الفارسي وهو يشتمل على ثمرة علمين (علم ما بعد الطبيعة وعلم ما في الطبيعة) وكان غرضه من تأليف هذا الكتاب كما يقول ان يكشف الغطاء عما اخفاه المتأولون ويوضح ما اشكل منه ويسهب فيما اوجزوا . والكتاب يحتوي على المباحث الطبيعية والالهيات كلها ولكن بصورة مختصرة . ويمتاز هذا الكتاب بحسن

التصير الذي قلما يوجد منه في اكثر تآليف الشيخ . وقد الف الشيخ لابي الحسين السهيلي كتاباً آخر سماه بهذا الاسم غير أنا لم نعثر عليه حتى الآن

(ج) رسالة القريض الالهي — وموضوع هذه الرسالة التحقيق في مبدإ الوحي والاعجاز والسحر وأنواعه الاخرى وقد ميز في هذه الرسالة بين الوحي والاعجاز والسحر . وقد ذكر نبذة من تأثير الروح بأرواح اخرى وأجسام خارجة عنها . ويعتقد ان الانسان بعد تقوية كمال الروح والارادة يمكنهُ ان يكون منبعاً لتأثيرات خارجية كثيرة

(ط) رسالة سلامان وابسال — وقد أشار اليها في كتاب الاشارات . وقد روى نصير الدين حكايتها بطرق كثيرة ونظمها الجامي (الشاعر الفارسي الذي عاش في القرن التاسع وتوفي سنة ٨٩٨)

(ي) رسالة الطير — وهي تبحث في كمال النفس وعود الارواح الجزئية الى النفس الكلية وقد استفاد منها العطار في رسالة سمّاها (منطق الطير) — والعطار شاعر فارسي عاش في القرن السادس وقتلهُ التتر في اوائل القرن السابع

(يا) رسالة حي بن يقظان — وقد قرأه بعضهم بالطاء المهملة (يقطان) ويظهر لنا ان كلمة يقظان (بالظاء) المعجمة هي الاصح

(يب) كتاب عيون الحكمة — وقد شرحهُ الامام الفخر الرازي ويظهر لنا ان الانوري الشاعر — وقد مرَّ ذكره — يقول فيه : —

« كتابي است مشتمل بخط من خادم چو أشك وچهرهٔ من جلدش زدرون وبرون »
« سه گونه در او كرده بو علي تقرير . . . . . »

والمعنى : كتابة مشتملة كتبها السد ودفتاها من الظاهر والباطن كدمعي ووجنتي وقد ألف فيها أبو علي ثلاثة من العلوم

وقد نسبوا الى الشيخ أبي علي أشعاراً فارسية وعربية والظاهر أن بعضها منحول . وله القصيدة البيئية في النفس التي مطلعها

هبطت اليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تمنّع وتمنّع [١]

وقد ألّف أبو علي كتاباً في اللغة ولكنهُ لم يصل الينا وقد ضاع قبل الاستنساخ . وكانت له رسائل بالفارسية والعربية ولا يزال بعضها باقياً وله غير ذلك كتب كثيرة أعرضنا عن ذكرها خوف الإطالة . آه

١) راجع في صفحة ٣٠٦ من هذا العدد من المقتطف رأي جبران خليل جبران في هذه القصيدة

حيوانات مشهورة

وصحة اسمائها

للفريق الركتور ابن المعلوف

الصقور والبزاة Falcons & Hawks

الصقر كل طائر يصيد ما خلا النسر والعقاب وهو يشمل البازي والباشق واليدق والزرّق والبؤيؤ والحر والشرق والشاهين والوسق والزمّج وغيرها . والصقر عند البزادرة من اهل الشرق كالعرب والفرس والهنود كما هي عند الافرنج اي صقور وبزاة فالصقور على الغالب سود العيون محددة الرؤوس طوال الاجنحة قصار الارجل والبزاة على الغالب صفر العيون مدورة الرؤوس قصار الاجنحة طوال الارجل . وفي ما يلي بعض ما يعلّم من الصقور وما لا يعلم منها

باز . جنس من الجوارح يصاد به Accipiter. Hawk

باز وبازيّ . (ابن سينا والدميري عن سافيني ٢٣ : ٢٦٩) A. gentilis. or Astur palumbarius, Goshawk

لُويحق وابو لاحق (عرب الشام عن سافيني) صقر باز (الاسكندرية عن سافيني) شاه باز (الف ليلة وليلة لبرتن ٢ : ١٦٠) وقد حذفت الزمّج لانهُ ليس به

باز اشهب A. albidus. White goshawk

باشق A. nisus. Sparrow-hawk

(الدميري وهو كذلك في مصر والشام : سافيني) بَيْدق (الدميري عن سافيني) ولعل اليدق هو النوع الآتي ذكره ولم يكن معروفاً بهذا الاسم في عهد سافيني . ومن اسماء الباشق الطوط والملاّم

بَيْدق او عفصيّ وهذا عن الاب الستاس A. badius brevipes

زُرَّق . كوهي (فارسية) Elanus caeruleus. Black-winged kite

صقر ابيض في مصر . طائر يصاد به في حجم الباشق او اكبر قليلاً أسود الظهر ابيض البطن أحمر العينين اصفر الرجلين عدّه الدميري صنفاً من البزاة لانهُ اصفر العينين او أحمرها ومنهُ قول أبي نواس من ابيات اوردها الدميري

كأنّ عينيه لحسن الحدقة ترجمة ثابتة في ورقة

وقال صاحب كتاب انس الملا ان الزُرَّق ذكر البازي في كل جنس من اجناسه وان الكوهية خطأ وصوابه كوهي . ولم أعثر على الكوهي ولا الكوهية في كتب اللغة واصل اللفظة فارسية بمعنى الجبلي

أما تسمية هذا الطائر بالزُرَّق والكوهي فعن سافيني قال هو الكوهية عند أهل المنزلة ودمياط وفارسكور والزُرَّق عند بعض مؤلفي العرب (٢٣ : ٣٧٦) . وهو الزُرَّق عند هوغلن ودرسر . وصقر ابيض عند غرلي

صقر Falco. True falcon

جنس من الجوارح مجدول اليدن مستدير المنخرين طويل الجناحين والذنب طاري الساقين حاد المخالب قصير المنسر معتقفه لهُ سن في كل من شدقيه

يُؤيُؤ . جلم . أبو رياح F. aesalon aesalon. Merlin

صقر جبلي هو أصغر الصقور في الشرق يفرخ في أواسط آسية ويشتو في العراق والشام ومصر اسمهُ عند عامة المصريين الجرادية وصقر الجراد

واليؤيؤ في حياة الحيوان « طائر كنيتهُ ابو رياح وهو الجلم من جوارح الطير يشبه الباشق » وفي باب الصقر « اليؤيؤ ويسميه أهل الشام الجلم لخفة جناحيه وسرعتهما ولأن الجلم هو الذي يجزُّ به وهو المقص . وهو طائر صغير قصير الذنب قال الناشيء في وصفه

ويؤيؤ مهذب رشيق كأنَّ عينيه لدى التحقيق
نصلان مخروطان من عقيق

وقد عوَّلت في تحقيق هذا الطائر على ما ذكره سافيني ودرسر وهوغلن (المؤلف في المقتطف ٣٥ : ٧٣-١)

حُرّ F. sinnaroeus Iangypterus. Lesser

طائر من الجوارح أصفر من الشرق والشاهين أصقع اي في رأسه بياض أسفع الظهر أغبر البطن وجحت في المقتطف ٣٥ : ٧٣-١ ان الحر هذا الطائر واللفظة شائعة في العراق والشام ومصر . يطلقها بعضهم على الشرق ويسمونهُ الصقر الحر والبعض الآخر على هذا الطائر كما في معجم دوزي وحيوانات فلسطين لترسترام

شرق . صقر F. cuerug cheerug or F. sacer . Saker falcon

صقر الفزان (مصر) . وهو المشهور بالصقر في المؤلفات العربية والبلاد الشرقية ولما كان الصقر يشمل الصقور الاخرى قدمت لفظة الشرق وهي فصيحة وواردة في اللغة وهو الاسم النوعي الذي سماه به غرلي سنة ١٨٣٣ واللفظة شائعة في الهند وفارس (درسر وكتاب التاريخ الطبيعي للوكي) وقد قدَّم مؤلفو صيور مصر الاسم الاول الذي ذكرتهُ الآن على الاسم الثاني مع ان الثاني وهو الذي وضعهُ غرلي أقدم من الاول الذي وضعهُ غراي لذلك قدمت الشرق على الصقر لكي

لا يقع التباس . وقد ذكرت الصقر في المقتطف ٣٥ : ٩٦٧ ولم أذكر الشرق وهو الطائر الذي كان عند السيد محمد النقيب في باب الشيخ فذكرته هذه المرة وكلاهما فصيح كما تقدم وورد في اللغة

صقر يرم	F. concolor. The sooty falcon

مترجمة وهو صقر أسود يسمونهُ صقر الغروب في مصر لانهُ يخرج عند الغروب

شاهين الهند	F. peregrinator. Shahin or Royal falcon
شاهين	F. peregrinus peregrinus. Peregrine falcon
شاهين العراق او يوصى	F. peregrinus babylonicus. Babylonian peregrine falcon
شاهين سيبيرية	F. peregrinus calibus. Siberian peregrine falcon
شاهين المغرب	F. P. peregrinoides. Barbary falcon

طائر من الجوارح بين الصقر والحرّ طويل الجناحين لون رأسه وذنبه اسود ضارب الى الزرقة اما صدره فأبيض ضارب الى التوشيم

ويصعب معرفة الشاهين من وصفهِ في الدميري والقزويني وكتب اللغة واحسن وصف لهُ وجدتهُ في كتاب أنس الملا للسيد محمد المنكلي قال الشاهين قصير الساقين قصير الفخذين . . . . واذا كان فرخاً تكون خطوط صدره عريضة كبيرة قصير الرقبة بلظ عريض الهامة غائر العينين محدب الظهر قصير الذنب . . . . اخضر الكفين طويل الاصابع زائد سواد الخدين طويل الجناحين وهي صفة الطائر المسمى F. peregrinus عند علماء الحيوان وهو يختلف باختلاف البلاد

وقال سائيي في الكلام على طيور مصر والشام في وصف مصر مجلد ٣٣ ان الشاهين في المؤلفات العربية هو هذا الطائر وذكر ان فورسكال سماه الشاهين ايضاً . وهو الشاهين في كتاب طيور شمال افريقية الشرقي لفون هوغلن وهؤلاء الثلاثة ثقات يعول عليهم . وقد سألت جماعة من المصريين لفيتهم في حديقة الجيزة (في تاريخ كتابة ذلك للمقتطف اي في خريف سنة ١٩٠٩) عن الشاهين فأروني هذا الطائر وقالوا انهُ يسمى عندهم صقر شاهين فالصقر عند المصريين كل طائر يصيد ما خلا النسر والعقاب اي كما هو في كتب اللغة ويميزون الصقور بعضها عن بعض بقولهم صقر باز وصقر شاهين وصقر الجراد وصقر الغزال الخ وهذا الاخير هو المعروف بالصقر عند بزادرة العرب والافرنج كما مرّ

اما الشاهين في الهند فهو الطائر الذي سميتهُ شاهين الهند ويظهر ان الشاهين هو هذا الطائر اي كما سماه بزادرة الفرس ثم اطلق العرب اسم الشاهين على الصقور الاخرى الغريبة منهُ . ذكر ان اسمهُ الشاهين في الهند جماعة من الثقات منهم السر رتشارد برتن في الف ليلة وليلة ٢ : ١٦ وصاحب كتاب التاريخ الطبيعي الانكليزي في وصف الصقور وغيرهما

قاسوق وعوسق	F. tinnunculus. Kestrel or windhover

عويسق وعُوَيسقة F. naumanni. Lesser Kestrel

طائر في حجم الباشق احمر القون منقط بسواد يسمى في مصر صقر بلدي وصقر الجراد وابو سرقة . ولم يرد ذكر العوسق والعاسوق والعويسق في كتب اللغة ولا في معجم دوزي بل ذكر العوسق الامير أسامة بن منقذ في كتاب الاعتبار صفحة ١٦٢ ولم يصفهُ بل قال انهُ من الجوارح وذكر العاسوق الدكتور بوست في كتاب لظام الحلقات ٢ : ١٦ وذكر العويسقة داود الانطاكي في الباب الرابع فصل البزدرة قال « الباشق وهو أخف الطير وأسرعها نهوضاً والانثى منهُ تسمى القويسقة او هي صغاره » كذا وردت بالفاء في النسخة المطبوعة التي وقفت عليها وهي مضبوطة ضبطاً سقيماً جدًّا وصرابها العويسقة كما هي في نسخة مخطوطة في دار الكتب الملكية في القاهرة . والقوَيسق يعرف في جبل لبنان بهذا الاسم وقد اريت هذا الطائر الى صديق يعرفهُ فقال هو بعينهِ . وعلى كل فقد اطلقت العوسق والعاسوق على الكبير منهُ والعويسق والعويسقة على الصغير . (المؤلف في المقتطف ٣٥ : ١٠٧٣)

كَوْنج زُمَّج . دوبردران F. subbutec. Hobby

لم اتمكن من تحقيق اسم هذا الطائر بالعربية وكنت ذكرت قبلاً انهُ البدق او السقاوة ولكنني كنت مخطئاً وربما هو الكونج قال الدميري في باب الصقر « الصنف الثاني من الصقور الكونج ونسبته من الصقور كنسبة الزُرَّق الى البازي الاَّ انه احرُّ منهُ ولذلك هو اخف منهُ جناحاً وأقل مخراً ويصيد اشياء من صيد الماء ويعجز عن الغزال الصغير » وفي معجم توارس الكونج باللغة الهندية طائر ولم يصفه وفي معجم ستينجس هو Falcon وضبطها هكذا كونج وفي معجم ريتشاردسن كَونج وقال اسمه Falcon, sparrowhawk

وللاب انستاس نظار في معجم الحيوان مقتطف ٣٩ : ٣٨٥ يقول فيهِ ان هذا الطائر هو Astur صقر الباز بحق وأبه لاحق اي الباز وقد سألته وأنا في بغداد كيف عرف انه هذا الطائر قال انهُ رأى صورته في كتاب في الحيوان قلت ان الصورة لا تكفي للتحقيق العلمي بل يجب معرفة الصقور والبزاة ومعرفة الفرق بينها والذي أراه الآن انهُ هذا الطائر لانهُ من الصقور لا من البزاة كذلك الزمج لذلك اخرجت الزمج من صفحة ٢و١٠٢ . ولا شبهة ان الزمّج كما قال الاب انستاس فانا نعتمد قوله كما قال انهُ الزمج والزماج بالمجمة او الزماح بالمهملة فانا نعتمد قول الاب في حركة او كسرة او فتحة . أما في تحقيق الحيوانات فلا نعتمده

ثم ان ريتشارد سن في معجمه ذكر هذا الطائر وقال Sure not with the hobbie lest you fall with the ark لا ترتفع كالزمج لئلا تسقط مع القبرة ، فالزمج من الصقور لا من البزاة

فالزمج في العراق هو الكونج كما في معجم الحيوان اي ان كلمة كونج هي مثل زمج تماماً

لُزيق F. vespertinus Red-legged falcon

طائر من الجوارح في حجم الباشق احمر المنسر والرجلين جفون عينيه حمر

ولم يذكر الزبيق بهذا المعنى في كتب اللغة وانما ذكره الامير اسامة بن منقذ في كتاب الاعتبار صفحة ٢٦٢ قال «فجاء جارح مثل العوسق احمر المنسر والرجلين جفون عينيه حمر فقالوا هذا الزبيق» وهو وصف في غاية الدقة ينطبق تماماً على هذا الطائر (المؤلف في المقتطف ٣٥ : ١٠٧٤)

سُنْقر Gerfalcon. Gyrfalcon. Hierofalco or Falco

وسُنقور. وشُنْقار وشِنْنار وشُنقور. شاهين بحري. طائر من الجوارح اعظم من الصقر وأجمل منهُ صورة يؤتى بهِ من البلاد الشمالية لذلك سموا السنقر احياناً الشواهين البحرية لانهُ كان يؤتى بها عن طريق البحر

وقد اخذت السنقر ومرادفاته وذكرته في ص ١١٤ من معجم الحيوان. وسنقر اسم سلطان من سلاطين المماليك والبعض يكتبون اسمه بالجيم اي سنجر وحقهُ ان يكتب بالسين لا بالجيم فلو سألنا صيدليًّا كيف يلفظ هذا الاسم لقال سنقر والعامة هنا تلفظ كما يلفظ اهل القاهرة الجيم فليس جميع اهل مصر من القاهرة

حُمَيق Buzzard and allied genera

في حياة الحيوان الحميق طائر يصيد القطا والجنادب وسمعت بعض اهل العلم يقول هو الباشق ويفسر بهِ قول ابي الوليد الازرقي في تاريخ مكة وهو: قال ابن جريج: قلت لعطاء اذا كنت محرماً فقتل العقاب قال اقتل قلت والصقر والحميق قالهما يأخذان حمام المسلمين قال اقتل واقتل البوص واقتل الذئب فانهُ عدو ذكره في تعظيم الحرم. وفي مستدرك التاج حميق عن ابن حاتم طائر ولم يزد على ذلك. وقد اعتمدت قول حياة الحيوان لانهُ موافق قول فلور وهس كما سيجيء

حميق معروف Common buzzard. Buteo Vulgaris

حميق Long-legged buzzard. Buteo ferox

حميق (جزيرة العرب عن الماجور فلور عن الاستاذ هس). صقر حوّام (حلمي السماع) سقاوة (حلمي السماع عن عرب الواحات). صقر جراح (غربي) وارى الاقتصار على الحميق لفصاحته ولأن الذين ذكراه من علماء الحيوان وقد رأيت الكتاب المذكورة فيه في حديقة الحيوان والاسماء التي فيه مكتوبة بالعربية ولعلّ الكتاب لا يزال في مكتبة الحديقة

حميق مسرول Rough legged buzzard. Buteo lagopus

حميق النحل Honey buzzard. Pernis apivorus

يقال لهُ في الحديقة حوّام النحل والحميق أفصح

هذا ما قدرت على تحقيقه من أسماء الجوارح مما ورد في معجم الحيوان وكتب اللغة وقد انتهيت من كتابة هذا البحث

أبيقور

بقلم سليم خياطه

وأرسطيس له في الذة مقالة تباين مقالة ڤتيتيس ، ومقالة أبيقورس تباينهما معاً
عن « بيرهون »

ليس في الوسع الحديث الطويل عن أبيقور الإلهي ، وهو ذلك الحكيم العميق العقل الذي أنشد لوقريطيوس الشاعر لمجده أغنية ملحمية بحجم سفر مادي في سبيل حقيقة الطبيعة والانسان . فما عندي له سوى خطرات من وحي اسمه وفكره وما ظلما به من سوء النسبة . والحق ان الكلام عنهُ ، رغم قلّة ما أبقت عليهِ القرون من آثاره نفسه ، لبسيطٌ ويتشعّب ويطول جداً . أليس ان واحداً من أعجب تلامذته المتأخرين ، الراهب « غسندي » ذاته ، لم يستطع ان يكتفي الرغبة في تعليم مبادئهِ إلاّ بأن يدعو كصاحب مدرسة اختصاصية فريدة في بابها ، تحت ظلال جدران « الكوليج دي فرانس » في باريس ، حيث تخرّج على فكره النيّر كوكبة من النجوم اللامعة فيهم أنصع نفسين أبيقوريين ظهرا في وقتيهما : موليير الروائي وفولتير الاديب ؟

وأليس ان « برنيه » ، وهو تلميذ التلميذ ، لم يستطع ان يشرح حق غسندي ذاك إلاّ كما قال في « أحياء الاديبة » : « برنيه هذا الذي كان يلقّب بالفيلسوف الظريف ، الذي جاب سوريا ومصر والهند وفارس ، وخدم كطبيب عند اورانغ زيب ، والذي كما ذهب الى كل مكان رجع من الكل ، فكان عنده كثير ما يقول ، وكان يدرس من غير انقطاع ، وكان لا يؤس البتة ، حتى ... الذي لاسابليير » موجزاً لنظام استاذه غسندي ، وهذا الموجز لم يكن أقل من ثمانية مجلدات » ؟ فانظر ! هل سمعت ؟ ثمانية مجلدات هي موجز في تلميذ التلميذ ! . .

إذن ، فلنفتش عمّن هو بعد اوجز من ذلك . ولمن أراد شيئاً اقل كتمهيد أولي يتعرّف به الى بيئتنا ، عليهِ بالكتاب الصغير البديع الذي ألّفهُ الاسقف « فينلون » عن فلاسفة اليونان لتربية الناشئة عليهِ في زمن لويس الرابع عشر (١) . ففي سلسيل هذه النخبة الاديبة

(١) Fénelon-Abrégé de la Vie Des Plus Illustres Philosophes de L'Antiquité

النفيسة يتاح للقارىء العادي ان يُلمَّ بشيء مقتضب سهل عن شخص ابيقور الكريم ، وبشيء من التهافات الآراء والنظريات العقلية السقيمة التي ظهرت لهُ فيما وصلت اليه مدرسته « الابيقورية » « الديموقريطية » ، تلك الآراء والنظريات التي لا تزال منذ أطلت أعمدة آثينا الرخامية الذهبية على الفين واربعماية سنة مقبلة من تطوُّر فكر الانسان ومجتمعه حتى هذه الساعة : يثبت بعضها بتقريرات ومذاهب وتفسيرات علمية مقبولة ، وبعضها يُكتشف لها حقائق ما لاح له من أسرارها ، وبعضها الآخر ايضاً يتجه اليها البحث بكلّ قواه لشدة دلائل اللمعة فيها وصعوبة قبول التفكير الفلسفي الجدلي (الديالكتيكي) والمادي العلمي لسواها من النظريات والمعقولات التفسيرية لحركة الوجود وتشكلاته . من الامثلة على كل هذه الالتماعات الرائعة بضعة التالية : الذرَّة والجوهر الفرد ، الكهرباء وتفسيرها ، عمر الارض ونظرية طبقاتها ، التطوُّر والارتقاء في ميداني تنازع البقاء والتعاون ، حركة المادة الديالكتيكية ، الاحلام كظاهرة نفسية ومظهر عقلي ، نشوء فكرة الالوهية وتطوُّرها ، نشوء المدنية وظهور المجتمع ، الخ . الخ . . .

بيد ان كتاب فيلون ، لسوء الحظ ، غير متيسر لابناء العربية الا في طبعة مندثرة صدرت منذ مائة سنة ونيِّف . إذ لا أظن أحداً ترجمه الى العربية حتى اليوم غير كاتبه اسمهُ عبد الله بن حسين ، كان من « عدة » ارسلهم محمد علي باشا — على حد تعبيره — « الى الديار الفرنجية » . « شاع أمرهم في الأنام ، فحصَّلوا قدراً جسيماً من اللغات والفنون ، وجلب لهم (محمد علي باشا) كتب العلوم الخ . . . » وقد تمَّ طبع هذا الكتاب في سنة ١٢٥٢ هـ . تحت اسم « مختصر ترجمة مشاهير قدماء الفلاسفة » ، بالتنويه الى تعريبه ، لكن من دون ذكر مؤلفه ، وذلك في دار الطباعة التي أنشأها محمد علي ببولاق . على أنا نكتفي الآن بما يلزمنا من كتاب فيلون هذا في فصله عن « أبيقور » ، وهو لا يتعدى عبارته التالية التي تترقرق في لغة صاحبها الفرنسية عذوبة الماء الزلال في ساقية الواحة او نبع الجبل . قال :

« ابتاع أبيقور حديقة جميلة ، وأخذ يثقفها بنفسه . فيها أنشأ مدرسته وعاش مع تلامذته حياة حلوة ورضية ، فكان يطعمهم وهو يتنزَّه أو وهو يشتغل . . . لقد كان حُلوَ الطبع مُحبَّباً الى كل الناس . . . وكان يعتقد بأنهُ ليس ما هو أشرف للانسان من أن يزاول الفلسفة . »

ثم مع هذا القول الجميل لا بدَّ من الا أن أورد ايضاً حكم القديس اغسطينوس على أبيقور ،

حيث قال في « اعترافاته » وهو يتكلم على تقيئه عن المبادىء والتعاليم التي ترتاح اليها نفسه (وهي المرة الوحيدة التي يذكره فيها) ، قال « : كنت أتحدث مع صديقي « أليبيو » و « نيبريديو » عن حدّ الخير وحدّ الشر . وفي نفسي ان أبيقور هو الذي كنت أقدّمه غصنَ النخيل[1] لو لم أكن أعتقد بديمومة حياة النفس (يقصد خلودها بعد الموت) وبالعقوبات (يقصد الأخروية) على أعمالنا ، وهو الاعتقاد الذي رفضهُ أبيقور »[2]

إقرأ ايضاً ، بعد رجلي الكنيسة هذين ، قول المؤلف الاندلسي ، القاضي ابي القاسم بن صاعد في كتابه الظريف « طبقات الامم » . فان هذا الكاتب الذكي ، على قلة ورود المضبوط المستقى من ينبوعه في مواضيع الفلسفة اليونانية عند كتابنا الاقدمين ، قد أعطانا هو عبارة فيها من الصحة عن أبيقور بقدر ما فيها تماماً من ضوع صفحته . قال : « وأما الفرقة المسماة من الآراء التي كان يراها أصحابها في الغرض الذي كان يقصد اليه في تعلم الفلسفة ، فشيعة ابيقورس[3] ، ويسمون اصحاب اللذة لانهم يرون الغرض المقصود اليهم في تعلم الفلسفة اللذة التابعة لمعرفتها »[4]

تأمل ، الآن في تينك الشهادتين الوضاءتين بحق فيلسوفنا تصدران عن رجلين صادقين من آباء الكنيسة ، وتأمل فيما وصل الى القاضي بن صاعد من خلال ركام القرون الوسطى من ناحية حقيقية عن أبيقور المجهول : هي أن « شيعته » على قلته ولغة أغلب الكتّاب السابقين حتى « موتان » ، رأت اللذة في اللذة التابعة الى معرفة الفلسفة . ثم انظر فيما اشتهر عنهُ ووصم به عند جهلاء الادعياء ومحرّفي المعرفة وسخفاء التفلسف من سوء الصيت وشهوانية الدعوى ، حتى صار أبيقور منسوباً اليه عدواناً ومجنياً كل رقيع من مجانين متطرفي اللذات عند الرومانيين ، أولئك الذين نفّر حتى « هوراس » الشاعر في هجوهم وتهزيئهم ، وان كان هو من جهلهم قد تبعهم أيضاً في إساءة فهم ذلك المعلم الكريم ، فلاك اسمه بغير حقّ ومرّغهُ في حظائر الخنازير

طبعاً لم يؤثر هذا الصيت المشوّه في تحريف حكم المفكرين الانسانيين الثقات الأصلاء وتقديرهم. فرانسيس بايكون ، مثلاً ، إذ يمر بذكر أبيقور في مقالته « عن الالحاد » ومقالته الاخرى « عن الوحدة في الدين » ، لا يبدي نحوه الا انكاره « السنّي » الصفة لشهرته الفلسفية عنده ، ولا يحفظ عنهُ اصباغة الشهرة الانتهازية المشوّهة ، بل يبدو عليه الميل المكتوم بتحذّر محافظ الى رأي أبيقور وتفضيله ، ويعلن بجرأة اعجابه العالي بقوله البديع : « ليس الكفر في رفض الاعتقاد بآلهة السواد ، بل الكفر في الاعتقاد بالآلهة ما يعتقده السواد فيها »

---

(١) الطائرة ، تو ديز الاسبانية والايطالية (٢) الاعترافات — الجزء الثاني الكتاب السادس AI—XVI—28

(٣) « أبيقورس » ، أي أبيقور (٤) « طبقات الامم — نسخة اليسوعيين وفرانسوا شيحو — بيروت ١٩١٢

غير اننا ، من جهة اخرى ، نجد ان السمعة الرديئة التي لصقت بالابيقورية أثّرت حتى في مفكر مرتاب حرّ مثل مونتاني . فمع انهُ ، مثلاً ، يطرأ عليهِ ذكر ابيقور ، في فصله الكبير « الاعتذار عن رايمون سيبون » ، كمذهب تأملة فلسفية تحققت صحتها في اكتشاف جُزُر الهند الغربية ، فانهُ ، على جري عادته في تمايلات افكاره السائحة مع كل ريح قد تصل بهِ مكاناً او قد لا تصل ، يعود في مقاله « عن بعض آيات لترجيل » — في معرض الكلام عن بهيمية الشهوات ، وحديث الامبراطور الذي اقتضّ عشر فتيات في ليلة واحدة والامبراطورة التي بزّتهُ في استبدال خمس وعشرين رجلاً في ليلة واحدة ايضاً — الى ذكر ما سمّاها « فرقة أبيقور » كشيء من الشاحة في هذا الباب مثل كلّ ما عدّد غير ذلك من كنايات وافعال !

انما نحن نعلم اليوم بأنهُ يحدث في التاريخ ان المنتسبين الى معلم انساني كبير ، او قل من ينسبون انفسهم اليهِ ، كثيراً ما يبدلون ويمسخون ويقلبون مبادئهِ رمتطق تعاليمهِ بحسب الهوى والمصلحة او نوع الضغط والاتجاه المادي والمعنوي والنفسي ، من عامّ يتغيّر وخاصّ شخصيّ حتى ليصح هؤلاء المنتسبون بما يخرجون بهِ احياناً سُبَّة كلّ عقل صافٍ وحكمة ناضجة ، وحتى ليتجلبب ذلك المعلم الكبير — وهذا ما يؤسف — في نظر الكثرة التي تجهله ويصعب عليها فهم مستعصيات الفروقات والتطورات والاستنتاجات ، بجلباب خزيهم وعارهم . لقد اشار لينين الى ظاهرة كهذه بشأن ماركس والحركة الاشتراكية من بعده في كتاب من آخر كتبهِ . ومن الامثلة أيضاً على حالة كهذه يسوع المسيح و « المسيحيات » التي انتسبت اليهِ ، ثم كذلك أبيقور وعديد ممن سمّوا انفسهم أو سمّاهم سواهم « أبيقوريين »

ومن الملاحظ أيضاً بخصوص أمثال هؤلاء المعلمين الكبار ان من ينتسبون اليهم ، ومن يشرحونهم ويلاحقون عليهم ، يختلفون ويتباينون في أمرهم اكثر من تباين الحق والباطل ! بل قد تكون مسحة تباينهم كالفسحة بينهم وبين من لا يطيقونهم حتى متناع رؤية أسمائهم . وقد يفترقون الى فرق وملل ونحل تتباغض وتتعادى وتثير — لا أقول الثورات : اي حقبات الاصلاحيات الاجتماعية والاقتصادية ، والانشاءات الشعبية والعلمية الكبيرة ، والتطوّر الانساني الارتقائي في العلاقات والفكر والشعور والعادات — بل تثير مذابح الفتن والحروب والعصبيات الفاترة الحادة ، وانواع النفاق والتنافس السياسي والاقتصادي (والاغتنامي) وهذه الظاهرة كانت قوية جدًّا وطويلة التاريخ في المسيحية ، وفي المذاهب « الروحية » التي انتشرت كنظمات مدنية عموماً . ثم هي اصغر من ذلك ، ولكن أبلغ انضغاطاً وأسرع انفجاراً وأفضل ، على الاقل ، نتيجة انسانية ومدنية ، في الاختلافات الاشتراكية التي حصلت من حول اسم ماركس . فالاولى تسببت وعاشت بالحرب والقتال ، والثانية رافقها ما في حياة

الاستمار وكيانه من حربٍ وقتال . بيد ان من انتسبوا الى أبيقور ، ومن لم ينتسبوا ، ومن يشت فيهم الرجفة حتى رنة اسمه ، اختلف في هذه الظاهرة حالهم . فهم لم يتنابذوا فيما بينهم مصطدمين حول الشقاقات فيهم لأبيقور ، ولم يشهروا بشيء من ذلك . انهم لم يتحاربوا ولم يتقاتلوا أبداً !

سبب ذلك ان جماهير الناس ما سمعت قط حتى باسم أبيقور ، كما انهُ لم يكن لافي الحقيقة ولا في الفكرة المشوّهة التي نُسبت الى اسمه ذا قابلية على انتشار التأثير والمكانة في كل بيئةٍ كانت ما تكون . فأبيقور على حقيقته وصفاء فلسفته يصعب ان يجد لهُ مقعداً في بيئةٍ أقل رقيًّا من جمهورية آثينا الخالدة في وقته والابيقورية المشوّهة كعبادةٍ بيتية لا يعلو لها صوت الاّ في حلقات ضيقة ، كحلقات المتخمين حتى التيء ، الفارغي الرؤوس والقلوب ، ومن كانوا على عقليتهم ، في دور كدور انحطاط روما الامبراطورية او بغداد العباسيين وممالك الطوائف . لذلك كان اصحاب الهوى والهوس في ابيقور ضافاً قليلين ، على الاكثر المعروف من « المتعاظمين » المتكلّفين . لم يأخذوا عنهُ الفلسفة ، بل رأوا فيها تلطخ به اسمه عنوان رذيلتهم وتسويغاً مبتذلاً لنفوسهم بقدر ما كانوا عليهِ من ابتذال

وعلى هذا ، فانَّ اثراً لم يتضخّم وينتفخ لا لأبيقور ولا لهم في صلب حياتنا الماضية أو الحاضرة ، في عقل بشرية متجمهرة ، مجيّشة ، مسخّفة ، متعاركة بالناب المُزبد والظفر الدامي على صولجان سلطتها ورغيف اطفالها . فحظ ابيقور في خمول الصوت وغلبة الانحراف عليهِ هائد ، إذن ، إلى ان الإعجاب بهِ هو الاعجاب الفلسفي والاخلاقي السلوكي الساعي ، الهادىء ، المتسامح ، الذي لم يكن الاّ من نصيب قليلين فهموه وأحبوه ، من فوق الاجيال والاكاذيب ، حُبَّ صداقةٍ شخصية ، لا الاعجاب الطموح ، الملتهب بنيران وجهالات الرغبات « المثالية » ، ولا توجُّه وتكريم التفكير « العقائدي »[1] او « التعليمي »[2] الجامد ، النصبي ، المعطّل الوجه بتلوينات مثالية ، المبطّن القلب في الواقع بنوع تكاليفيةٍ وآنيّةٍ في الغرض (لنسمها : غائيةً Teleologisme آنية ! ..)

لهذه العوامل فقدت حقيقة أبيقور أكثر مما ضاعت حقيقة ماركس . ولو انهُ كانت لفلسفة أبيقور ونظرياته ما كان لافكار ماركس الفلسفية الكبرى ونظرياته الاستنتاجية الاخرى من علاقة وثيقة صارخة بمصالح الناس الآنية والمباشرة ، ولو انهُ كان لها ما لهذه من منطقة سريعة التفتح في صلب الحياة الاجتماعية (بل الماركسية أسرع حتى من منطقة الحياة الاجتماعية لانها مبنية

(١) ترجمة ستيتها للفظة Dogmatic (٢) ترجمة استعملها لفظة Doctrinaire و« التعليمي » في التفكير الحديث « كالتعاوني » في التفكير الشيوعي

على حركتها — او بالاحرى على ما في الامكان تعيينه من الخطوط العامة واتجاهها في حركتها ، إذ تهبط وتتغلغل الى اعماق العيش اليومي بمختلف الاشكال والمجاري التي تتصادم حتى كتصادم الحياة بعضها ببعض ، والتي تصبح في احتكاكها بحالة الجماهير ونفسيتها ذات قابلية على توليد عواطف اهتياجية شديدة —) اذن لكانت هرعت طوائف الناس ايضاً الى ابيقور كما هرعوا الى ماركس، ولتعلقوا به كل طرف وجماعة على وحي ما بهم ونوع حاستهم دفعاً وجذباً ، وشداً ونتاً ، وتقبيلاً وتحبيطاً !

لكن ماركس ، فيلسوف الثورة الصناعية والتحول الاشتراكي ، قد حظي بعصر ألصق به جمهوراً وأوسع وأكثر انتباهاً من كل عصر ، مع ان ابيقور كان في زمنه شخصية تستوقف عناية الجماهير أيضاً (في أثناء حياته فقط) اكثر من كل فيلسوف يوناني آخر الا « بيرهون ». ثم ان ماركس قد حظي أيضاً من الاتباع المدركين ، والمحبين المكرمين له في قلب حياة زمنهم ، من لم يكن لهم من الجهل ولا من الطمع به كبير شخصي مثل الذين بلي بهم أبيقور. وأبيقور ، وان كان قد ناله قسطاً من أرقى الذكاء البشري لدفع ظلمات وتجلية حقيقته ، إلا انهُ لم يدفع عنهُ أحد بمثل ما دفع هؤلاء عن ماركس وبمثل ما رفعوا من لبراس حقيقته من خلال ظلمات الدخان الداجي وعماء الحمق المتفشي

هذا ، وقد يستغرب ان يزعم زاعم بأن فلسفة أبيقور تعيش في الماركسية . لكنها حقيقة واضحة لكل من يفهم شيئاً من الفلسفة غير الشهرة والاسماء . وان فلسفة أبيقور تعيش فيها من وجهتي الاعتماد في النظر والتعليل على المادية وعلى « الديالكتيكية » . وتعيش فيها ، أيضاً ، بالطبع ، بما يتجه التفكير اليه ، على هذا الاساس المزدوج عندكليهما ، من نفس النتائج والآراء والمبادىء في نفس القضايا ، وان كانت قضايا ثانية ومسائلها الفرعية تختلف أغلبها وتزيد وتتعقد كثيراً عن قضايا الاولى ومسائلها . وذلك لان العصرين مختلفان ، لان مادة البحث والمعلومات الخاصة والمتيسرة تزيد وتترتب وتتباين في ثانيهما عنها في الاول منهما ، فتنزل الماركسية لهذا السبب من ميدان التفكير الفلسفي الى أقصى ميادين الاحتكاك الواقعي بالمجتمع ، ومن ثم الى التحول الديالكتيكي الحركة بحسب ما تحكم مجاري تلك الميادين ومناقشاتها في مجرى صحة النظريات وسلامة الآراء والتصورات . أما فلسفة أبيقور، وان كان هذا الاسلوب والتعليل هو أسلوبها وتعليلها بالطبع والامتياز ، الا انها ، لما بيّنا من أسباب ، تكاد تقبع في حقل التعليل والتفسير الكوني والطبيعي ، وفي مبدئية أخلاقية إنسانية عامة .

لكنها على كل حال أصدق ما يأتلف ويتساوى من الاساس (اذا لم تكن الوحيدة التي تأتلف وتتساوى) من بين فلسفات جميع العصور السابقة مع أساس فلسفة الاشتراكية الحديثة

العلمية في المنطق والاسلوب ، ثم في الحدود الموضوعية التي تصل اليها معها في التعقيل والاستنتاج وأخيراً في اعتبار أخلاقية الفرد الاجتماعية . أما الوجهة الاخلاقية السلوكية هذه عند أبيقور ، فلا أتصوّر الماركسية وجدت أو يسهل عليها ان تجد للفرد سلوكاً أخلاقيًّا عمليًّا عيشيًّا في مجتمعه أفضل وأعذب وأبلغ استقامةً اجتماعية مما نلقى في أبيقورية أبيقور ، تلك الحكمة الجميلة المعتدلة في العيش والاجتهاد والرفق بالذات والانسان ، تلك المبادىء والاعتبارات في الخير والشر التي ما أمكن الا ان تفوز باطراء أي رجل صالح عادل كان ، حتى من وجد في مجتمع معاكس أبيقور المذهبين ، سواء في ذلك مجتمع أعلام التقوى والنظر المسيحي او كبار المفكرين المخلصي الضمير . ومن بين كبار المفكرين هؤلاء واحد احب ابيقور بعقله وقلبه ، واحب انا أن اتحدّث عنهُ قليلاً كتنفيذ حقّ لذلك المعلم. هو اناتول فرانس ، الذي ترك في ميراث عالم الادب الرفيع بين اكاليل بدائعه كتاباً مجزاً صغيراً لقبه « حديقة أبيقور »

لم يرد في هذا الكتاب اسم للفيلسوف الاغريقي أو إشارة مباشرة الى أفكاره ، فيما عدا عناوين الصفحات ، غير مرتين او ثلاث . فما ذكره به في هذين المرتين او الثلاث ما جاء له في جملة من قوله : « ... في اسمى العقول ، واصفاها ، وأعذبها : في ديموقريطس ، في أبيقور ، في غسنديّ »[1] ، ثم ما وضعهُ على لسانه في ساحق تخيلها بين الفلاسفة تجري وسط المبشّرون والآس على ضفة نهر في « هاديس » ، عالم ظلال الاموات عند اليونان ، إذ جعله يخاطب ارسطو بمعرض آراء متواردة عن خلود النفس ونفس الحيوان ، قائلاً :

— إيه ارسطو ! هذه النفس فيها (اي الحيوانات) هي مثلها عندنا فانية خالصة للموت ، وفي ذلك سعادتها . أيتها الظلال العزيزة ! إصطبري منتظرةً في هذه الجنان مجيء الزمن الذي تفقدين فيه تماماً ، مع فقدان الرغبة الفاسية في الحياة ، الحياة نفسها هي واوصابها . ألا فارقدي مقدماً في السلام الذي لا يكدره شيء »

وهكذا ليس هذا الكتاب سيرةً لابيقور ، ولا شرحاً ، ولا مجادلةً ولا نقاشاً ، ولم يأت فيه صاحبه حتى على لفظ اسمه إلاّ كما رأيت . وهو ، إن اردت الصحيح ، ليس الاّ حديقة أفكار لفرانس ذاته وردت عليه بروح التعقيل الابيقوري وأسلوبه من غير شك ، إذ الكتاب بجملته يعبق برائحة جميلة لجوّ « دياليكتيك » ابيقوريّ ماديّ ينتج منهُ للمؤلف منطق متناسق وحلقة آراء تستقيم في مجموعها مع وزن (او قل : دوزنة) الابيقورية الفلسفية ، اي ابيقورية ابيقور لا غيره

صحيح أن حلقة آراء فرانس هذه ، وجوها العابق بدياليكتيك ابيقور ، ملوّنة بأصباغ

(١) تجوزت في تنوين هذه الاسماء لجلب معنى الافراد الى مدلول الكلمة من نوع الاسم

شتى متناسقة ومتعارضة ، وفيها مزيج من نكات كثيرة عن رؤي وظنّ ، وحق وباطل واختلف فيه من معاني الابيقورية : من حقيقة ما جاء منها لابيقور وعنهُ ، وما ائتلف وتناسق حقيقةً مع منطق فلسفته ، في التعابير والنظرات التي يصدرها فرانس مباشرة ، او مما تستخلصهُ او تراه بنفسك في اثناء محاورات تدور فيها الآراء معروضة بوشك ان يتجلى فيها صحيحها الابيقوري من غير تسمية او تنويه الى من ينسبه كلاماً ودعوة ابيقورية كالعبارة المنقولة فوق والتي وضعها فرانس ، وكانهُ يتهكم ويخلط بالنور « زينونيًا » ورواقيًا او شوبنهورياً « ماكس نوردياويًا » في فم ابيقور ذاته ، واخيراً الى الحس ما تصوّر في الابيقورية وما أُلبسهُ من دعوى المحبة المفرقة المنحلة للشهوات البدنية ، وستر اللذّات مطلقاً كأعقل وأفضل مصرف للعيش ، وذلك فيها وضعهُ من اعترافات على لسان « فدموس » الفيثي الخرافيّ ، رمز اختراع حروف الهجاء ومثال مدنية الصناعة والتجارة والزراعة الاعلى في حضارة البحر المتوسط القديمة ومطلب جبابرتها في السلطة المطلقة والاحلال برقاء تعميّ صفيق ، كل هذا وارد وصحيح من أمر هذا الكتاب ، ولكنهُ يتألف من تلك المجموعة الملوّنة ، كما أشرنا ، مخرج واحد لونهُ صفاء النور ، صفاء منطق ابيقوريّ سليم لا يحتمل صوءه اظهاراً رائعاً أصيلاً لما لبس من الآراء والتعليلات مستقياً به مجرى شعاعه

غير ان في الكتاب ، عدا ما وراء ذلك ، محاورة تعرض التقيض الابيقوري تماماً بمهارة فنّ فرانسيّ ساحر . هي آخر قطعة منهُ ، وكأنما الاديب الانساني أراد ان يرينا فلسفة سلفه القديم من معرفة صورة عن عكسها . ذلك انهُ عرّفنا بإيجاز وتهكم رحيم الى اسان روما تبكي النزعة « روسوية » ، ونوعاً ما شعريّ « برناردين دي سان بيير » ، لا أبيقوري على طول الخط. هو تاج فني لاواخر القرن الثامن عشر الفرنسي، لكنهُ ظهر في أواخر التاسع عشر الفرنسي، متأخراً بث في حساسية نفسهِ عن سير الزمان وعن معدّل حساسية التفكير في سبق سير الزمان لا أقل من مائة سنة . وسبب ذلك ان فلسفة هذا الانسان أكثر ما تشكلت بتأثير أحوال خاصة معينة ، متأخرة فيهِ عن وقتها شذوذاً ، فأحاطت بحياته الشخصية بحيث ظهر اثر تغيرات قرن الثورة الفرنسية عليهِ بمظهر أفكار المدن والانكار في قرن الثورة الصيموقراطية البابية ما بقيهِ . وبكلمة أخرى من استعمال التعبير الماركسي : هو بقية باقية من الطبقة الوسطى الصغيرة الثامن عشرية الفرنسية ، او التاسع عشرية الالمانية، او الاوائل العشرينيّة في سوريا ومصر العربيتين، لكنهُ يتأخر في تمزّق نفسهِ بحياة متغيرة في فرنسا التاسع عشرية ، فرنسة الدنيا « البالزاكية » وبيئة « فلوبير بوفاري » و« التربية العاطفية » الفلوبيريّة

وعن هذا فانسان محاورة فرانس ، الذي هو فيلسوف لم ينجح بين الناس ، قد ضجر من

حياة المدنية ، مدنية زحف وتغيرات الثورة الصناعية واستحالها ونوع الحياة الرأسمالية العاجّة التي خلقتها ، الحياة المدخنة الكئيبة ، يذوب فيها نوع الفرد الذي لا يشعر بنفسه الا في ظهوره وصلته بمحيطه كما تضيع النملة بين قبيلتها

كره صاحبنا بيتاً بليداً في صفّ في شارع من العاصمة ، فهجرها الى الريف . في الريف اشترى ديراً خرباً وسط عرصة تابعة له . وفي الدير عاش مع ذاته ، ناسياً كل عمل وعيش بين الناس . لا يقرأ عنهم الا بالصدفة ، لا يكتب ، لا يثقّف حتى قطعة ارضه او حديقته ، يتسلى ويقاوم الوقت بالكسل والنظر الطويل في معالم الهواء وغيوم السماء ، ويغذي نفسه بآراء كأنها فصائح التعزية ! فكلها تسفيه وتسخيف لكل ما يدعى او يترادف او يقرب من اسماء مدنية وفن وثقافة وعلم وأدب ورفاه . لقد اصبح عنوان طلب البساطة في البقاء . لا يخدم شيئاً ، ولا يخدمه سوى فتاة حسناء ، متفوحة الخدين ، فارغة الرأس والقلب عنها وعن نفسه يقول لزائره :

— هي سعيدة ، ومهما تعمل فطاهرة . فان العلم والمدنية هما قد خلقا الشر الجسدي يرافقهُ الشر الاخلاقي . اني لا أكاد اكون من السعادة مثلها ، اذ اني اكاد اكون من البلاهة مثلها . واذا اصبحتُ لا افكر في شيء ، فاني لم اعد أعذب نفسي . وإذ صرت لا آتي حركةً ، فاني لا أخاف ان اسيء عملاً . حتى حديقتي لا اثقفها ، اشفاقاً من ان آتم فعلاً لا استطيع ان احسب نتائجه . وفي هذه الحالة اراني على تمام الاطمئنان »

فهذا الشخص ، كما ترى ، « روسو الجديد » يتكلم ، وان كان اصح كثيراً من روسو العتيق . واقع هو في نفس الحالة التي يهرب ويظن نفسه بمنجىً منها كما يترى من حيث دعاة فرانس . واذا قابلنا مثاله بأبيقور وجدنا ابيقور رجلاً واقعيًّا متدنياً لا ينكر الجسد ويتحنط كالمومياء . هو يثقف عقله وحديقته يوميًّا ، ويبارز الفلاسفة ، ويعلم الناس . يعلمهم وربما بدون اجرة ، ويقدم حتى نفسه مثلاً . يعلم بأن على الانسان — لا قدرة فقط ، بل حتى شاء ام ابى وبالرغم مما في فكره — ان يعتني بحديقته . والاّ ، فالنتيجة الطبيعية : من اين يأكل ؟ ومن بعض فرط ألم الانسان هل يخلص ؟ عادياً متعادلاً ، حسّاساً ممتازاً ، ولد هذا المخلوق . ومن غابات الهمجية وكهوف السباع فقيراً خرج ، لا طعام على مائدته ولا حائط يقيه العاصفة . وليس كل من جاءت به امه في مدينة مكروهة بصاحب ثروة ، موروثة او « مرسلة » او متعوب عليها ، فيشتري بشيء منها ولو ديراً مهجوراً بمرصةٍ سهلة ، ويكتري ولو فتاة بلهاء تطبخ لهُ الزاد وتُريه وجهَ المرأة

وهكذا ترى . فصاحبنا الذي سيعكس فرانس أفكاره هو عن أفكاره ، كنموذج مبالغ في عقلية الرهبنة الاعتزالية التي تتوارى في وكرها إما لترضى الحياة وخرابها . كما أشار فرانس في

« حديقة أبيقور » الى حدوث ذلك في سبب ازدهار الرهبنة بانهيار امبراطورية روما ومعها جميع بنيان مدنية العالم القديم وأمن الحياة فيه ، وإما لنفس منهوكة ، خيبة ، شاذة ، متقزّزة مُغرقة في توتّراتها العصبية مما يحيط بها ، كما يظهر في اتجاه الافكار الروسوية ، وإما أخيراً بتأثير نواحٍ معتدلة من كلتي هاتين الحالتين معاً كما هو ظاهر في متفلسف فرانس هذا ، الذي مثاله الهرب من المخلوق البشري ، التخاذل عن كل عمل ، الكسل الابدي اللذيذ ، روحه ذات آصرة — على رغم خيطها — بالروح العدمية المقتولة في بعض متشردي قصص مكسيم غوركي ، برغم الفرق الكبير بينهم وبينهُ . انهم في حركة أبدية قائمة محزنة ، وهو في سكون أبديّ مخدّر

على ان فرانس قد خرق منطق صاحبه هذا بطفرته النجلاء ، فبدّد ما اوردت لهُ من كلماته فوق كما تبدّد نفحة نسيم بحري من ارخبيل الاغريق شتات غيوم قطنية مندوفة في سماء صائفة . وذلك حيث يردُّ عليه ، في محادثتهما التالية ، بقوله :

— لو كنت في محلّك لما شعرت بطمأنينة . من قال لك ، يا صديقي ، بأن سكونك الى هذا الدير المغطى بالطحلب والملاب ليس هو عملاً ذا شأن في مجرى الانسانية اعظم من مكتشفات جميع العلماء ، وذا تأثير حقيقة في المستقبل ؟ — ليس هذا بالمحتمل

— بل ليس بالمستحيل ! فأنت تعيش حياةً فريدة . انت تتحدّث بكلمات غريبة قد يمكن ان تجمع وتطبع للنشر . وفي بعض الظروف لا يلزم اكثر من ذلك لكي تصبح ، بالرغم منك وحتى من دون ان يكون لك اي علم بالامر ، مؤسس دين يصبح إيمان ملايين من الناس ، فيجعلهم تساء واردياء ، ويذبحون باسمك الوفاً من خلق آخرين ! . .

— إذن على الانسان ان يموت كي يطمئن ويكون بريئاً

— حذار من هذا ايضاً : ففي عملية الموت اتمام فعل ذي نتيجة لا يمكن حسبان مداها ! »

هكذا جعل هذا المداعب الكبير فرانس ، هذا الابيقوري الأصيل ، المتسربل بجُبّة موروثة في نفس الانسان عن شقرية اخرى من اليونانيين ، عبقرية « بيرهون » ، ذلك الكاهن الاعلى في هيكل الشكوكيين ، ذلك الذي « كان ابيقورس ، في لغة معرب فيلون ، يحب محادثته ومكالمتهُ ويلتذ بسماع قصة معيشته واحواله » — اقول : هكذا جعل اناتول فرانس الابيقوري البيرهوني في نفس الرجل الساذج محدّثه « مرسابأ » بعد اكثر مما كان قد بلغ به . ما ابدع وارق نكتة فلسفته ! ألا ان عبيراً حلواً من نفس ابيقور يفوح عليها !

ولا غرو ، فان هذا الشيخ الاشتراكي الرحيم قد كان ، فيما نعلم ، آخر وابدع كاتب لمع في عصرنا ولا يضير سمعة ابيقور انتسابه اليه ، ولا حديقته تنفيه فيها وتطيبه بين شكول ازهارها ، تحت فواكه غصونها وهيمات ظلالها الوثيدة الميول

حديقة المقتطف

الآخر !

للشاعر الالماني الشهير آرثر شنيتزلر

Arthur Schnitzler

نقلها : ايزاك شموش

شيكاغو

للشاعر كارل ساندبرغ

نقلها : زهدي الداعوق الفاروق

آرثر شنتزلر

كاتب نمساوي - من أشهر كتاب القصر الحديث . ولد سنة ١٨٦٢ وتوفي في سنة ١٩٣١

الآخر !

للكاتب الالماني الشهير آرثر شنيتزلر

Arthur Schnitzler

وحدي !... وحدي !...

انا جالس الى منضدتي ، والمصابيح مشعلة ، الباب المؤدي الى غرفتها مفتوح ، نظري يسبح في ظلام الغرفة ، . . . الاضواء المشعشعة المنبثقة من الدور المقابلة تنعكس على زجاج نافذتي ... يا لله لقد تبدّل كل شيء !... كانت تسبل بعناية ستائر مكتبي ، وتدنيها بعضها من بعض لتمنع عن تقاربنا ، في غيرة قوية ، ضوضاء الشارع والاضواء المجاورة ....

الساعات تمر ، طفت في غرفتي ، ثم أخذت أطوف في غرفتها ، تمددت على كرسيها الطويل ، تمددت عليه بدون حراك ، وطفقت أصوّب نظري نحو النافذة التي تكشف لي عن عالم أصبح بعدها ولا شأن له . . . ثم وقفت الى منضدتها ، وأخذت بيدي اقلامها الحبرية والرصاصية التي لما تزل تعبق بأريج اصابعها . . . انحنيت بعد ذلك على دفتر مدفأتها المطفأ ، وشممت احرّك الاوراق والفحم ، فكأن كل ذلك ، وقد استحال الى رماد ، يصير صريراً حزيناً ، عند ملامسة المحرك الفظ

***

اذهب كل صباح الى المقبرة ، الخريف المتأخر تنيره شمس وقحة ، باردة... لا اكاد اشاهد الجدار الابيض عن بعد ، حتى اشعر بحرقة في عيني ... اطوف بين صفوف الاضرحة اراقب الذين يصلون ويبكون ، اصبحت اعرف بعضهم ، وما يدهشني هذه الطريقة المتشابهة التي تكاد تكون هي هي عند الجميع ، وتلك الحركات التي يكررها كل منهم ، في كل مرة ، بدقة فائقة ... اصبحت اعرف هذه

الفادة التي تتهالك على اقدام ضريع بعلوه صليب ، تجهش في البكاء ، وتذرف دمعات الدموع ، وتضع باقة ازاهير البنفسج على الارض امامها ، ثم تنهض وقد راق لون محياها نوعاً ما ، وتشرع تبتعد عن المقبرة بخطوات سريعة وثابتة . هي تبكي شابًّا في الرابعة والعشرين ، خطيبها بدون شك ... كيف تقوى على النهوض ؟ ومن اي ينبوع تستقي ذلك الرواء الذي يلمع في نظراتها كلما عدت الى النهوض ؟ ... اريد ان اتبعها ، وان اصرخ في وجهها : « لا عزاء ايتها المجنونة المسكينة ! » ولكن ... وأنا ؟ ... انا وقد اعتدت ان آتي كل يوم الى هنا ... عما ابحث اذن ؟

اولئك النسوة ذوات البراقع الحريرية ، والقفازات السود ، يضايقني كثيراً ... لاشك اني مثلهن ، شاحب اللون ، منتفخ الاجفان ، ولكني وأنا تمثل بشيء سام منقطع النظير ، لا أحمل هذا التأثر الذي يرتسم على وجوه الآخرين ، فانظر في شيء من الحسد الى ذلك الانسان الذي تهزه ذات الرجفة التي تهزني

والآن ، فان تأثري تنور لمجرد الافتكار بأن جميع هؤلاء الذين يتبعون بي الاضرحة يلتهمهم نفس الالم الذي يلتهمني ، ذلك الالم الخالد الذي تعجز عن التعبير عنه ! اوه ! يا للرحمة ! جميعهم يتألمون الي والايام تمحي ، فتجلب افكاراً جديدة ، وتبعث آمالاً جديدة ... وتميد بصورة اكيدة ربيعاً يبشر خضرته الصفيقة امام انظارنا ... سيعود الهواء فاتراً ... وستعود الازهار تعطر الجو بأريجها ... وستعود النساء تبتسم كما كانت تبتسم من قبل ... وسنخدع عن انفسنا مرة اخرى ... سنخدع عن اضنا ونسى حزنا ! ...

***

أقف دائماً على بعد بضع خطوات من السجف الذي يواريها ، عندما يرضع الحجر ، استطيع ان اتكىء على درجات الضريح الباردة . واستطيع أن اهني ، وأن أجثو على قبرها ... لا أجرؤ الآن على الاقتراب خشية ان تتهاوى بعض الحصوات على اشلائها ... ومع ذلك تلتهبني احياناً رغبة لا تقاوم للارتماء على ذلك التجف وبثه بأصابعي ... أني لا يعرف الصبر ، هو ألم وحشي ، تصطك له أسناني ... أصبحت أبغض كل شيء ، وجميع الناس ، وعلى الاخص اولئك الذين يتألمون مثلي ...

جميع هؤلاء الرجال ، والنساء ، والاطفال ، الذين أصادفهم كل يوم ، يثيرون حفيظتي . . . أتمنى لو أستطيع ان أطردهم . . . وأي حزن ينتابني ، بصورة خاصة ، عندما أفكر ان احدهم جاء البارحة للمرة الاخيرة . اذ أحس بسكرين المرء الماهر ولاحظ انهُ يخف من يوم لآخر ، وهو يعود من المقبرة . . . انهُ عاد لا يتألم . . . لقد استيقظ ذات صباح باسماً . . . آه . . . كم أبغض اولئك الذين يستعيدون ابتسامهم !

هل يأتي يوم أستعيد فيه انا ايضاً ابتسامي ؟ . . . وأنسى ؟ . . . لا تكاد ذكرى شابي تفارقني : اني لا أرى نفسي أجتاز الغابة الى جانب محبوبتي . . . كان عليَّ ان أكون سعيداً جداً ، وقد كنت سعيداً جداً . . . ولكن هنالك بعض لحظات تلتهم في أحشائها كل شيء ، تلتهم المستقبل والماضي لانهما الخلود نفسه ! لم أكن قط من اولئك المتزمتين الهادئين الذين يعبرون الطريق الكبيرة ، ويتوغلون في الحقول ، ويتمددون بلطف في ظلال الغابة ليتذوقوا النسمات البليلة التي يتنشقها بها صباح منوَّر . . . كلاَّ ! لم أكن من هؤلاء ، وانما كنت أتسلق الاشجار ، لاستكشف آفاقاً أوسع ، وكنت أشاهد الطريق اذ ذاك تتلطف في السهول البعيدة حيث يحتضر الربيع . . .

في هذه الغرفة ، وازاء هذه النافذة ذاتها ، التصقت بي ذات يوم امرأة وأخذت تعانقني وتقبلني . . . رجفة باردة هزتني . . . الدقائق ، الساعات ، الايام السنون ، كل ذلك أخذ يهرب ، مسرعاً ، مسرعاً . . . انتهى عهدنا . . . دبَّ الهرم . . . أدركنا النهاية . . . هكذا كنت أدنس حبنا ، باعترافي بقابليته للزوال ، وهكذا أدنس الي الآن لتفكيري بأنهُ سيأتي يوم أبتسم فيه !

من هو هذا الرجل ذو الشعور الشقر والعيون الحزينة ؟ من يبكي ؟ الضريح الذي يزوره كل يوم كان على بعد بضع خطوات من ضريح امرأتي . . . لقد استوقف نظري هذا الرجل لاني لم أستطع ان أبغض كالآخرين . . . هو يأتي قبلي ريثما حتى بعد ذهابي . . . ومن المحتمل انني كنت لا أشعر بوجوده لو لم أشعر ذات يوم بنظراته ترمقني في كثير من الحنان أزعجني . . . تفرست في وجهه ، فحوَّلهُ عني شيئاً فشيئاً ، ثم أخذ يبتعد وهو محاذ الجدار . . . لا بدَّ اني عرفتهُ قبل اليوم . . . ان وجههُ ليس غريباً عني ! . . .

أين رأيته اذن ؟ . . . في سفر ؟ . . . في مسرح من المسارح او شارع من الشوارع ؟ انهُ يشعر بحزني بصورة غريزية . . . ربما كان بعضهُ حزن كحزني . . . لعلَّ هذا العرض يفسّر نظراته ، ماني لن أنساها قط : انهُ شاب وجميل !

***

ها قد جلست مرَّة أخرى الى منضدتي ، أزهار ذابلة تحيط برسم المرأة التي كانت قرينتي ، بل سعادتي ، بل دنياي ! . . . بدأت افهم الاشياء وأقدّرها . . . الايام التي عشتها أخيراً غشت على عقلي . . . أخيراً وجدت نفسي . . .

للمرَّة الاولى منذ شهر . عزمت على ان أشغل نفسي ، ان أفتح مكتبتي ، ان أطالع ، ان انظر في بعض الاوراق ، ان افكر . . . .

لم افعل شيئاً من ذلك . . . عدت الى المقبرة . . . كان الليل قد شرع ينشر اجنحته السود . . . ليس في المقبرة احد . . . للمرة الاولى جثوت على ضريحها وطفقت أقبل الارض التي حثت عليها فوارتها تحتها . . . ثم اخذت ابكي : نعم بكيت . . . لا صوت . . . لا نأمة . . . صمت رهيب . . . هواء ساكن ، بارد . . . نهضت التمس الخروج بين صفوف الاضرحة من جهة الكنيسة . . . لا احد . . . كان القمر يسكب ضوءه على صليب ، وعلى الاحجار ، بصورة لا يمكن ان يفوتني معها وجود شخص ما . . . فلما هممت بالذهاب صادفت امرأة ، ملفحة في نقاب أسود ، وفي يدها منديل . . . اني اعرف النساء . . . كانت الطريق العريضة المؤدية الى المدينة بيضاء تحت اشعة القمر ، وكنت اسمع وقع خطواتي ، لم يكن هنالك من يتبعني ؛ وهكذا بلغت منفرداً اطراف المدينة حيث استقبلتني بيوت الضواحي والحدائق ، وترددت في اذني اصداء الحياة والضوضاء . . .

اشعر بتحسن حالي . . . الآن وقد عدت احس برغبة ملحة كنت قد نسيتها منذ زمن طويل ، احس رغبة قوية تفتح منفذي ، توسع حاسة الشرب ، توسع اصواتاً بشرية . . . ولكن الليل هرم وخرس . . . تكاد اصابعي تجمد من البرد وانا اكتب ، والضوء يضطرب رغم سكون الهواء . . . .

كنت مستنداً الى جدار المقبرة ، وكانت صفصافة ضخمة تحجبني عنهُ . . . بكّرت كثيراً لاكون الاول ، وصلت في غرفة الحفار صباح يومين . . . جاء بعدي

كثيرون ، لماء على الاخص ... وفجأة ... هو ا... اقترب بهدوء من المكان المعتاد ، اقترب بهدوء بين الواسطين الحزينتين ، ثم جثا على اقدامه . . بذلت قصارى جهدي لاراه جيداً ... فرأيته يجثو على ضريح امرأتي !!!

انقطعت عن كل حركة ... اخذت انتقامي تتردد لاهثة متقطعة ... تشنجت اصابعي وهي تشدّ على اغصان الصفصافة ... مرت دقائق ... لم يكن يصلي ... لم يكن يبكي ... واخيراً نهض وشرع يطوف بدون وجهة معينة ، كما كان من عادته ان يفعل ... فاقتربت من الضريح ، ووقفت على بعد منهُ ، مستنداً الى حاجز حديدي يكتنف ضريحاً آخر ، واذا به يعود من ناحيتي وينظر اليَّ بهدوء ... ويستأنف سيره ... ويمر ... اردت ان اسأله ، ولكني لم افعل ... شيّعتهُ زمناً طويلاً بأنظاري ، الى ان اختفى وراء الكنيسة !

لا اعرف بماذا كنت اشعر ، ولا اعرف بماذا اشعر الآن ! ... ولكن سيأتي يوم ... ربما كان غداً ، اراه فيه ، واسأله ، واعرف كل شيء !

* * *

آه يا لها من ليلة ! لا أستطيع ان أرقد ! لم تبلغ الساعة الواحدة . . . فلماذا لا اعود الى المقبرة ؟ ... ماذا استطيع ان افعل هنا ؟ ... هيا بضع ساعات صبر ، بضع ساعات فقط ، وجنوني يعرف لهُ حدّاً . . . يتضح كل شيء ولكن الى ان يتضح ؟ . . . صبراً ! . . . بضع ساعات وتنقضي !

* * *

أجل على ضريح إمرأتي ! . . . هنالك رأيتهُ مرة ثانية ! ! ! كنت على بعد عشر خطوات منهُ ، لماذا لم انقض عليه ؟ ولماذا لم أقطع عليه الطريق ؟ عندما شاهدتهُ يبتعد ؟ أليس من حقي ان أسأله عن اسمه ؟ ومن أستطيع ان استفهم اذا لم استفهم منهُ ؟

حين أراد تخطي الباب تبعتهُ ، ولكن يظهر انهُ أحسّ بي ، أجل لست مخطئاً لقد أحسّ بي ، ولذلك حثّ خطاه مسرعاً ، وأنا بدوري حثثت خطاي ، حتى اذا بلغت الباب ضاع عن عيني لحظة ، ثم ابصرته يتخطى سيارة ، اندفعت تعدو بي مسرعة . . . لم تكن هناك سيارة أخرى ، فطاردته راجلاً ، ولكنهُ لم يلبث ان ابتعد عني كثيراً . . . مدة طويلة ، طويلة جدّاً ، وقفت أشيّعهُ بنظراتي كانت

الطريق مستقيمة ، فما زلت أراقبهُ عن بعد حتى اختفت السيارة عن بصري ، فلبثت في ذلك المكان كما أنا الآن لا أبث أمام هذه الورقة في حالة قريبة من الجنون ! من هو هذا الرجل ؟ الذي يتجرأ على ان يجثو على ضريح امرأتي ؟ من يكون هذا؟ كيف أعرف ذلك ؟ كيف أراه ثانية ؟ . . . آه ! ان ماضي بأسره ينهدم ! إن ماضي بأجمعه تعبث به يد الشويه ! هل هو مجنون ؟ . . . أمن الممكن ان لا تكون قد احبتني ؟ . . . ألم تكن تقف وراء هذا الكرسي؟ ألم تكن تضع شفاهها على جبيني وتلف ذراعيها حول عنقي ؟ . . . ألم تكن سعيدة ؟ . . . ولكن من يكون اذن هذا الشاب الاشقر الجميل ؟ . . . ولماذا بدا لي محياه غير غريب عني ؟ . . . انهُ ليخيل إليَّ الآن اني شاهدته مراراً في المسارح وفي الملاهي ، جالساً تجاهنا وعيونه مسدَّدة الى امرأتي ، لا تكاد تحيد عنها ! . . . ألم يكن هو الذي وقف ذات يوم عند مرور سيارتنا ، وتبعنا زمناً طويلاً بنظراته ؟ من هو ؟ من ؟ من ؟ أيكون عاشقاً افلاطونيًّا ؟ لم تعرفهُ ؟ ولم تتجه انظارها اليهِ قط؟ . . . لو لم يكن الامر كذلك لعرفتهُ أنا أيضاً ، إذ كان لا بدَّ لهُ ان يبحث عن وسائل ليرانا في المجتمعات وليتحدث الينا . . . ولكن كلاَّ ! . . . ربما كان يحذرني . . . انهُ تعرَّف على امرأتي ولم يتعرَّف عليَّ ، فتبعها في الشارع وتجرأ على توقيفها . . . كلاَّ . . . لو كان شيء من ذلك لأعلنني به . . . ولكن هل كانت تطلعني بهِ ؟ واذا كانت تحبهُ ؟ . . . ولكنها كانت تحبني ! . . . كانت تحبني ؟ من أين لي هذه الثقة ؟ ألأنها كانت تقول لي ذلك ؟ جميع النساء يقلن ذلك ! . . . والخيبات يسرقن فيهِ أكثر من الطاهرات . . . أوه ! سأجده وسأسأله ! . . . وهو ، على فرض أنها أحبتهُ ، بماذا يحييني ؟ . . . أزور ضريحها لاني كنت أحبها ، ولكنها لم تعرف ذلك قط ! . . . هل استطيع ان اضطره الى قول الحقيقة ؟ . . . ما العمل ؟ . . . هل أستطيع ان استمر حيا هكذا ؟ ؟ ؟

* * *

ثلاثة أيام لم اشاهده خلالها ، كنت اذهب كل يوم ، ولكنهُ لم يعد ثانية . . . الحفارون يجهلون اسمه ! ربما كان قد سافر . . . ولكنهُ سيعود ! . . . سيعود ؟ واذا كان قد توفي ؟ . . . اذا كان قد توفي لانهُ لا يستطيع ان يحيا بدونها ؟ آه ! ان المسألة تبعث على الضحك : أيكون هنالك رجل آخر لا يستطيع ان يحيا بدونها ؟

لن تكون لي سوى رغبة واحدة ، وهي ان اقول له : «سيدي المحترم . لا تذهب في تفجعك عليها الى هذا الحد ، اذ من المحقق انها احبتني انا ايضاً » اريد ان اجعله ضيوراً ... قذفت برسمها تحت منضدتي ، هوذا في وسط الغرفة ، على الارض بين رسائلها ، بين رسائلها التي كانت تحفظها في خزانتها وأدراجها ، فتحتها كلها ونبشت فيها ... ماذا وجدت ؟... رسائل كنت ارسلتها اليها ازهاراً كنت اعطيتها اياها ، وشرائط حريرية ، وتذكارات ... ربما كانت بين كل ذلك زهرة مقدمة من قبله ... كيف اعرف ذلك؟ وماذا كنت ابغي العثور عليه ؟ او هل تحتفظ المرأة بشيء يمكن ان يخونها ذات يوم ؟ افرغت جيوبها ، وقلبت أثوابها ، باحثاً عن ورقة ، ورقة غرامية ، تكون قد نسيتها سهواً ... لكنها لم تمس شيئاً !!!

لم اعد بعد ذلك الى المقبرة ، اني ارتجف لمجرد التفكير برؤية ذلك الضريح ! احيا الآن ساعات اخف من قبل ، لان الايام الاولى قد عبرت دون ان يصاب عقلي بخلل ، وعليّ ان اقنع بعدم معرفة الحقيقة ابداً ... كم احسد الرجال الذين يعرفون ان نساءهم تخونهم ، اذ انهم بتأكيدون من مصيبتهم ! وكم احسد اولئك الذين اذا امضهم الشك فاستطاعوا ان يراقبوا نساءهم ، على امل ان يخونهن كلة ، او لفتة ، او حركة !!! اما انا فقد قضى عليّ الهلاك ! لان الضريح احرس لا يحب ويتفق لي احياناً ان انهض في الليل مذعوراً من كابوس مخافة ان اكون قد دنست ذكرى امرأة طاهرة !!! آه ! لو استطيع ان احب ذكرى تلك المرأة التي منحتني ذلك المقدار العظيم من السعادة !!! لو استطيع ان ابغض تلك المرأة التي خانتني وبصقت بكرامتي ؟...

اعدت رسمها الى منضدتي ... لمته من الارض وأعدته الى مكانه ... لماذا لا استطيع ان اعبدها ؟ و... ان اجثو امام رسمها كما اجثو امام رسم قديسة وأبكي؟ لماذا لا استطيع ان احتقرها؟... ان امزق هذا الرسم وأن ادوسه بأقدامي؟؟؟

طيلة ليالٍ كثيرة ... بكاملها ... لبث نظري عالقاً بهاتين العينين ، الصامتين ، الباسمتين ، المحاطتين بالالغاز !!!

ايزاك شموش
استاذ اللغة والآداب العربية
في الجامعة العبرية بالقدس

شيكاغو

Chicago

للشاعر كارل ساندبرغ

يطالع القارىء في هذا العدد من المقتطف مقالاً قيماً جداً في « آلية الثمن » ص ٣٠٨ . وقد أشار كاتبه في آخر فصله الرابع الى أمثلة من الشعر الاميركي يمكن القارىء من استطلاع تطور الآداب وتأثرها بحضارة القرن العشرين الآلية . وقد أرفق بمقاله قطعتين مختارتين اكتفيه الآن بإحداهما — وهي التي عنوانها شيكاغو — على أن ننشر الثانية وعنوانها التربين Turbine في عدد تالٍ . والشاعر صاحب « شيكاغو » ولد في أميركا سنة ١٨٧٨ من أصل سويدي وقد عالج الاعمال اليدوية في حداثته وسرب في جانب أسبانيا وبورتوريكو وهو في العشرين ثم انصرف الى الادب والصحافة

يا جزارة الخنازير للعالم ...
يا خالقة الآلة ... مكدسة الحنطة ...
اللاهية بخطوط القطارات .. القابضة وسق [1] الشعوب .
إنك عاصفة .. أجشة الصوت .. مكافحة .. مدمدمة ..
يا مدينة ذوي الاكتاف العريضة :
يحدثونني بأنك فاجرة ، وأنا أومن بما يحدثون ...
لأني رأيت نساءك ذوات الاصباغ ...
يغرين — على ضوء مصابيح الطرق — شباب الريف
ويبثثنني بأنك معوجة ... ملتوية الخلق ..
فأجيبهم : أحق ! حقاً ما تقولون ..
فقد شاهدت المجرم يزهق الارواح بتدقيه ...
ثم ينطلق حراً ليقتل ثانية
ويخبرونني بأنك وحشية ... أما جوابي فهو : —

(١) الوسق هو أجرة الشحن

على أوجه النساء والاطفال ... قد طالعت علائم الجوع الشرس ...
وعند ما القيت اجابتي ...
التفت الى من استهزأ بي ، وعيرني ببلدتي ...
فرددت اليه هزءاً بسخرية ، وقلت : —
أروني بلداً آخر .....
يشمخ برأسه ... وينشد بكبريائه ...
ليكون حيًّا ... نظيفاً ... قويًّا ... داهية .. !
« أنظر اليه يرشق الاعمال الكدسة المنهكة بالعنات الحارة ...
هذا الخلاق الجريء القعده !
الذي يواجه المدن الصغيرة متجلّباً في القضاء » (١)
انهُ ضار كالكلب ، يلغ بلسانه وراء العمل ...
مخال كالوحش الذي يهيم في الفلاه .
انهُ حاري الرأس ... يجرف ، يدمر ، يخطط ...
يبني ... فيهدم ... ليبني ثانية ...
وسط الدخان ، يكلل الغبار فمه ، يضحك عن أسنان بيض ،
تحت عباء الغدر المرعب ، يضحك كما يضحك الصبي الغرير ...
يضحك كأنما هو محارب ساذج لم يخسر معركة واحدة .
يضحك لان تحت معصمه يضرب النبض ... وبين ضلوعه قلب الشعب .
يضحك ضحكات الشباب العاصف ، الاجش الصوت ، المكافح .
نصف عريان ... يتصبب عرقاً ...
لحوز لانهُ حزام الخنازير
خالق الآلة ... مكدس الحنطة .
العابث بخطوط القطارات ... القابض وسق الشعوب
[ترجمة : زهدي التاجي الدروبي]

(١) في الاصل : —
"Hinging magnetic curses
Amid the toil of piling job on job,
Here is a tall bald slugger
Set vivid against the little soft cities

باب الأخبار العلمية

العلم واذاعته وفوائدها [1]

عند ما شرفني حضرة مستشار الاذاعة الاستاذ محمد سعيد تعلق بأن اجعل «العلوم المبسطة» الموضوع العام الذي تدور من حوله احاديثي المذاعة لبيت عن طية خاطر. ليت لانني موقن ان نواحي متعددة من المباحث العلمية تنطوي على كثير مما لا يبلغهُ الخيال احياناً من المتعة الذهنية الخالصة ولانني اعتقد أن تحبيب العلم الى الناس انما هو توطئة لابدَّ منها لخلق بيئة روحية تُعزُّ العلم والمشتغلين به فتجب العلماء. ولست اعرف امة واحدة في هذا العصر، استطاعت ان تبلغ شأواً بعيداً فيه الا بعد ان خلقت هذه البيئة. وأحببت هؤلاء الرجال. وعلاوة على ذلك وذاك، اني أرى بالاختبار ان العلم الصحيح، يطبع طالبهُ بالصفات الروحية المثلى، بالصبر والصدق والانصاف والاخاء، فاذا ساورهُ الغرور وفاخر بما ادرك من علم وقوة، فينقلب الى كتاب من كتب الفلك الحديث، او ليرسل طرفهُ في هذه العوالم المنثورة في رحاب الفضاء وفي ذهنه شيء من تلك الكتب، يعرف عندئذٍ مدى جهله ومبلغ ضعفه فتدركهُ سجية التواضع والدعة. ان العلم يثقف العقول فيدنيها من قدس الحق لانهُ يجهزها بوسائل البحث عن الحق. ويعلمنا ألاَّ نقنط حين تحدق بنا المصاعب لان العلم لا يتقدم، وهذه المخترعات العظيمة لا تتمُّ، الا بالبحث الدقيق والصبر الجميل والمثابرة التي لا ينقطع حبلها. ثم ان كلَّ خطوة يخطوها العالم الى الامام توقظ فيه ذلك الحبور الروحي الذي كان ينسب الى الحكماء الاقدمين عند ما تأخذهم نشوة الفكر الاعلى

يضاف الى هذا ان غرض العلم الأسمى غرض روحاني، هو تحرير الناس من ربقة الاستعباد للقوى الطبيعية بتوفير الراحة والرفاهة للجسم فيتحرر العقل ويتسع امام النفس افق المعرفة والفهم. ولقد صدق من قال أن المعرفة محرِّر المستعبدين لا الثورة.

على ان هذا لا يعني: سيداتي وسادتي، ان العلم خير محض. فكلُّ من يحسب ذلك ويجرِّد الاشارة الى معدات الحروب الحديثة وما يصحبها من ألم وويل يكفي. ثم ان الحضارة الحديثة مصابة بالتواء في اجتماعها وعرج في تخلفهُ الآلات الجديدة من تعطيل الناس عن العمل وإقامة شبح الفاقة والعسر جنباً الى جنب ووجهاً الى وجه مع تمثال الثروة والمتعة

الا مردَّ هذا وذاك ليس الى العلم نفسه. فهو يعطينا الاسعدة بيد وينتزعها بأخرى،

(١) كلمة أذاعها رئيس تحرير المقتطف في العيد الرابع لمحطة الإذاعة المصرية في ٣١ مايو ١٩٣٨

والاشعة السينية والمخدرات النفية بيد، والمدافع الرشاشة وانواع الخانق والمتيات بأخرى ، والمفرقعات نفسها تستعمل لشق الترع وفتح المحاجر كما تستعمل للهدم والقتل . والصلب لا يحصر استعمالهُ في صنع الأسنة وسك السيوف بل نحو يستعمل ايضاً في صنع المحاريث والسيارات والحصادات وسكك الحديد. فالعلم بحد نفسهِ لا يخدم اله الحرب دون اله السلم ، وانما يعود الفرق بين احسان الاستعمال واساءته الى نفوسنا وشهواتها وأغراضها الادبية . هنا السر المكنوف. ذلك بأن قوة الانسان قد سبقت حكمتهُ في احكام استعمالها . فالعلم لا يغير رغبات الانسان الاصلية وانما يمهد له سبل تحقيقها . هنا نخرج من ميدان العلم الى ميدان التعليم . بل هنا نخرج من العلم الى الاجتماع . فلو ان العلماء كانوا أنفذ بصيرة ورجال السياسة أبعد فهماً ورجال الاعمال أقل عناية بالكسب الفادح ورجال الحكومات اعظم اقداماً وأبعد بصراً، ورجال التعليم أشد انطباعاً بمبادىء الاسلوب العلمي ، لكان في المستطاع ، ان يرقى المجتمع الحديث جانباً غير يسير من الرجة والقلق اللذين أصابا من ارتقاء العلم في العصر الحديث

هذه البشة الروحية العالية التي ينجب فيها العالم الصحيح ويكرم — هي على مدى نهيي — الغرض الذي تبغيه ادارة الاذاعة العربية المصرية ، من نشر الاحاديث العلمية المبسطة ، على اختلاف مذهبيها وموضوعاتهم . وفي وسعي ان اقول متواضعاً ان مستواها في الطبقة العالية مادة وبياناً . والفضل في ذلك عائد الى مستشار المحطة وأعوانه الافاضل . فأنا اذ اشترك في هذا العيد ، اشارك بوجه خاص في الاحتفال بتقدم الفكرة العلمية في البلاد ، وتشجيعها باذاعتها على اجنحة الاثير

* * *

تجاوب النبات وتأثيره في نموها

كثيراً ما تفضي المكتشفات العلمية الى ارتقاء العلم المحض ومن أحدث الادلة على ذلك تقرير باحث ألماني يدعى الدكتور هانس مولش Molisch الى حقيقة جديدة عن نمو النبات ، بالاستناد الى اكتشاف عملي في انضاج الثمار

فقد ذاعت في السنوات الاخيرة طريقة لانضاج الثمار بتعريضها لغاز الاثيلين. وقد أشرنا الى ذلك في حينهِ في المقتطف . ومن الادلة على ذلك ان تعريض الليمون والموز لغاز الاثيلين مدةً قصيرة ينضجهما طبعاً ويحوّل لونهما الى الاصفر خلال بضعة أيام . ثم تبيّن بعض الباحثين انهُ اذا وضعت ثمار ناضجة مبكرة قرب ثمار متأخرة النضج ، أثرت الاولى في الثانية فيسرُع نضجها

هذه الحقائق والمشاهدات حملت فريقاً

من الباحثين ، بينهم الدكتور موليش ، على اجراء تجارب بنية الوصول الى سر ذلك . فأسفرت التجارب عن اشياء تستوقف النظر بل وتبعث على الدهشة

***

وقد دارت احدى هذه التجارب على فروخ نبات من فصيلة الفول وفروع شجرة تفاح

أخذ الدكتور موليش أولاً يزور النبات الذي من فصيلة الفول ويزور الحمص وزرعها في حوجلات تحتوي على رمل ومحفوظة في الظلام . وعدَّد الحوجلات التي على هذا المنوال ولكنهُ وضع في ثلاث منها تفاحاً ناضجاً . وما لبث حتى تبين فروقاً تستوقف النظر في فروخ البذور بعد انباتها . فبعد خمسة أيام تبين ان سوق الفروخ في الحوجلة التي لا تحتوي على التفاح يبلغ طولها ٨٥ ملمتراً حالة انها لا تزيد في الحوجلات المحتوية على التفاح على أكثر من أربعة ملمترات . هذا في مايخص نبات الفول . أما سوق الحمص فكانت المقاييس ٧٥ ملمتراً و ٥ ملمترات على التوالي . ففروخ الفول كانت أبطأ نموًّا حيث كانت الحوجلة حافلة بالابخرة الصاعدة من التفاح الناضج . وكذلك فروخ الحمص . وكانت الجذوع في الحوجلات النقية الهواء مستقيمة حالة انها كانت معوجة في الحوجلات التي فيها التفاح

وقد مكنتهُ هذه التجربة بعد تويجها من ان يثبت ان التفاح لا يبطىء نمو النبات بل يزيدهُ اذا كان مدى تأثيره في النبات قصيراً . وهذا القول يستقيم مع ما يعرف عن تأثير السموم والمواد المميتة في الجسم فانها اذا كانت مركزة أضرت به ولكنها اذا كانت مخففة كانت ذات فائدة

وتأثير التفاح في النبات المجاور لهُ ناشىء عن الغازات المنطلقة من التفاح . هذا الغاز هو غاز الاثيلين وهو ينطلق في جوّ الحوجلة فتتناولهُ النباتات المتنفسة فيؤثر فيها التأثير المتقدم ذكرهُ

ثم جربت تجارب أخرى ظهر منها ان ثماراً أخرى كالكمثرى والخوخ والدرّاق تؤثر تأثيراً قويًّا في الفول وغيره من الخضراوات . وللبرتقال والبرتقال اليوسفي والليمون والموز والمشمش تأثير من هذا القبيل ولكنهُ أضعف من تأثير الثمار الاولى

ثم نوعت التجربة فبدلاً من ان يوضع التفاح كاملاً في بعض الحوجلات وضع قشره في بعضها ولبهُ في البعض الآخر ، فظهر ان تأثير القشر ضعيفٌ وتأثير اللُّب قوي . وامتحن تأثير الجذور فظهر ان الغازات التي تطلقها تؤثر أيضاً تأثيراً متفاوتاً في نمو النباتات المجاورة لها

***

ومن النتائج التي أسفرت عنها هذه التجارب ان الغاز المنطلق من التفاح يعجل سقوط الاوراق من الغصون

أكبر جزيء في الجسم

كشف الدكتور سترن Stern والدكتور ويكوف Wyckoff وهما من اساتذة جامعة يايل الاميركية صبغاً جديداً احمر في الكبد وفصلاه مستقلاً باستعمال جهاز جديد من اجهزة القوة الطاردة ، فاذا الجزيء يفوق جزيء الحبر (الهيموجلوبين) خمسين ضعفاً حجماً . وقد تسنى لهما هذا الكشف خلال بحثهما في كبد الفرس عن انزيم enzyme كبير الشأن يدعى كاتالاز Catalase

قال الدكتور سترن عند قراءة رسالته في هذا الموضوع أمام الجمعية الكيماوية الاميركية في فرعها النيويوركي ما يلي : « وهذا الصبغ الاحمر يختلف على مدى ما نعلم عن أية مادة أخرى في الكبد او غيرها » ولم يعلم من خواصه بعد ما يمكن كاشفيه من وضعه في طبقة معينة من المواد الكيماوية المعروفة . ولكن وزنه الجزيئي يختلف من ٣٠٠٠٠٠٠ الى ٤٠٠٠٠٠٠ ولا تعرف مادة أخرى في أجسام الحيوانات العليا يمكن ان يبلغ جزيئها هذا الحجم . الا ان جزيء « الهيموسيانين » وهو صبغ يوجد في دم الحيوانات غير الفقرية ويحتوي على النحاس قد يقاربه

ولا يزال العمل البيولوجي الذي يقوم به هذا الصبغ الاحمر الذي كشفه سترن ويكوف غامضاً ولكنهما يريان ان له صلة باستعمال الاوكسجين في جسم الحيوان

* * *

أتمشى بلوطو طبقة من الهواء السائل ؟

لا يخفى على قراء المقتطف ان « بلوطو » هو اسم السيار التاسع في النظام الشمسي الذي كشف في شهر فبراير من سنة ١٩٣٠ في مرصد فلاغستاف بولاية اريزونا الاميركية وكان لمرصد حلوان شأن كبير في تعيين عناصره

ومن رأي السر جيمز جينز عالم الانكليزي ان هذا السيار تغشاه طبقة من الهواء السائل لشدة برده الناشيء عن بعده عن الشمس . وان هذه الطبقة تفعل فعل المرآة ، فلا يرى الضوء منعكساً الى مراقبنا الا من وسطها اما الضوء المنعكس عن أطرافها فلا يصل الارض . ولذلك يتعذر ان يتخذ اشراق السيار البادي لمراقبنا أساساً لحجمه ، فهو اكبر مما نظن

فاذا اخذ العلماء بهذا الرأي ، استطاعوا ان يفسروا تأثير هذا السيار في حركة السيارين اللذين قبله وهما نبتون واورانوس . وهذا الاضطراب في فلكهما هو ما حمل الاستاذ بكرنج على القول بوجود سيار وراء نبتون قبل عشرين سنة او أكثر ، فما كشف « بلوطو » تعذر على العلماء ان يوفقوا بين صغر حجمه البادي وتأثيره في فلكي نبتون واورانوس فتحيروا

تاريخ كلية الجراحين الملكية بلندن

انتخب الدكتور محمود بيومي الجرّاح المصري والاستاذ بكلية الطب المصرية زميلاً في كلية الجراحين الملكية بلندن وهو اول مصري انتخب زميلاً وأول اجنبي من ثلاثين جرّاحاً انتخبوا الزمالة فيها في الاربع والستين السنة الماضية

كانت الجراحة في العصور الوسطى يمارسها الحلاّقون، وفي سنة ١٥٤٠ اصدر البرلمان الانكليزي قانوناً يقضي باتحاد هيئتين مختلفتين كانتا قائمتين في ذلك الوقت احداهما تعرف باسم حلاّقي لندن، والاخرى باسم جرّاحي لندن. وكان لا بد من تعيين اربعة رؤساء سنويًّا: اثنين من الحلاّقين، واثنين من الجراحين وقد حظر على الحلاّقين ان يقوموا بعمليات جراحية فيما عدا خلع الاسنان كما حظر على الجراحين ان يمارسوا مهنة قص الشعر والحلاقة ...

وفي خلال القرن التالي تقدمت الجراحة تقدماً كبيراً ولم يلبث عام ١٦٨٤ حتى وجد الجرّاحون ان اشتراكهم مع الحلاقين لا يلائمهم ويسبب لهم مضايقة كبيرة. وأخيراً اصدر البرلمان [illegible] قانوناً آخر يقضي بحل الاتحاد وانشاء هيئتين مختلفتين. فألفت هيئة الجرّاحين باسم أساتذة من الجراحين بلندن وهذه الهيئة تطوّرت مع الزمن حتى صارت كلية الجراحين الملكية بانجلترا وهي تضم اليوم ٢٠٤١٦ عضواً

والكلية الملكية ذات شهرة عالمية وهي تضع قواعد الامتحانات وقبول الاعضاء وتنظر في جميع المسائل الخاصة بسوء سلوك الزملاء والاعضاء ولها سلطات مطلقة. وكل عضو او زميل يعزل بقرار من المجلس، يفقد جميع حقوقه وامتيازاته وتصبح شهاداته (دبلوم) او شهاداته العلمية ملغاة

وزمالة كلية الجراحين الملكية امتياز تصبو اليه النفوس كثيراً، وفي الامكان الفوز به بتأدية امتحان صعب دقيق ينقسم الى قسمين: الاول في التشريح والفيسيولوجيا، والثاني في البثولوجيا وفن جراحة العظام والجراحة عامة وغيرها من العلوم التي يرى المجلس من وقت الى آخر انها لازمة

وفي لندن الآن خمسة عشر جراحاً مصريًّا يعملون لتأدية هذا الامتحان في المستشفيات التي يعترف بها المجلس للتعليم. ويبلغ عدد الذين نالوا لقب زميل بعد الامتحان ٢٣٣٣

ويمنح المجلس من وقت الى آخر الزمالة الفخرية لاشخاص عظماء ممتازين. وقد نال المغفور له الملك فؤاد الاول هذا اللقب في أغسطس سنة ١٩٢٩ وبحمل الدكتور علي باشا ابراهيم هذا اللقب الفخري ايضاً وقد ناله في نوفمبر سنة ١٩٢٨

ما شرف الزمالة بالانتخاب يندر ان يمنح لطبيب. ولم ينتخب في الاربع والستين السنة

الاخيرة سوى ثلاثين زميلاً وهم يشملون اشهر الجراحين البريطانيين ، والدكتور بيوي هو أول جرح اجنبي أنتخب زميلاً لهم

وتقضي لوائح المجلس بان يكون التفوق في الجراحة او في العلوم التي لها علاقة بالجراحة ، أهم المزايا التي تبرر التوصية بقبول المرشح زميلاً ولا يجوز تقديم طلب شخصي الى المجلس ولا يقبل ترشيح مباشر ولكن يجوز ان يعرض على المجلس اقتراح بقبول عضو مضى عليه عشرون عاماً على ان يوقعهُ ستة من أعضاء المجلس يجاهرون بأنهم يرون ان الشخص المرشح يصلح للقبول في زمالة الكلية . وبعد ذلك يقترع المجلس على قبول شخص برشح بهذه الطريقة في الاجتماع الذي يعقده كل ثلاثة أشهر . وعلى كل عضو في الكلية يقبل بهذه الوسيلة في زمالتهم أن يتعهد امام المجلس بما يلي فيقول:

« أنا فلان العضو بالكلية الملكية للجراحين بانكلترا : أعلن باخلاص وصدق اني سأراعي ، ما دمت زميلاً في الكلية المذكورة ، قوانينها وان اشيع كل نداء مشروع يصدر باسم مجلس الكلية ما دام ليس لدي عذر معقول يحول دون ذلك »

* * *

اكبر ألسنة الشمس

في المقال « الكلف والاشعة الكونية » — راجع صفحة ٢٧٤ من هذا العدد — يجد القارىء اشارة الى الالسنة التي تندلع احياناً من سطح الشمس ويبلغ ارتفاعها عنهُ ٢٥٠ الفاً من الاميال احياناً

وقد اطلعنا ونحن نكتب هذه السطور على ان علماء مرصد جبل ولسن بكاليفورنيا رصدوا أكبر لسان من هذه الالسنة النارية سجلتهُ الآلات الفلكية على ما يعلم ، اذ بلغ ارتفاعهُ عن سطح الشمس بحسب القياس الذي قام به الدكتور بتيت Pettit ٩٧٠ الف ميل وكان لايزال آخذاً في الارتفاع عندما اخذت الصورة التي بني عليها هذا القياس . واعظم ارتفاع سابق لاحد هذه الالسنة كان ٦٧٠ الف ميل . رصد وقيس في ١٧ سبتمبر ١٩٣٧

الطيران حول الارض

في خلال شهر يوليو الماضي تمكن الشاب الزبي الاميركي رتشرد هيوز من الطيران حول الارض في اقل من اربعة ايام فتخطى بذلك الرقم القياسي الذي ضربهُ ويلي بوست اذ طار حول الارض في سبعة ايام . ولكن بوست كان يطير وحدهُ بطيارة قديمة . واما هيوز فاستقلَّ طيارة من احدث طراز وكان معهُ رفيقان . ولكنا الرحلتين فاقتهما في شتى الطرق الجوية فالاولى مهدت الطريق والثانية اثبتت امكان زيادة السرعة واستعمال طيارة كبيرة تتسع لاكثر من واحد

***

— هل تعلم ان سرعة الثورة القطبية الشمالية بنايسع حارّة تبلغ درجة حرارتها ٩٠ درجة مئوية ؟

مكتبة المقتطف

النزعة العلمية في الادب الحديث

كما لمستها في ثلاثة كتب

الحياة في عصرنا تفهم على ضوء العلم الحديث ، ومن لم يتزوّد من الثقافة العلمية أستغلقت عليه اسرارها وضلّ في تيهها سواء السبيل

تعقدت الحياة عما كانت عليه في القرون الوسطى ، حين كان العلم وليداً وكلما اتسع افقهُ وبعدت اغواره ازدادت تعقيداً ، فكيف بثقافة القرون الوسطى وما نحا نحوها وتفرع عليه نفهم هذه الحياة الراهنة ؟ وأحب ان لا يفهم من الحياة سناها الخاطف وصورها المبذولة للجميع ، وانما اريد الحياة الكبرى ، حياة الاحياء والجادات والعوالم المنظورة وغير المنظورة ، قبل أن يخلق الانسان وبعد ان عاش متسامياً من الكوخ وسط الغابة الى ناطحات السحاب في المدينة العصرية

هذه الحياة التي أعنيها هي قصة في اجزاء لا عدد لها ، ورواية شهد الزمن فصولها فوق مسرح لانهائي . ووعى التاريخ قليلاً من مشاهدها لعلهُ أتفهها . وما كان التاريخ ليعي هذا القدر اليسير من رواية الحياة ، لو لم يرسل العلم اشعته الكاشفة على اشلاء الحضارات المطمورة وينبش طبقات الارض عن هياكل المخلوقات البائدة ويجوس جهابذته خلال الادغال والجاهل بحثاً عن القبائل البدائية والجماعات الفطرية التي تمثل الانسانية في اوائل نشأتها ، دع عنك كشف العلم أسراراً التفس والطبيعة — او ان شئت الدقة فقل بعض هذه الاسرار

فاذا طالبنا الاديب اليوم وكتّاب هذا العصر — فضلاً عن المستنيرين — بالتوفر على الثقافة العلمية ، لم نكن مغالين او متجنين . فهكذا كان دأب الاديب والكاتب والمفكر في سائر العصور . ومن قراءة السير يتضح ان الجاحظ وأرازموس وفولتير وجيتا وبرنارد شو وألدوس هكسلي — وهم يمثلون الكاتب والاديب والفنان في مراحل ثقافية اجتازها العلم الحديث — استعبرا ما وجدوه من زاد المعرفة في رفاقهم

***

مهدت بهذه المقدمة للكلام عن ثلاثة من كتّابنا اعتقد انهم في طليعة المجددين على النمط المتقدم ، هم الاستاذ فؤاد صرّوف والدكتور بشر فارس والدكتور حسين فوزي — اتصلت

بالاول عن طريق صديقي العلامة النحاس في تحصيل الثقافة العلمية اصحاب مظهر ، وعن طريق إنتاجه الغزير الذي قدا يشذ عن دائرة العلم — واتصلت بالثاني عن طريق المرحوم الاستاذ جورج طنوس الصحافي الذي ينسب اليه فضل ادخال العنصر الاستفزازي في اخبار الصحف اليومية ، وكان ذلك قبيل سفره الى باريس للحصول على الدكتوراه في الادب — و تصلت بالثالث عن طريق مدرسة الطب ، فقد انتظم طالباً فيها وأنا على وشك الرحيل عنها ، وتعارفنا — هو وأنا ومحمود تيمور ومحمود طاهر لاشين على خلق القصة المصرية ، وانشأنا لها « مجلة الفجر » في سنة ١٩٢٥ —

الاستاذ فؤاد صرُّوف ، اكبر منافس لي ، بحكم عملي الصحفي الرئيسي ، فقد حذق تبسيط الثقافة العلمية وجعلها سائغة للجميع ، وأنا ارتزق من هذا الوجه ، والوضع الطبيعي ان لا أرضى عنهُ — الوضع الطبيعي بين أهل هذا الزمن وكل زمان — لكنني شاذ ، وأحمد الله على هذا الشذوذ ، لانني لا أعيش لآكل الخبز ، وليس تبسيط العلم بالسبيل الوحيد لملء البطن والجيب ، والخير موفور والرزق الحلال كثير ، فلا داعي لاجتراء الفضلاء ويحس الناس أشياءهم

وذهب الاستاذ صرُّوف بفضل آخر عظيم ، لاغنى للنهضة العربية الشرقية عنهُ ، وأعني بهِ نقل العلوم الى لغة الضاد نقلاً صحيحاً ، ولقد وفق — بمفرده — إلى وضع مصطلحات عديدة تستحق المطالبة بحشده في زمرة أعضاء المجمع اللغوي الملكي

وهذا الذي أسلفت لا يقاس بقدرة الاستاذ صرُّوف على القصص ، فأني والله دهشت حينما طالعت كتابه « أساطين العلم الحديث » في جلسة واحدة استغرقت ليلة كاملة من غروب الشمس الى شروقها

هؤلاء هم أبطال الانسانية حقًّا ، لا فريق السفَّاحين . . . هؤلاء شيدوا الحضارة الراهنة . الآخرون هدموا في أسسها واذا وجدتهم هنا وشيدوا فأيدي العلماء وعادة العلم أقاموا الصروح ، بأنكار الذات وحب الحقيقة والتجرد عن شهوات الحياة والتناسي عن مغرياتها ومشاغلها وأطماعها ، فكرة واحدة عظيمة استولت عليهم واستغرقت جهودهم هي الكشف عن أسرار الطبيعة وقوانين الوجود بما فيه من صامت وناطق وحي وميت

تلك قصص أعجب من حكايات الجان والسحار والسحرة والمردة ، وهي مع ذلك حقائق لم يفسحها خيال « أمنا العجوز »

مغامرات وقعت ، لا ريب فيها ، وصراع مع الفناء ، واستنباط للرقابة من الادغال والعدم ، واستدرار للخير من ينابيع الحمة ، وبركات تفيض نوراً ، كل هذا قرأته ، فكأني طالعت الجزء الخامس من قصص الف ليلة وليلة

هذا من جهة اللذة الفنية والاستهواء الروائي ، أما المعلومات العلمية الصحيحة ، فقد حشد الاستاذ صرُّوف — بطريقة دس الترياق في الدسم — في كتابه ما يضيف عن الانتساب الى كلية العلوم

ليس فيما قدمت مبالغة ، وانهُ مما يجب ازجاؤه للاستاذ صرُّوف . فلا ننتقل الى الدكتور بشر فارس معتذراً عن إفلاسي بضيق المقام

هذا الاديب الممتاز ، والشاعر المبدع قد عبَّ من فلسفة برجسون التي تعتبر وليدة التزاوج بين الفلسفة بمعناها العربان وبين العلم الحديث ثم هو قد حذق طريقة البحث العلمي في اللغات ، لا سيما العربية ، تلك التي ترُدُّ اللفظة الواحدة الى مثابتها في مجاهل الماضي ، وانها لرحلة عجيبة مضنية يسافر فيها الباحث دهوراً في طرق تعرج على صنوف الثقافات واجناس الشعوب . ويظهر ان الدكتور الفاضل ، قد درس «فرويد» الى جانب دراساته الشعرية والفنية . وأعرف انهُ يتدس في تضاعيف الحياة هنا وفي أوربا وفي الشرق الشقيق ، فاحصاً ملاحظاً . وقد نضج في العام الاخير من قصة « رمزية » هي الاولى من نوعها في الادب العربي ، صدَّرها بمقدمة جاءت بذاتها عملاً أدبيًّا رائعاً . ومهما يكن رأي النقاد فيها ، فاني اعتبرها ثمرة لثقافته العلمية — هي شرارة انبعثت من قلب فنَّان جعلهُ واعياً وجعلهُ الفن منتجاً ، ومثل هذا العمل الفني لا يبدعه فنَّان متخلف عن عصرنا ثقافة ونظراً الى الاشياء واستشفافاً للمستور من خلال الظاهر المرئي

ويبقى أن الدكتور بشر فارس لم ينتظنا بعد بأشهى منتجاته الفنية ، كالدكتور حسين فوزي حذوك الفذ بالفذ . فقد زاملت الدكتور فوزي في مدرسة الطب وصاحبتهُ في حياتي الادبية ، أو ناضلنا معاً في سبيل مثل أعلى لتدناه هو : خلق أدب مصري صميم ، وتحرير العقلية المصرية من السوداوية الماضي والحاضر ، وبالطبع أدب مصري وعقلية مصرها أدب العروبة وعقلية العروبة

كتاب « سندباد مصري » هو صرخة الفنان المتحرر مرتاعاً من جمود الشرق الهندي واحتجاج الفكر المصري على خرافات أزمنت ومدها الطغيان والجهل بأسباب الحياة فعاشت سخرية الفهماء أجمعين

هذا الكتاب ، حديث نفس برمة وثَّابة ساخرة ، وجدت في الهند نفحة — الفكاهة حتى تسمو فتعود بكاء وعويلاً ، لكني مع اغتباطي بنجاحه ، اطلب المزيد وأغلب الظن اني سأعود نفسي مرة أخرى وزيادة بنجاح زميلي مدير معهد الابحاث المائية

***

ايها الاخوان الثلاثة لقد عبرتم بذلك المدخل الاعوج فاغفروا لي ما تقدم من ذنبي

أحمد خيري سعيد

مجلة الدراسات الاسلامية

Revue des Etudes Islamiques. Ed. Geuthner, Paris

صدر الجزء الرابع لسنة ١٩٣٧ من مجلة « الدراسات الاسلامية » التي يصدرها المستشرق المعروف الاستاذ لويس ماسينيون من أعضاء مجمع اللغة العربية الملكي في مصر . ومضمون هذا الجزء أربع مقالات مسهبة . الاولى في أمثال وطلاسم كردية بقلم المسيو لسكو — والثانية عن المسلمين في سورنام (الجويان الهولندية) وهم خليط من الجاويين والهنود ويبلغ عددهم نحواً من ٤٢٠٠٠ ، ولهم تشريع جديد خاص بهم يباين حدود الدين الاسلامي ، وتاريخ هذا التشريع ٣٠ مارس ١٩٣٧ ؛ وهذه المقالة بقلم المسيو بوسكيه الاستاذ في جامعة الجزائر — والمقالة الثالثة كشاف للصحافة الوطنية في تونس ، وفيه أربعة أجزاء : الصحافة العربية باللغة العربية ، والصحافة العربية باللغة الفرنسية ، والصحافة العربية — اليهودية ، والدساتير الثانوية لصحف العربية واليهودية . وفي خاتمة هذه الاجزاء جدول يبين عدد الصحف التي ظهرت في تونس من ١٨٦١ حتى ١٩٣٧ والمقالة بقلم المسيو زقدوفسكي — وأما المقالة الرابعة فبيان منطقي مفصل للحوادث الجارية في ايران وافغانستان والشرق الاقصى ، بقلم السيد حمزه محفوظ . وهذه الحوادث تنبسط على الشؤون الاجتماعية مثل الحركة النسائية ، والاقتصادية مثل تقدم الصناعات ، والثقافية مثل التعليم الجامعي

وخلاصة هذا الوصف ان « مجلة الدراسات الاسلامية » لا تزال تسير في الطريق التي خطها لنفسها وهي الالمام بما يجري في الشرق العربي والبلدان الاسلامية لهذا العهد . والمجلة اذن خير معين لتعقب ارتقاء الامم الاسلامية وتتبع شؤون الذهنية العربية

ب . ع

قصص وشعر

١ — (كان ما كان) عرفت الاستاذ ميخائيل نعيمه القصصي بعد ان عرفت فيه الاديب الناقد ، وقبل ان أعرف فيه المفكر الفيلسوف . وكان اول ما قرأت له منذ سنوات قصة « الباقر » ثم رواية « الآبق او ابنون » فقدرت في قصصه ذلك الضرب من الفن القصصي القائم على التحليل النفسي والتصوير الدقيق ليبقات وهو الضرب الذي برز فيه كتاب الروس . ومن لاقامة كاتبنا في الروسيا ودراسته لآدابها أثرهم في خلق هذا الروح وبثه في أدبه . وهو أرقى الوان هذا الفن

وفي الشرق ، في نفوس أبنائه ، تراث هذا النوع من القصة لان في الحياة الشرقية التي يحيونها وفي العواطف والاحساسات والاستسلام للقدر التي تستولي على هذه النفوس ما يساعد

الكاتب على التناول والدرس . لهذا كان تقدير أدباء العربية لادبه التحليل النفسي لا يقل عن تقدير أدباء الغرب للقصة الروسية واستقبالها الاستقبال الممتاز

فلما أخرج الاستاذ نعيمة للناس مجموعة « كان ما كان » لمست فيها كل عناصر هذه الحيوية التي تضمن لهذا الضرب من القصة خلوده . وفي قصتيه « ساعة الكوكو » و « سفنها الجديدة » بساطة في الموضوع فلا تمويل ولا حوادث مفاجئة الا ما يضرب القدر به في سخريته غير ان المؤلف خلق لربيبته ميدانها الفسيح في تصوير هاتين الشخصيتين « خطار » و « أبو ناصيف » وقد تجاذبتها خواطر واحساسات تهبط الى اعمق الاغوار ثم تعلو فترق حتى تشف عن كل باطنها تصويراً بارعاً

وفي القصة الاولى بنوع خاص أدق تصوير للمدنية الغربية في اصطدامها بالروح الشرقي . ولعل هذه الفكرة العابرة في القصة القديمة هي الاساس الاول الذي بنى عليه الاستاذ ميخائيل صورته الرائعة للمدنية الاميركية فيما بعد من كتابه عن جبران تحت عنوان « تمخضت الفأرة فولدت جبلاً »

واذا كانت قصص هذه المجموعة من مواليد سني الحرب وليس فيها ما تجاوز هذا الحد فحسبي ان لا يضن المؤلف على قرائه المعجبين بأدبه، وبآثاره بعد تلك السنين في الناحية القصصية

***

٢ — « المجدلية » ان أروع ميدان للشعر هو القائم على التفكير القصصي الديني فإن في هذه الناحية صوراً للشاعر البعيد الخيال ومجالاً لخواطره ، ولا يعيبنا في ذلك شطط الشاعر او اعتداله وانما يعيبنا من أثره قدرته على تناول موضوعه وادائه واتجاه فكرته ومرمى غايته ودقة تصويره

وقد تناول الاستاذ سعيد عقل قصة مريم المجدلية تناول الشاعر البعيد النور فصوّر لنا هذه المرأة الخالدة خلود اسم يسوع اجمل صورة كما رسم ظلالاً المسيح هي غاية في الفتنة والسحر . وقد وفق الشاعر الى المساوقة بين جرس الفاظه وبين الفكرة التي يسوقها فكل لفظة تعطي دورها وتسير طريقها في نغم منسجم وبذلك خُلق القصيدة جوٌّ من الخشوع والتأمل ، فانبثت في ثنايا سطورها خيالات عابرة من قرون غابرة تلمس النهوض فيسرها هذا الرنين المتدفق

وللدلالة على توفيق الشاعر في صوره أنقل عنهُ هذه الظلال التي تعكس لنا صورة المسيح

كان ، في ذلك الزمان ، على تلٍّ حقير ، مخضوضر الجنبات
شاعر رقّ الرضى شفتيه ينثر الياسمين في الكلمات
قام بين الامواج من نظر الناس ومن مسمع الذرى الواجمات

يصدق الآي في الانام، ويرمي للزمان الحادي بسيد صداهُ
تمنات يموج فيها : بسوعٌ هيمات يرفضُ عنها : اللهُ

***

تتكى رحمة الملى بين جفنيـــه اتكاء السنى بحضن البريه
ويجول السلام في شفتيه حطاً ايضاً ورفقاً ظليلا
يلتوي نقلة الطفالى نحيلا يثني مشية الملوك جليلا
الرياحين في يديه تعرّت وارتمت حول كفه اكليلا
سربلتهُ أطيابها ، سربلتهُ سحب النور ، سربلتهُ الهيولى

فاما الصورة التي رسمها للمجدلية ، واما الصورة التي رسمها للقائها بالمسيح فأروع ما سيخلد في الشعر من صور

والقصيدة في مجموعها فيضٌ من إلهام أُمّي دوام هبوطه على شاعرنا . وقد قدم الشاعر لهذه القصيدة ببحث فلسفي في الشعر لولا ضيق المقام لعرضنا للقراء منهُ بعض آثاره

***

٣ — (ارجوحة القمر) قرأت للاستاذ صلاح لبكي قطعاً متفرقة في بعض المجلات فاطمأنت روحي الى روحه الوديعة واحسست في رقة خياله وعذوبة لفظه ما يحس القلب الصادق الاحساس اذ يستمع الى ابتهالات قلب صادق التعبير مخلص في ابراز مشاعره

لهذا أرى ان ابرز صفات هذا الشاعر الصدق . وهو اقوى جناح لاحلال الشعر محله من القبول والتقدير فلا تجد بهرجة في اللفظ وتلاعباً فيه ولا زيفاً في التصوير

يرسم لك المشهد من مشاهد الطبيعة فلا ترى أمامك إلاّ ما رآه هو بعينه لم يزد عليه الاّ الخيال الرفيق الذي يرفُّ بأجنحته الرقيقة فينفض من ألوانه السحرية ما يشيع فيه السحر فتخرج القصيدة وفيها حياة وحركة كما في قصيدته « مساء » التي يقول فيها :

مات لون النهار في الاحداق واستراح الدجى على الآفاق
وتعالت هناك أغنية الرا عي يسوق القطعان حول السواقي
وأضاءت على السفوح قرى لبـــنان ، يا للقرى الملاح الشواقي !
فالاساطير في خيال الروابي الـــشمل أطياف ذكريات رقاق

تسرّي ملء الزمان تروّيـــح فيهوى الزمان وهي بواقي
ايه يا أخت ليل التائم الـــدافيء من غمرة الليـــالي العاقِ
علّنا ننتهي على نغم حلـــو كحلمين من رؤى العشاقِ
أو كرجع الصدى تقلقل في الـــغور وموت الطيوب في الاوراقِ

وبهذه الريشة الخفّاقة نفس ألواناً شتى من الشعر الصادق في قصائده « سفر تكوين » و « هذا الليل » و « الانتظار » و « احلام الماء » و « حلم عذراء » وغيرها . ولعلّ أروعها قطعة « الليل » . واستمع معي الى هذه الابيات من قصيدة « لامرتين » اذ يناجيه بمناسبة ذكرى انقضاء مائة عام على زيارته لبنان فترى في لمحة خاطفة :

ثم قرير الطرف في ظل الفناء وأرح نفسك من وقر العناء
وأنشق الراحة من كف الثرى فالثرى راحة أبناء الشقـــاء
وظلام الرمس للعـــين متى لست أرحم من وهج الضياء
ضجعة الشاعر في أكفانه ضجعة توجع غـــير الشعراء

فقائد صلاح لبكي نسمات رقيقة تحمل أصداء عذبة من فؤاد شاعر فيّاض بما في الحياة من جمال وسحر حسن كامل الصيرفي

المقتطف : « كان ماكان » و « أرجوحة القمر » من منشورات مجلة « المكشوف » البيروتية ويطلبان منها . وأما « المجدلية » فقد نشرها يوسف غصوب ببيروت

ثلاثة كتب قرأتها

١ — سهم

قصة تأليف شكيب الجابري دكتور في العلوم — ٢٠٧ صفحات بقطع كبير — المطبعة العلمية بحلب

عندما فرغت من القراءة الثانية لهذه القصة ، سألت نفسي أصحيح ان مؤلفها هو شكيب الجابري السوري العربي ، ام هو شخص آخر من صميم اهالي شمال اوربا او من قطان قلب الجزر البريطانية ؟ ثم عدت فقلت سيان عندي أمن عنصر سامي كان كاتبها ام من عنصر آري ، او كان الدكتور الجابري يقص قصة اختبارات شباب على ضوء كهولته [1] فالتزم الحياد التقليدي فاسبغ على ابطال قصته عدة اسماء تتزلج بين الروسية والتركية والالمانية ، او قصها اديب غربي

(١) عرف أن المؤلف في شرخ شبابه [illegible] ثم كهل

لا يتيم للتقاليد حرمات بنية جعل قصته عالية يحسّ بها كل انسان في كل قطر وعصر، وزمان ومكان بصرف النظر عن عنصره وجنسه سواء، اكان هذا او ذاك، ففي قصته « نهم » قوة قادرة على انتزاعنا من صميم ذاتيتنا لتقصينا عن فوضى الحياة، وتسمو بنا الى عوالم نجلنا نشعر بالطمأنينة فيها الى النظام الذي سنه عقل الانسان متحدياً الحياة في فوضى فضلها المشوشة، ولؤلئها طرائفه الخاصة، لا في تصوير لمحات من صور الحياة كما هي فحسب، بل في ما وسعهُ من هز شعورنا واستثارة احاسيسنا فجعلنا نقاسمه انفعالات نفسه في الحالات الفاترة والمكدرة، ونستطيب عرض هذه الصور، لا كما هي في الاصل، بل كما يمكن ان تكون في عرف الفنان وقد ضمنها كثيراً من احتمالات ما في الطبيعة، فاذهلنا عن الحواشي الفنية التي لا تستمسك كثيراً بالحقائق ولا تتشبث بها، فأيقنا ان في تبسيطه وسهولته وبساطته انهُ يقول الصدق الذي لا يشوبهُ ريب!!

« نهم » قصة قلب فنان، اصبحت له شخصيته المترعة الطموح — بعد جدب وقحولة — لا تهب الحب الاّ المرأة المجهولة البعيدة، المرأة القدسية التي احاطها في مخيلته الخصبة بهالة من المحاسن النادرة العلوية، قلب شاب يودّ ألاّ يسلم مقاليده الاّ الى امرأة يتخيلها كاملة في كل شيء، حتى اذا لم يجد، عمد الى امرأة من حولهُ، وأسبل عليها من مخيلته الكسماء الذي يروقهُ ثم وضع قلبهُ الثمل بخمرة خياله على مذبح هواها

عشرات من النساء طفنَ حول قلب الفنان وتنازعته، هجر الاولى لانها أغرقته بفيض لسويتها فلاذت بالدير، وفشلت الثانية لانها ولجت طريقاً أضلها عن قلبه، وهكذا الثالثة والرابعة الى آخر ما لا يحصى من عدد الطُلعات المفتونات بالشاب الاديب الذائع الصيت الذي أتقن فن الاستهواء والاستغواء وصار كصيّاد هرم يعرف الطريدة ويعرف بأي طعم تؤخذ، يفعل كل ذلك طمعاً في استلهام موضوع لقصته أو إضافة خبرة جديدة الى معرفته

واذ يدور قلب الفنان دورتهُ ليتقبل سرّ السكون في الحب، او يحين الحين الشاذ لايقاظ العواطف الخاجعة، يجد قلبه قد ذوى، وبلي حيويته غاضت او لضبت، فترده الفتاة التي صدمها بضعفه خائباً مرذولاً في حين انها فتحت لهُ جوارحها وفتح لها قلبه بصدق، فتحول الى متفلسف مستقدس، يصير رسّاماً وموسيقيّاً يرسم الدموع والاحزان، وينشد الآهات والنوجعات

ليست قيمة القصة في الوقائع التي تتألف منها، ولا في كيفية ترتيبها، بل قيمتها في الكيفية التي تؤدى بها، ولقد استطاع هذا الاديب المختصر المتمكن ان يكيّف التأدية على أكمل وجه، وأدق معنى وبنى، وقد نحا نحو كبار القصصيين المجددين في رسم هو جس النفس وتردد الخاطر، ومحاسبة الضمير — او ما يسمونهُ ضميراً — وسلك مسلكاً فريداً في الحوار هو سمة القصة المتازة، بلغة عربية نقية سلسة، واجتذب كل قارىء وقارئة من وعاة الفن ويقظى

القلب، وقسرهم على الاعترافات الفردية المخنوقة عن زوات النفس، ورغبات الجسد، ومقالبة العاطفة، وشجار العقل، فصارت كل طُلعة من السيدات ومغامرة من الفتيات، وصار ايضاً كل أديب يقول، هذه هي قصتي

في وسعي ان أقول، لو ترجمت قصة «نهم» الى اللغات الاوروبية التي مؤلفها الاديب الاريب خيرما يلقاه القصصي الموهوب، ولرحب بها النقاد أحسن ما يرحبون بالعمل الكامل

هو ذا نجم أشرق في سورية يشير الى ميلاد قصصي

***

٢ — عمر افندي

قصة تأليف لطفي جمعة — ١٦٧ صفحة من القطع المتوسط — منشورات جريدة المكشوف

بين اكثر الاشياء واضدادها برازخ متدانية متقاربة، ومن غرائب الصدف ان أكتب عن قصتين متناقضتين في وقت واحد، وأعالج دراسة مؤلفين متضادين كانهما تعاندا على ان يقف الاول على أعلا الدرج ويتكئ الثاني على بسطة الثبة الاولى

أعدّ الاول، مؤلف قصة «نهم» جميع معدات القصة من موضوع، وعقدة ووحدة، وخاتمة، وفن وصناعة، وتوجيه وإيحاء، وتدليل وتحليل، واسلماح وغنى في الالفاظ، ومقدرة على الاداء السليم ببساطة، الى آخر ما هنالك من خصائص يذكرها الناقد بالذات، وينساق معها الكاتب الموهوب بالسليقة، ويماشيها المتمكن المكتسب وهو يقدر المصير منذ خطا الخطوة الاولى ولا يغفل اسباب الفراغ في المسافات بين الخطوة والخطوة. في حين ان الثاني مؤلف قصة «عمر افندي» أهمل جميع هذه المعدّات التي لا علم له بها ولا أبه لها والتي لا غنى للقصصي عنها، وارتكن على قدح ذهنه، وبقية باقية من انفعالات نفسه من جراء حب نبت عند مشرق الشمس، وازهر عند الظهر، وذوى وقت الغروب

يؤسفني ان أقول ان لا فائدة من الوقوف مع المؤلف الثاني، ولا محاسبته على فصول قصته التي تصلح لان تكون «رؤوس مواضيع» لصحيفة مدرسية لا رقابة على تحريرها، ويسرني ان أنصحه بأن لا يأخذ نفسه بما كتب له كاتب في المقدمة

***

٣ — قميص الصوف

مجموعة قصص تأليف يوسف عواد — ١٣٢ صفحة من القطع المتوسط — منشورات جريدة المكشوف

للاقصوصة شأن آخر يختلف عن شأن القصة، فبين هذه تجول في ميادين واسعة، وتقتحم

أجواء فسيحة ، وهي تظل وتستظل ، ترى الفكرة الواحدة في تلك تركز على محور واحد يدور المؤلف حولها ببلاغة وبساطة

لمؤلف هذه المجموعة القصصية قدرة على استخلاص عناصر القصة من الواقع ، وحرفة في أخذ الحدث الشائع يتذرع به للتقرب من أفهام الناس ، ليدلهم من بعيد على بعض لمحات من شخوص الحياة ، ولكنه كسول لا يكلف نفسه مشقة التوضيح ، او الايحاء والتوجيه ، ولا يعنى بعقد العقدة ولا بتجريش ذهن القارىء على حلها ، لانه لا رسالة له في كتابة القصة ولا غرض وهو يكتفي بالحكاية وحدها ، وللحكايات سواء أكانت خرافية ام حقيقية ، موضوعية ام ذاتية ، اركانت بين هذا وذاك ، طرف وملح مستحسنة مستحبة عند بعض الناس

فحكاية «الوسام» الذي منحه الحاكم الى «ابونا القسيس» مستشرجهود العميان ومستغل اعمالهم ، وحكاية «توها» ذلك الجندي الجلف الذي خنق ابنه لانها ازعجته حين رقاده وخاصم زوجته لانها لم تلد ولداً ذكراً ، وحكاية « الرفيق كامل » ذلك الرجل الذي اعتنق المبادىء الشيوعية عن اعتقاد فانتهى به المطاف الى السجن ، وحكاية « بهية » الراقصة التعطشة الى كتف رجل يحبها بصدق لتنجو من كذبها وأكاذيب عشاقها الوقتيين ، انما هي « حواديت » ينقصها النشاط الفني ، وإكسير الحياة ، يكسبان الافكار التي تمثلها حقيقة وروعة

وللمؤلف ولع خاص في التعالي بالاستمساك بالتعابير السائرة على ألسنة الناس من أبناء محلته وهذه الخاصة ، وان تكن مشكورة ، الا انني لا استطيبها اصلاً لنبوها عن اللغة الفصحى ، ولتعمل الكتاب العامية تعملاً صارخاً ، ولاستعماله كلمات حوشية ماتت منذ حقب او اكثر

كل شيء في نهضتنا يدعو الى التجديد والاخذ بأسباب الرقي ، وأساليب العصر ، فالبائع الجوال في شوارع القاهرة ينادي على سلعته «عندنا قتالين يمنع العث من الملابس » اما الطبقة المتعلمة من الجنسين فتكاد تتحدث بلغة تقرب من لغة الجرائد ، لذلك اخالف من يدعو الادباء الى مخاطبة الدهماء بلهجتهم ومصطلحاتهم وتعابيرهم ، لاني اعتقد ان هذه الطبقة تأثر كثيراً بمن هم اعلى منها وتقتبس عنهم كل شيء حتى الكلام والتعابير فما ضر كتاب القصص لو كتبوا بلغة الحديث الشائعة بين طبقة المثقفين

***

لا ريب أن الدأب في كتابة القصة ، والنشاط في مضاعفة ما يكتب أقطابها سيقوي الملكة الفنية ، ويصقل الاستعداد القصصي عند اصحاب مؤلف « قميص الصوف»

القاهرة حبيب الزحلاوي

فهرس الجزء الثالث

من المجلد الثالث والتسعين

٢٦١ الكون : عمره وحجمه

٢٦٩ العشاق الثلاثة : (قصيدة) لعلي محمود طه

٢٧٤ الكلف والاشعة الكونية

٢٧٧ النهضة العربية القومية وأثرها الادبي : لانيس المقدسي

٢٨٧ جسم الانسان بين الحرارة والبرد

٢٩٢ العامية والفصحى : للدكتور انيس فريحه

٢٩٩ رسالة المنبر الى الشرق : لامين الريحاني

٣٠٢ الاوبئة والتاريخ

٣٠٨ آلية الفن . اتجاهات العصر في الآداب والفنون : لزهدي التاجي الفاروقي

٣١٦ ابن سينا وجبران خليل جبران

٣١٧ تقدم علوم الطب : للدكتور شريف عسيران

٣٢٤ دائرة الحياة : (قصيدة) لخليل هنداوي

٣٢٦ وزارة المعارف ونشاطها

٣٣٣ مؤتمر علم النفس الحادي عشر : لمحمد مظهر سعيد

٣٣٧ ابن البيطار : لفؤاد عيتاني

٣٤٠ الحلم الحالم : (قصيدة) لحسن كامل الصيرفي

٣٤٦ مؤلفات الشيخ ابو علي بن سينا : لمنوشهر مؤدب زاده

٣٤٨ حيوانات مشهورة وصحة امثالها : لفريق الدكتور امين المعلوف

٣٥٣ أيتور : لسليم خياطه

٣٩٣ حديقة المتحف * الآلهة : للكاتب الانجليزي آرثر شنيتزلر : نقلها ابراهيم شمرش

شيكاغو : للشاعر كارل ساندبرغ : نقلها زهدي التاجي الفاروقي

٢٧٢ باب الاخبار العلمية * العلم وفوائده وفوائدها . تجاوز النبات وأثيره في نموها . اكبر جزيء في الجسم . أقفى يفوق طبقة من الهواء الغائم . تاريخ كلمة الجراحة الملكية بلندن . أكبر أشعة الشمس . الطيران حول الارض

٣٢٨ مكتبة المقتطف * الثروة العلمية في الادب الحديث . مجلة الهداية الاسلامية . كان ما كان . الجدلية . روحوحا القمر . سهم . عمر الشنتي . قيس ليلى

«صورة من الجو لحصن «جبل»

«طارق». راجع في باب سير»

« الزمان مقاس « توازن القوى »

« البحرية في البحر المتوسط »